ISM
12734
DS
126
.M8

نشرات المكتب العربي

مكتبة بير زيت
١٤٠١٧
BEERZEIT COLLEGE

النشرة الثانية

مشكلة فلسطين

عرض عام

الجزء الثاني من المواد التي عرضها المكتب العربي بالقدس
على لجنة التحقيق البريطانية الأميركية ، للنظر فيها
خلال شهر آذار سنة ١٩٤٦

مطبعة بيت المقدس — القدس

156.94
M85
Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

مقـــدمة

تؤلف الصفحات التالية قسما من المواد التي أعدها المكتب العربي بالقدس ، لتستعملها لجنة التحقيق البريطانية الأميركية التي زارت فلسطين في شهر آذار من سنة ١٩٤٦ ، وقد قسمت تلك المواد الى ثلاثة أجزاء : —

(أ) خلاصة موجزة لموقف العرب تجاه مشكلة فلسطين

(ب) تحليل المشكلة واستعراضها ، بصورة عامة ، من وجهة نظر العرب

(ج) عدد من المطالعات والمذكرات القصيرة التي تعالج مسائل معينة

وقد نشر المكتب العربي الجزء الأول من هذه المواد بصورة نشرة ، ويحتوي هذا الكتاب على الجزء الثاني منها ، وينشر الآن على الشكل الذي قدم به إلى اللجنة ، دون تغيير يذكر .

والمكاتب العربية منظمة غير رسمية ، أنشئت بمعونة مالية قدمتها بعض الدول العربية وبعض الأفراد في فلسطين ، بقصد مساعدة الشعبين البريطاني والأميركي على معرفة العالم العربي ، وخاصة مشكلة فلسطين ، معرفة صحيحة ، وعلى تكوين أفكار سديدة عنهما ، وذلك عملا على تحسين العلاقات العربية البريطانية والعلاقات العربية الأميركية ، ومعظم أعضاء هذه المكاتب من العرب الفلسطينيين وهي الأن ثلاثة مكاتب : واحد منها في لندن ، وآخر في واشنطون، ويقوم المكتب المركزي في القدس ، وعلى الرغم من أن وجهات النظر التي نحاول إيضاحها تنسجم ، بصورة عامة ، مع وجهات نظر الجامعة العربية واللجنة العربية العليا الفلسطينية ، فليس لها علاقة رسمية بأية هيئة من هاتين الهيئتين ، ولا يجوز اعتبار أية آراء تعرب عنها هذه المنظمة ملزمة لأحد غيرها .

القدس في شهر أيار سنة ١٩٤٦

Digitized by Birzeit University Library

الفهـــرس

	صفحة
مقدمة	٣
تمهيـد	٩
الفصل الاول — منشأ المشكلة وتطورها	١١
١ — أرض فلسطين	١١
٢ — العرب	١٣
٣ — اليهود	١٥
٤ — تشتت اليهود	١٦
٥ — الامبراطورية العربية	١٨
٦ — اليهود تحت حكم العرب	٢٠
٧ — الامبراطورية العثمانية	٢١
٨ — العالم العربي في تغير	٢٤
٩ — القومية العربية	٢٧
١٠ — الصهيونية ومشكلة اليهود	٣٠
١١ — الحرب العالمية الأولى	٣٤
١٢ — الانتداب و « الالتزام المزدوج »	٣٧
١٣ — السياسة الصهيونية بين سنتي ١٩١٧ و ١٩٣٩	٣٨
١٤ — التطور الاقتصادي بين سنتي ١٩١٧ و ١٩٣٩	٤١
١٥ — التغيرات التي طرأت على العرب	٤٣

Digitized by Birzeit University Library

صفحة

١٦ — التاريخ المعاصر للبلدان العربية ٤٧

١٧ — مقاومة العرب للصهيونية — الثورة الفلسطينية ٤٩

١٨ — العالم العربي والصهيونية ٥٣

١٩ — السياسية البريطانية بين سنتي ١٩١٧ و ١٩٣٩ ٥٥

٢٠ — الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩ ٥٩

٢١ — عرب فلسطين في أثناء الحرب ٦٣

٢٢ — السياسة الصهيونية منذ سنة ١٩٣٩ ٦٤

٢٣ — الجامعة العربية ٦٦

٢٤ — بيان المستر بيفن ٦٨

الفصل الثاني — مناقشة الحجج الصهيونية ٧٥

١ — تمهيد ٧٥

٢ — الحقوق الطبيعية والتاريخية ٧٧

٣ — النبوءة الدينية ٨٢

٤ — التعهدات الدولية ٨٥

٥ — بيان الحجة المتصلة باللاجئين ٨٩

٦ — مناقشة الحجة المتصلة باللاجئين ٩١

٧ — عرض الحجة السيكولوجية (النفسية) ٩٦

٨ — مناقشة الحجة السيكولوجية ٩٨

٩ — عرض الحجة الاستراتيجية (المتعلقة بالموقع الحربي) ١٠٢

Digitized by Birzeit University Library

	صفحة
١٠ — دحض الحجة الاستراتيجية	١٠٢
١١ — العرب في أثناء الحرب	١٠٧
١٢ -- حجة « المدنية العليا » ـ عرضها	١١٢
١٣ -- حجة « المدنية العليا » ـ مناقشتها	١١٤
١٤ — تقدم اليهود	١١٦
١٥ — التقدم العربي	١١٩
١٦ — امكانيات فلسطين الاقتصادية	١٢١
١٧ — حجة انتفاع العرب	١٢٣
١٨ — فوائد الاستيطان الصهيوني ، الاقتصادية	١٢٥
١٩ — السكان العرب	١٢٧
٢٠ — فوائد الاستيطان الصهيوني ، الاجتماعية	١٢٩
٢١ — فوائد الاستيطان الصهيوني ، الثقافية	١٣٢
٢٢ — فوائد الاستيطان الصهيوني ، السياسية	١٣٤
٢٣ — هل يناوىء العرب الصهيونية حقاً ؟	١٣٦
٢٤ — لماذا يبيع العرب الأراضي الى الصهيونيين ؟	١٤٠
٢٥ — أخطار الصهيونية	١٤٢
٢٦ — أخطار الصهيونية ، الاقتصادية	١٤٣
٢٧ — أخطار الصهيونية ، مجاعة الأراضي	١٤٦
٢٨ — أخطار الصهيونية ، الاجتماعية	١٥٠
٢٩ — أخطار الصهيونية ، الثقافية والروحية	١٥١

Digitized by Birzeit University Library

صفحة

٣٠ — أخطار الصهيونية ، السياسية ١٥٣

٣١ — أخطار الصهيونية ، على العالم العربي ١٥٥

٣٢ — أهمية فلسطين للعالم العربي ١٥٨

٣٣ — الصهيونية واستقرار الشرق الأوسط ١٥٩

الفصل الثالث — مقترحات العرب لحل المشكلة ١٦٠

١ — خلاصة اعتراضات العرب على الصهيونية ١٦٢

٢ — مطالب العرب ـ (أ) بشأن الحكم الذاتي ١٧٠

٣ — مطالب العرب ـ (ب) الهجرة ١٧٢

٤ — مطالب العرب ـ (ج) شراء الأراضي ١٧٤

٥ — شكل الدولة الفلسطينية ١٧٦

٦ — اليهود في الدولة الفلسطينية ١٧٩

٧ — السياسة الاجتماعية والاقتصاديه للدولة الفلسطينية ١٨٢

٨ — المسيحيون العرب في الدولة الفلسطينية ١٨٥

٩ — الأماكن المقدسة في الدولة الفلسطينية ١٨٨

١٠ — فلسطين ومنظمة الأمم المتحدة ١٨٩

١١ — فلسطين وجامعة الدول العربية ١٩١

الفصل الرابع — حلول متعاقبة ١٩٣

١ — مقدمة ١٩٣

٢ — المساواة ضمن الوحدة السورية أو العربية ١٩٥

Digitized by Birzeit University Library

صفحة

٣ — التقسيم ١٩٧

٤ — حكومة وطنية مع هجرة محدودة ٢٠١

٥ — لا حكم ذاتي وهجرة محدودة ٢٠٤

٦ — لا حكم ذاتي ولا هجرة ٢٠٧

٧ — الوصاية ٢٠٧

٨ — المشاريع الاقتصادية ٢٠٩

٩ — ما الذي وعد اليهود به ؟ ٢١١

١٠ — أيكون اليهود آمنين في ظل الحكم العربي ؟ ٢١٣

١١ — ما الذي يجب عمله باللاجئين ؟ ٢١٦

١٢ — أيمكن كسب مودة العرب ؟ ٢١٧

١٣ — ما الذي يقبل العرب التضحية به ؟ ٢١٩

١٤ — استنتاجات . ٢٢٠

Digitized by Birzeit University Library

تمهيد

إن صلاحية اللجنة الراهنة تخولها ، في جملة ما تخولها ، « ان تفحص الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في فلسطين ، من حيث علاقتها بهجرة اليهود اليها واستيطانهم فيها ، وفيما يتصل بهناء السكان الذين يقطنونها الآن » .

وهذه الصلاحية تؤكد المبدأ الذي نص عليه تقرير لجنة بيل ، واعيد ذكره في الكتاب الأبيض الصادر سنة ١٩٣٩ ، من ان مسألة الهجرة اليهودية الى فلسطين ليست مسألة اقتصادية او فنية صرفة ، يقتصر في تقريرها على النظر في مقدرة البلاد على الاستيعاب بل هي مسألة لها ملابساتها السياسية والاجتماعية والخلقية الجوهرية البعيدة المدى ، وهذا المبدأ اساسي لفهم موقف العرب إزاء مشكلة فلسطين ، فالعرب يعتقدون الآن ، كما كانوا يعتقدون من قبل ، بأن كل قرار يتخذ في امر الهجرة (حتى لو كان يقضي بجعلها متوقفة على « مقدرة البلاد على الاستيعاب الاقتصادي ») هو قرار سياسي ، هذا من الناحية العامة ، أما من الناحية الخاصة ، فانهم يعتقدون ان الهجرة اليهودية الى فلسطين مسألة تلعب فيها العوامل السياسية دوراً هاماً اساسياً ، ذلك ان العرب يرون ان مطالبة الصهيونيين بالهجرة الواسعة النطاق هي ذاتها وليدة حافز سياسي . فالصهيونيون يريدون الهجرة الواسعة ، لانهم يريدون ان يصبحوا اكثرية في فلسطين ، وهم يريدون ان يصبحوا اكثرية ، لانهم يريدون ان يؤسسوا دولة ، فليس قصدهم إذن ان يحلوا مشكلة اللاجئين ، وانما هم يستهدفون تأسيس دولة يهودية ، وموقفهم تجاه الهجرة ليس إلا مظهراً من مظاهر برنامجهم السياسي ، ومطالبتهم بأن يقرر امر

Digitized by Birzeit University Library

الهجرة على اساس « المقدرة على الاستيعاب » ، وحده ، هي في ذاتها جزء من خطتهم السياسية .

ومتى فهمنا ذلك تمام الفهم اتضح لنا سبب معارضة العرب ، معارضة حازمة، في استمرار الهجرة ، ولا يتضح هذا دون فهم ذلك ، نعم ان العرب لا يخشون التحقيق في امور الاقتصاد ، فهم متيقنون من ان استمرار الهجرة يلحق الأذى باقتصادياتهم في فلسطين والبلدان العربية الأخرى ، غير انهم يجزمون بأن الاعتبارات الخلقية والسياسية اكثر قيمة من تلك وهم يعارضون الهجرة استناداً الى قواعد خلقية ، لانهم يعتقدون ان من المحال ايجاد اي مسوغ لفرض مهاجرين اجانب على السكان الاصليين في قطر ما ، دون رضاهم ، ورغم ارادتهم الصريحة وهم يعارضون فيهـا من وجهة سياسية ، لأنهم لا يوافقون ، ولن يوافقوا على ان يصبحوا اقلية تعيش كمنة يمتن بها شعب اجنبي وحكومة اجنبية وهذه المعـارضة تنطبق على الهجرة اطلاقاً ، سواء أكانت محدودة او واسعة النطاق ، وذلك من الوجهة الخلقية ، إذ لا فرق ، من حيث المبدأ ، بين فرض مهاجر واحد على العرب رغم ارادتهم ، وفرض مليون مهاجر ، اما إذا نظرنا الى الاعتبارات السياسـية ، فما دامت القوة المنتدبة او اية حكومة اجنبية ميالة الى الضغط على العرب من اجل مهاجر واحد ، فيحمل هـذا التشجيع ساسة الصهيونية على المضي في توهمهم انهم لا يعتمدون على رضا العرب ، وانهم قادرون على إقامـة دولة لهم وراء سور من الحراب البريطانية .

وسنبين في الصفحات التالية ان الاعتبارات الخلقية والسياسية والاقتصادية تشابك بعضها ببعض في كل جانب من جوانب المشكلة الفلسطينية .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الأول

منشأ المشكلة وتطورها

١ — ارض فلسطين

ان فلسطين وان كانت ذات كيان سياسي منفرد منذ انحلال الامبراطورية العثمانية ، وتختلف في بعض خصائصها الجغرافية وتقاليدها عن البلدان المحيطة بها ، إلا ان من الأصوب اعتبارها جزءاً من قطر كبير او من عدة اقطار كبيرة .

(١) فهي جزء من الوحدة الجغرافية المعروفة بسوريا ، وهي منطقة واحدة تمتد ما بين جنوبي هضبة الاناضول وصحراء سيناء ، والبحر الميت ، وما بين البحر الأبيض المتوسط وصحراء سوريا وصحراء جزيرة العرب ولما انتهت الحرب العالمية الأولى قسمت حكومتا بريطانيا وفرنسا هذه المنطقة الى اربعة اقسام : سوريا ، ولبنان ، وفلسطين ، وشرق الأردن ، ولكن هذه المنطقة ما زالت تحتفظ بوحدتها الاصلية الطبيعية والتاريخية فهي تتصف بمناخ متشابه وحياة نباتية مشتركة وتكوين طبيعي واحد واغلبية سكانها من اصل واحد (وهو في لغة العلم مزيج من عنصر سكان حوض البحر الابيض المتوسط وعنصر الارمنويد مع غلبة العنصر الاول على الثاني) ومعظم سكانهـا يتكلمون اللغة العربية بلهجات متعددة ، لا يختلف بعضها عن بعض اكثر مما تختلف اللهجات الانكليزية فيما بينها ، وترتبط اكثرية السكان فيها برابطة دين واحد ، هو دين الاسلام ، أضف لما تقدم ، ان لهـذه الوحدة الجغرافية المعروفة بسوريا نظاماً اقتصادياً مشتركاً تنتقل فيه البضائع والناس

Digitized by Birzeit University Library

انتقالا مستمراً حسب تقاليد متوارثة ظلت متبعة رغم الحواجز المصطنعة التي أقيمت في الخمسة والعشرين عاماً الاخيرة ، ولهـــا نظام اجتماعي مشترك ، او بالأحرى سلسلة متشابكة من الأنظمة الاجتماعية ، وقلما توجد أسرة واحدة في أحد أقسام سوريا الاربعة ، دون أن يكون لها فروع في الاقسام الثلاثة الأخرى ، ثم ان كل فرد من سكان احد هذه الاقسام يشعر ، حين يذهب الى الاقسام الاخرى انه في وطنه وبين اهله وعشيرته ، وقد ظلت هذه المنطقة كلها حقباً طويلا جزءاً من امبراطورية واحدة ، فـكان لها نظام إداري ومالي واحد ، وان كانت في بعض الازمنة المنقسمة الى دويلات عديدة ، وظل فعل العامل الاقليمي قوياً في كل الآونة .

(٢) وهي ، منذ ثلاثة عشر قرناً ، جزء من « العالم العربي » ، وهو وحدة كونها « الفتح العربي » في القرن السابع ، ويشمل ايضاً العراق ، وشبه جزيرة العرب ، ومصر ، وشمال السودان ، وساحل افريقيا الشمالي . ووحدة العالم العربي قائمة عـــلى عدة عوامل ، منها : اللغة (فاللغة المـكتوبة هي الفصحى في جميع البلدان العربية ، واللغة المحـكية في كل منها هي لهجة مشتقة من الفصحى) ، ومنها التراث التاريخي ، ولا سيما ما جاء به الفتح العربي في القرن السابع ، وامجاد الخلافة في اول عهدها ، ومنها ثقافة شعبية ونظام اجتماعي متوارث ، تأثر تأثراً كبيراً بطراز الحياة البدوية في شبه جزيرة العرب ، او نسجا على منواله .

(٣) ان اغلبية السكان في سوريا مسلمون منذ ما يزيد على الالف سنة ، وان كانت فيهـا اقليات مهمة من مسيحيين وغيرهم ، ولذلك فان سوريا جزء من العالم الاسلامي الذي يشمل كل البلدان العربية ، كما يشمل ايضاً تركيا ، والبانيا ،

Digitized by Birzeit University Library

والعجم ، وتركستان ، وافغانستان ، واجزاء من الهنـد ، واندونيسيا ، ويمتد الى اواسط افريقيا وغربها والى البلقان وجنوب روسيا وغرب الصين .

(٤) وتعتبر سوريا منذ العصور السحيقة في القدم جزءاً من عالم شرقي البحر الابيض المتوسط ، ولقد نجم عن المناخ المشترك ، ووسائل النقل البحرية الميسرة ، وتنقلات الناس ، وحدة بالغة الأثر في الحياة الاقتصادية والثقافة الشعبية، وهذه الثقافة تقوت باشتراك اجزائها جميعاً في امبراطوريات عظيمة ، ولا سيما الامبراطورية الرومانية ، والامبراطورية الرومانية الشرقية ، والامبراطورية العثمانية. وفي العصور السابقة لهذه الحقب كان التبادل الثقافي كثيراً في قيمته ومقداره . وما نسميه المدنية الغربية كان نتيجة لاتصال عبقرية اليونان والمصريين والسومريين والساميين ، ولسير تياراتها في مجرى واحد .

٢ — العرب

لقد قلنا فيما تقدم ان فلسطين ، جزء من « العالم العربي » واغلبية سكانها يسمون انفسهم ، ويسميهم العالم الخارجي ، « عرباً » ويعني هذا انهم يتكلمون العربية ، ويعتبرون تراث العرب تراثهم ، ولكنه لا يعني ان صلتهم بفلسطين لم تبدأ إلا بالفتح العربي او الاسلامي في القرن السابع ، فالعرب الذين استوطنوا هذه البلاد على اثر ذلك الفتح كانوا قلائل ، ولم يلبثوا ان اندمجوا في سكانها الاصليين ، ولكنهم منحوا اولئك السكان لغتهم ودينهم الجديد ، وتقاليدهم ، وبذلك استعرب هؤلاء السكان ويدعى سكان فلسطين اليوم عرباً بسبب هذه المحنة الثقافية ، لا بسبب عنصرهم اي ان عرب فلسطين من سلالة السكان

Digitized by Birzeit University Library

الاصليين الذين قطنوا هذه البلاد منذ اقدم العصور المعروفة في التاريخ ولا يزالون يقطنونها ، اضيفت اليهم عناصر جديدة شبيهة بعنصرهم الاصلي تغير صبغته تغيراً ملحوظاً ، ويمكن حصر هذه العناصر في عنصرين ، تسهيلا للبحث ، فكان ثمة البدو الرحل الوافدون من صحراء سوريا والصحراء العربية ، وهؤلاء كانوا يتكلمون إحدى اللهجات السامية ، ويستوطنون البلاد كمزارعين ، وكانت ثمة جماعات اصغر من الاولى مؤلفة من المهاجرين الذين نزحوا من آسيا الصغرى او اصقاع آسيوية ابعد منها او من مصر او عبر البحر الابيض المتوسط ولا يجوز الحط من اهمية هذه الجماعة الثانية ، ولكن يجوز لنا ان نقول اجمالا انه كان للجماعة الاولى ابلغ الأثر في تكوين طبيعة السكان الاصليين في فلسطين ، فالمهاجرون الذين نزحوا من مصر او مما وراء البحر قد يقطنون الساحل ، اما في الداخل ، اي في القسم الجبلي الذي يؤلف الجزء الاكبر من البلاد ، فقد كان السكان دائماً ابداً ساميين في لغتهم وثقافتهم الشعبية .

ولقد استمرت هجرة الساميين وغيرهم الى فلسطين على مدى التاريخ، وكانت في الغالب بطيئة ، حيث كانت الجماعات الصغيرة تنزح اليها وتندمج بالسكان الاصليين شيئاً فشيئاً ، غير انه دخلت البلاد احياناً جماعات كبيرة ، تركت في البلاد وفي ذهن العالم ، أثراً ضمن لها بقاء اسمها في البلاد ، ومن هذه الجماعات الكنعانيون ، والفلسطينيون ، والآراميون الذين ظلت لهجتهم السامية المعروفة بالآرامية لغة بلاد سوريا الى ما بعد الفتح الاسلامي فهذه الجماعات ومئات غيرها قد ساهمت في تكوين عنصر السكان بنصيب لا يقل عن نصيب العرب الذين أعطوا اسمهم ولغتهم للسكان جميعاً .

Digitized by Birzeit University Library

وهذه النقطة لا تخلو من مغزى سياسي فلو لم يكن عرب فلسطين اليوم إلا احفاد الذين غزوا البلاد في القرن السابع ، لما حق لهم ان يدعوا باكثر مما سماه المستر بيفن « الف سنة من الاحتلال » ، ولكان هذا الاحتلال متأخراً عن احتلال اليهود لها ، ولا يكاد يزيد عليه في الطول ، ولكن ما داموا هم السكان الاصليين للبلاد ، ففي استطاعتهم ان يدعوا بسكناهم إياها قروناً عديدة متصلة الحلقات قبل احتلال اليهود لها وبعده ، وتقوى العقبات التي تعترض سبيل من يحاول نقض ادعائهم ذاك .

٣ — اليهود

ان تاريخ العبرانيين القديم ليس إلا مثالا من أمثلة تكوين سكان البلاد على النحو الذي وصفناه ، فيما تقدم ، فقد استقر هؤلاء في الاراضي الجبلية بعد تجوالهم الطويل ، كما استقر غيرهم من قبائل الساميين ، وكانوا يتكلمون لهجة سامية قريبة من لهجة سكان البلاد الآخرين ، وصرف هؤلاء قسطاً كبيراً من نشاطهم في قتال مستمر مع القبائل الاخرى ، فكانوا يخضعون لها احياناً ، وكانت لهم احياناً اخرى مملكة صغيرة او ممالك تتفاوت اتساعا وضيقاً ، ولكنهم لم ينشروا سلطانهم المطلق على كل البلاد ولم يحتلوها بكاملها ، وفي بعض الاحيان كانوا يخضعون لسلطان امبراطوريات كبيرة ، ولنفوذ اجنبي ، لكن خضوعهم هذا لم يعق سير حياتهم او الاحتفاظ بتقاليدهم .

فكل هذا الوصف ينطبق على اية قبيلة سامية ، اما ما يميز العبرانيين عن غيرهم فهو تطور آرائهم الدينية والخلقية تطوراً تدريجياً ، ولن نحاول هنا ان نصف

Digitized by Birzeit University Library

هذا التطور، او الادب الذي كان وسيلة التعبير عنه، كما اننا لن نحاول قطعاً ان نقلل من أهميته الكبرى في تاريخ البشر ، ولـكن لا بد لنا من جلو مظهر من مظاهر تقاليدهم الدينية لانه ما زال حتى الآن يؤثر تأثيراً حاسماً في طبيعة الشعب اليهودي ونفسيته ، ونعني بذلك فكرة الميثاق الخاص بين الله وشعب اسرائيل ، وهذا يقضي على بني اسرائيل بان يكونوا أمة ذات دين يقتصر عليها وتقتصر عليه ، لا يعبدون الله بالسنتهم فقط بل بكل عمل يعملونه افراداً او جماعة، وما داموا يحفظون العهد لله فسيظل الله يحفظه لهم ، واما اذا نسوه فسينساهم ، وبمضي الزمن نشأ عن هذه الفكرة — فكرة الأمة الحاملة لواء الدين — شيء آخر هو فكرة تقلهم الرسالة الى العالمين — فاليهود بفضل ميثاقهم مع الله عليهم واجب خاص، هو ان يشهدوا لله امام الناس اجمعين ، وان يكونوا وسطاء في تبليغ رسالة تقواه الى جميع الأمم ، وفكرة الرسالة العالمية هذه نشأ عنها الأمل في المسيح المنتظر ، كما نشأ عن فكرة حمل الامة اليهودية لواء الدين ان تطورت الشريعة لديهم تطوراً جعل كل عمل يعملونه ، افراداً او جماعة ، مهما تضاءل ، نوعا من انواع العبادة .

٤ — تشتت اليهود

ثلاث حوادث غيرت طبيعة اليهود وتاريخهم — اولها انتشار المدنية الهلينية، وهذا أدى من ناحية الى الاندماج (اما كلياً او جزئياً لظهور ديانة يهودية هلينية) كما ادى من ناحية ثانية الى رد فعل قومي في زمن المـكابيين .

والحادث الثاني هو فرض السلطة الرومانية على البلاد وهذا أدى الى نزوح اليهود عن فلسطين ، وتشتتهم في جميع انحاء حوض البحر الأبيض المتوسط، ومن المألوف ان يعزى تشتت اليهود الى اخماد الثورتين اللتين قام بهما اليهود ضد السلطة الرومانية

Digitized by Birzeit University Library

في عامي ٧٠ و ١٣٢ بعد الميلاد ، ان هذا بلا ريب قد عجل في تشتتهم ، ولكن الاصح ان نقول اجمالا ان السبب عائد الى تحسن المواصلات وحالة الأمن في حوض البحر المتوسط والى ما نتج عن ذلك من اتاحة فرص المهاجرة ، والمتاجرة ، وفي الواقع ان تشتت اليهود كان جزءاً من تشتت السوريين في انحاء الامبراطورية الرومانية ، وكان الحافز اليه هو حب الكسب والتقدم ، اكثر منه الاضطهاد ، وقد تكونت لليهود في زمن الرومان تلك الخصائص التي ما زالوا يتصفون بها حتى الآن ، أي خصائص شعب تاجر يقطن المدن .

والحادث الثالث هو ظهور المسيحية ورفض اليهود اياها . ان الذي يؤمن بالمسيحية ، والذي لا يؤمن بها قد يختلفان في تقدير اهمية هذا الرفض من حيث التفكير فيما وراء الطبيعة . ولكن يمكننا ان نقول جازمين ، دون حاجة الى الايضاح ، ان رفض اليهود للمسيحية قد غير نظرتهم الى العالم المحيط بهم ، وغير نظرة العالم اليهم .

ومنذ العهد الروماني لم تعد فلسطين المركز المادي والفكري لحياة اليهود بل كان مركز حياتهم اسبانيا حيناً ، وشرق اوروبا حيناً آخر ، ولقد انتقل الآن الى امريكا ، ولكن مهما يكن المكان الجغرافي لليهود المشتتين ، فقد نشأت فيهم خصائص معينة ثابتة ، فاصبحوا جميعاً تقريباً صناعا وتجاراً يسكنون المدن، وجعلوا من الناحية الاجتماعية ينطوون على انفسهم ، ويسيرون في حياتهم الاجتماعية وفق قانونهم الديني ، دون ان تكون لهم علاقة اجتماعية او خلقية تذكر بالناس الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، واصبحت لهم عقلية اللاجئين اليائسة المرتابة ، الدفاعية ، المبالغة في الاحساس . اضف الى ذلك ان فكرة الرسالة العالمية لديهم

Digitized by Birzeit University Library

قد تبدلت دون ان تتلاشى ، فانقلبت الى رغبة اكيدة في المحافظة على دين بني اسرائيل وتقاليدهم بدلا من نشرها .

وصحب ذلك في صورة المسيح المنتظر في اذهانهم فاصبحوا يتصورونه المخلص الذي سيقود الشعب المشتت عائداً الى ارض اسرائيل وتعلق خيالهم وامانيهم تعلقاً ثابتاً بذكريات الحياة القديمة في فلسطين ، وبالخلاص المأمول على يد المسيح المنتظر . واصبحت طقوسهم وتعاليمهم الدينية ثابتة لا تتبدل ، وانصرف همهم وعنايتهم الى الاحتفاظ بكل تفاصيل الشعائر الدينية كما كانت في الماضي ، كأن اقل تغيير في الشكل يؤذي المعنى والروح او يودي بهما .

كل هذه العوامل ، وعوامل اخرى ، قد ضربت حول جماعات اليهود اسوار العزلة والانفراد ، فعاشوا في احياء خاصة بهم . وقد كان لكراهيتهم للشعوب الاخرى وارتيابهم بها اثر في تضييق الخناق عليهم (وكان هذا في البلدان المسيحية اكثر منه في البلاد الاسلامية) وكانوا يضطهدون في بعض الاحيان ، فيجدون في احيائهم الخاصة المنعزلة ملجأهم الوحيد ، وان لم يكن الملجأ الملائم . لكن هذه الحياة لم تكن نتيجة الكراهية او الاضطهاد ، وانما نتجت عن حب اليهود للاحتفاظ بتراثهم وذكرياتهم دون تغيير ، وعن عجزهم عن اقامة علاقات خلقية طبيعية مع العالم المحيط بهم .

٥ — الامبراطورية العربية

بعد تشتت اليهود ظلت الاغلبية الساحقة من سكان فلسطين تتكلم الآرامية وظلت ذات ثقافة آرامية او اغريقية ، وبقيت تابعة للدين المسيحي ، ويحكمها

Digitized by Birzeit University Library

البيزنطيون حتى القرن السابع الميلادي ، ولكن في أخريات هـذا العهد تسربت من بلاد العرب قبائل ، لم تكن تتكلم الآرامية ، بل لغة سامية تعرف بالعربية ، واستقرت في البـلاد واختلطت بالسكان الاصليين ، وبدأت عملية الاستعراب ، قبل ان تفتح البلاد في القرن السابع موجة جديدة من العرب قادمة باسم ديانة التوحيد الجديدة التي نادى بها محمد ، وكان هؤلاء القادمون ، كما قلنا ، قليلي العدد نسبياً ، وكانوا من الشبه بالسكان الاصليين ، عنصراً وثقافة ، بحيث سهل تمازج السكان قديمهم وحديثهم ، فمن الناحية العنصرية انصهر القادمون الجـدد في بوتقة من سبقهم ، ولكنهم منحوا السكان جميعاً لغتهم العربية ودينهم الجديد ومن اجل هذا التشابه العنصري وهذا الامتزاج السريع ، لا يمكننا اعتبار الفتح العربي فتحاً بالمعنى الصحيح ، ولا يمكننا بحال من الاحوال ان نعتبره حكماً اجنبياً دخيلا . فحالما نسي الفرق بين العرب والمستعربين اصبح سـكان فلسطين جزءاً من صميم العالم العربي الاسلامي، واصبحوا اعضاء عاملين في دولة الخلافة الاسلامية العربية ، واشتركوا في مجدها السياسي وغير السياسي .

واما القول بأن فلسطين لم تكن يوماً من الايام مركزاً من المراكز الهـامة للثقافة الاسلامية — وهو قول تكثر الدعاية الصهيونية استغلاله، وقد ساعد تقرير بيل على نشره — فهو خارج عن نطاق البحث ، فقد كانت فلسطين جزءاً لا يتجزأ من تلك الثقافة ولعبت دوراً اساسياً في حياة العالم الإسلامي الدينية . فالقدس اقدس مدينة في العالم الإسلامى بعد مكة والمدينة . وفيها مسجد من اقدس المساجد واجملها ، وفيها حدث مشهد المعجزة المعروفة في حيـاة الرسول ، معجزة الإسراء . وفي اول عهد الإسلام كان مسجدها قبلة المؤمنين قبل ان تكون مكة قبلتهم .

Digitized by Birzeit University Library

ثم في القرآن والسنة الشيء الكثير من تراث الديانة اليهودية والديانة المسيحية ، مما يجعل بقاعاً كثيرة في فلسطين ذات قداسة لدى المسلمين لا تقل عن قداستها لدى المسيحيين واليهود .

٦ — اليهود تحت حكم العرب

ان اليهود والمسيحيين في عرف الاسلام هم « اهل الكتاب » يؤمنون بالله والوحي واليوم الاخر، ومن اجل ذلك لا يحق اضطهادهم او اكراههم على الدخول في الاسلام ، وانما ينبغي على الحاكم المسلم ان يحميهم ولما كانت الخلافة في القرون الوسطى دولة دينية قبل كل شيء ، لم يكن لليهود والمسيحيين فيها حقوق الرعايا الكاملة : فلم يسمح لهم بان يحملوا السلاح في جيوش المسلمين ، ولا ان يشهدوا على مسلم في المحكمة ، على انه لم يحاول احد ان يخضعهم لاحكام الشريعة الاسلامية ، بل كانت لهم الحرية المطلقة في تنظيم حياتهم العامة واحوالهم الشخصية وفقاً لقواعد دينهم .

ربما اكره غير المسلمين في بعض الاحيان وفي بعض البقاع على دخول الاسلام ، وربما انتقصت حقوقهم بشتى الطرق، غير ان اوامر الدين ظلت سائدة على وجه الاجمال ، فبقي اليهود والمسيحيون ، بل ازدهروا ، طيلة القرون التي حكم فيها العرب في العصور الوسطى ، ومع انهم احتفظوا بالكثير من عزلتهم وتفردهم ، فانهم استعربوا لغة ولباساً واكتسبوا كثيراً من صفات العرب الاجتماعية والثقافية وفي تاريخ الثقافة اليهودية باجمعه لا نجد عهداً اسعد ولا ازهر من عهد الحكم العربي ، وفي اسبانيا ومصر وغيرهما لم يكن لليهود الحرية المطلقة في

Digitized by Birzeit University Library

التدين وطلب العلم فحسب ، بل قاموا بقسطهم في بناء الحضارة العربية عامة ، ففي ميادين العلم والبحث والتفكير الفلسفي والطب ، اضاف اليهود الى ثروة ما وضع في العربية ، وساهموا في توجيه جهد المفكرين المسلمين ومضاعفته ، ولم يحرموا مناصب الحكم الرفيعة في بعض البلدان و بعض القرون ، ويحق للعربي وللمسلم ان يفاخر بقومه متى قرأ تاريخ أمته في العصور الوسطى ، وقارنه بتاريخ الاضطهاد الملطخ بالدماء في اوروبا في تلك العصور .

ولقد ظلت في فلسطين ، كما ظل في غيرها من البلاد التي حكمها العرب ، جماعة من اليهود . ومع ان فلسطين لم تعد مركزاً مادياً لحياة اليهود بعد خراب الهيكل و بعد ثورة بار كوخا ، وظل عدد اليهود فيها ضئيلا زمناً ، الا انهم ازدادوا بعد قليل واستردوا نشاطهم . وفي القرون الاولى لتشتت اليهود كانت جماعة من السكان اليهود تقطن الارياف ، ولكن اليهود اصبحوا بالتدريج من سكان المدن في فلسطين وغيرها ، وافلحوا في حياتهم المدنية هذه، الى ان جاء الصليبيون الذين كانوا قد بدأوا مغامراتهم بذبح اليهود في بلاد الراين ، وأخيراً احتفلوا ببلوغها ذروة النجاح وقمة الفلاح بذبح اليهود والمسلمين والمسيحيين غير الكاثوليك من سكان القدس ، بحد السيف .

٧ — الامبراطورية العثمانية

انحل نظام الخلافة العربية بالتدريج ، وتبع الإمبراطورية المتماسكة الاجزاء في زمن الامويين واوائل عصر العباسيين سلسلة دويلات قصيرة العمر ، ثم غلب الترك العثمانيون حكام فلسطين من المماليك ، وأسسوا في الشرق الأدنى وشمال

Digitized by Birzeit University Library

افريقيا والبلقان امبراطورية ظلت عـلى قيد الحياة ، رغم ما اصابهـا من انـكماش وتضعضع ، حتى عام ١٩١٨ .

وكتاب الغرب يشوهون سمعة الإمبراطورية العثمانية ، فيزعمون انها كانت استبدادية ، فاسدة ، متعصبة ، يتحكم فيها عنصر واحد هو العنصر التركي، ولكن هذا الزعم بوجه الإجمـال ، لا ينطبق على الامبراطورية في عنفوان عظمتها ، ولا يتسع المجال هنا للدفاع عن الامبراطورية العثمانية او لتبرير اعمالها ، ولكن يجـدر بنا ان نؤكد نقطتين اساسيتين ذواتي صلة بمجادلات الآونة الحاضرة .

أولاً : من الخطأ ان نقول ان الامبراطورية العثمانية كانت دولة للعنصر التركي ، وان العرب كانوا فيها شعباً محكوماً . نعم كان السلطان من اصل تركى ، وكانت لغة الادارة هي اللغة التركية ، ولكن الامبراطورية في جوهرها كانت ، كالخلافة العربية ، دولة دينية عالمية ، وكانت كل المناصب فيها مفتوحة الابواب لجميع المسلمين مهما كان اصلهم العنصري ، ومهما كان نوع الديانة التي نشأوا عليها . بل كانت القاعدة الأساسية في الدولة والمجتمع المساواة المطلقة بين جميع المسلمين . فلم يكن العرب ، ومن جملتهم عرب فلسطين ، شعباً مضطهداً ، بل كانوا جزءاً من المجتمع العثماني مساوياً تمام المساواة لباقي اجزائه .

زد عـلى ذلك ان الامبراطورية العثمانية لم تقم بعمل من شأنه كبت نشـاط رعاياها القومي وفي ولاياتها ، ولم تكن الامبراطورية العثمانية ، قبل القرن التـاسع عشر ، دولة مركزية مغالية في التنظيم الاداري ، بل مجموعة من الشعوب هنا وهناك غير محكمة الصلات ، وكان السلطان يعتبر الحاكم الأعلى ، ولكنه قلما كان يتدخل ، هو او وزراؤه ، في الشؤون المحلية للجزء الاعظم من الامبراطورية

Digitized by Birzeit University Library

خارج الحصون ، وكان تدخله مقصوراً على جمع الضرائب او تأديب الرعايا العاصين ، وفي الواقع ان فلسطين ، كغيرها من اجزاء الامبراطورية العثمانية ، كان يحكمها الحكام المحليون ، من افراد السلالات الحاكمة ذات الكيان الوطيد نوعاً ما او من المغامرين الموفقين ، وكانت حياة الناس العادية فيها تسير حسب العرف والعادة المتوارثة ، ووفقاً لما يفرضه النظام الاقتصادي والاجتماعي السحيق في القدم .

ثانياً : وكما ان كل مجتمع يقطن ناحية من الامبراطورية كانت تطلق له الحرية في الحياة ، كذلك كانت كل طائفة دينية حرة لا يتدخل احد في شؤونها الدينية، فكان يهود الامبراطورية ، كالمسيحيين من كل مذهب يشكلون « ملة » اي طائفة تعيش ضمن الامبراطورية ، منظمة تحت اشراف رؤسائها الروحيين ، ويعترف السلطان بأنها ذات سلطة في كل الشؤون الطائفية والاحوال الشخصية ، ولها صلاحية تمثيل جميع اعضائها في علاقاتهم مع الدولة . وكان للملة حق ادارة املاكها ، وتنفيذ احكام شريعتها في امورها الداخلية ، ولم يكن يتدخل في امور عبادتها احد . كان اليهود والمسيحيون خارج نطاق المجتمع العالمي في الدولة العثمانية، مما ادى الى اضعافهم وحرمانهم بعض الأمور ، وكانوا يحسون بهذا في كثير من الأحيان ، ولكنهم لم يضطهدوا اجمالا ، ولم يمنع اخوانهم في الدين في البلاد الأخرى من حج الأماكن المقدسة ، ولا ننسى ان اليهود الذين اضطهدوا في اسبانيا واخرجوا منها وجدوا العالم العثماني كله ملجأ امينا لهم .

Digitized by Birzeit University Library

٨ — العالم العربي في تغير

نشطت روح الابداع بين العرب بظهور الاسلام و بالفتوح العربية، ولكنها ما لبثت ان ركدت بالتدريج واضمحلت بعد قرون قليلة من الانتاج والاستطلاع، وكان عصر العثمانيين عصر احتفاظ بالتراث ، ولم يكن عصر ابداع ، وما ابتدأ القرن التاسع عشر الا وقد تضعضع نظام الحكومة العثمانية ، وانحطت الزراعة والتجارة ، وقلت المدارس عدداً وساءت حالا ، وأهمل تراث العرب وصار نسياً منسياً .

الا ان العالم العربي استعاد حياته خلال القرن التاسع عشر ، باحتكاكه بحضارة الغرب ، فقد كان تأثير الغرب في الامبراطورية العثمانية في ازدياد قبل ذلك ، وكانت المستعمرات التجارية الاجنبية في توسع ، واستقرت الارساليات الكاثوليكية ، واخذت الدول الكبرى تتنافس على النفوذ في الآستانة . الا ان العالم العربي لم يتصل بمدنية الغرب اتصالا وثيقاً الا في بدء القرن التاسع عشر، حيث يجوز القول ان التغير بدأ في مصر بغزوة نابوليون لها ، وفي البلاد السورية باحتلال ابراهيم باشا لها بين سنتي ١٨٣١ و ١٨٤٠ . ومنذ ذلك الوقت اصبح العالم العربي ، لأول مرة منذ سقوط البيزانطيين ، على اتصال وثيق بمجموعة اخرى من الأمم لا يستطيع ان يحتقرها او يهملها او يتمثلها فتصبح جزءاً من كيانه، وجعل يتأثر بقوى خارجية لا يملك السيطرة عليها ، فلم يكن له بد من التغير تغيراً جوهرياً في كل مظهر من مظاهر كيانه .

وهذا التغير مستمر حتى الآن ، ولو أردنا ان نتتبعه بالتفصيل لاضطررنا الى

Digitized by Birzeit University Library

البحث في كل مظهر من حياة العرب وتفكيرهم ، إلا ان من المهم ان نبين العلاقة الاساسية بين العالمين العربي والغربي التي انشئت خلال القرن التاسع عشر ، وما زالت مستمرة حتى الان، علاقة القوة الكبيرة بقوة دونها . فقد ظهر الغرب مزوداً بقوة عسكرية وسياسية كبيرة جداً، و بالتدريج مدت بعض دول الغرب سيطرتها او نفوذها على العالم العربي بكامله تقريباً وفي كثير من البلدان العربية استعيض عن اشكال الحكم التقليدية بنظم الادارة الغربية وكانت دول الغرب متفوقة ايضاً من الناحية الاقتصادية ، فطغت بضائع الغرب على العـالم العربي ، وغيرت نظام الانتاج القديم وخلقت احتياجات جديدة وطرقاً جديدة في المعيشة ، ودخل رأس المال الغربي ايضاً فجعل بالامكان اقامة نظام اقتصادي جديد ، وكان وراء هـذه القوة الاقتصادية نوع آخر من التفوق في المهارة في الصناعة والفنون التطبيقية ، وفي تنظيم المجتمع والحـكومة .

وبمضي الوقت اختلط بهذه العلاقة الخارجية القائمة على القوة ، علاقة داخلية قائمة على التفاهم ، ذلك ان العرب لم تتسرب اليهم بضائع الغرب وجيوشه وحدها، وانما تسربت اليهم ايضاً افكاره واخيلته. فلم يقتصر التغير على حياتهم الاقتصادية والاجتماعية فحسب ، بل تجاوزها الى مبادئهم ومثلهم الدافعة الى العمل ، وهكذا امتد نفوذ الغرب شيئاً فشيئاً وسيطر على عقل الفرد وروحه .

وقد كانت هذه العلائق العقلية الروحية، الى حد ما، نتيجة لأعمال الارساليات المسيحية ، ولا سيما الفرنسية منها والأمريكية ، الـتي تعد طليعة التعليم الغربي في البلاد العربية ، ولـكنها كانت في الغالب نتيجة مباشرة محتومة للعلاقة الأخرى ، علاقة القوة ، ذلك انه لما حاولت الحـكومة العثمانية والحـكومة المصرية ان تقوما باصلاح شؤونهما وزيادة قوتهما لمواجهة تحدي القوة الأوروبية ، احتاجتا الى ضباط

Digitized by Birzeit University Library

عسكريين وخبراء فنيين وموظفين حكوميين فتأسست مدارس الصنائع ، وارسلت البعثات الى الغرب .

وهكذا فتح بالتدريج منفذ للاتصال بعلم الغرب وطرق تفكيره وبعث من جديد حب العرب للعلم ، وظهر اهتمام كبير شامل بالحضارة الغربية التي ظهرت لهم فجأة . وبالتدريج ظهرت طبقة الخاصة من المثقفين وامتازت بنشاطها ، وكان مركزاها الرئيسيان القاهرة وبيروت ، وقد تم لها القيام بأعمال خطيرة فأعادت للغة العربية مكانتها ، وأسست صحافة ودوراً للنشر من الطراز الأول في الاتقان ، وأثارت الاهتمام بماضي العرب ، وأحيت تراثهم ، ونشرت فيما بينهم الحياة الغربية والعلوم الغربية بترجمة كتب الغرب او اقتباسها وتكييفها وفق حاجات القراء واذواقهم ، اضف الى هذا ان في هذه البلاد الآن نشاطاً في الابداع الفكري والانتاج الأدبي لم تعهد منذ خمسماية سنة .

وهذا التغيير الكبير في ميدان الأدب والثقافة ، وفي كل ناحية من نواحي الحياة ، لم يقارب غايته ، فالعقل العربي والمجتمع العربي ما زالا مضطربين ومنقسمين على نفسهما ، تتنازعهما الدنيا القديمة المشرفة على الموت ، ودنيا جديدة لم يكتمل نموها . ويعتبر هذا النزاع عادة وضمن الحدود الصحيحة الدقيقة نزاعاً بين الشرق والغرب ، ولكن الروية وانعام النظر يقضيان باعتباره نزاعاً بين مجتمعين عالميين ، فالعرب أسسوا مجتمعهم العالمي في العصور الوسطى ، وما زالوا يعيشون فيه ، والآن في العصر الحاضر ، تخلق اوروبا واميركا مجتمعاً عالمياً متحداً من حيث النظام الاجتماعي والاقتصادي ، ومن حيث البحث العلمي والمهارة الصناعية ، ومن حيث الأصول السياسية ، ولكنه قابل للتحوير التكييف الى حد بعيد جداً . والعرب ، كغيرهم من أمم الشرق ، ينجذبون الى هذا المجتمع

Digitized by Birzeit University Library

الغربي تدريجياً ، وما اضطرابهم وقلقهم الراهنان سوى وسيلة يعبرون بها عن محاولتهم لتقرير الشروط التي يدخلون هذا المجتمع بموجبها ، وما الذي ينبغي لهم حفظه من تراثهم وتقاليدهم ، وما يقدمونه له منهما على سبيل المساهمة .

٩ — القومية العربية

إن محاولة العرب لبعث حياتهم والتفاهم مع المجتمع العالمي الجديد، قد اتخذت في الناحية السياسية شكل حركات متعددة ، أهمها الحركة القومية العربيـــة . ولو أنعمنا النظر وتعمقنا في القومية العربية واستقصيناها ، لوجدنا انها الظاهرة السياسية للعزم الذي بعث بين العرب من جديد ، على أن يحيوا ويبدعوا .

إن العزم على الحياة والابداع يظهر بصور شتى ، ففي ميدان السياسية يتخذ شكل الميل الشديد الى العيش معاً في مجتمع واحد ، سواء بخلق هذا المجتمع ، أو بالمحافظة عليه ، ان كان موجوداً ، والواقع أن المجتمع العربي كان موجوداً بصورته التقليدية قبل اتصاله بالمدنية الغربية في القرن التاسع عشر ، وكان قائماً على تعاليم الاسلام ، وعلى السلطة العثمانية، وعلى التضامن بين أفراد القبيلة الواحدة ، والأسرة الواحدة ، لكن هذا المجتمع التقليدي ما فتىء ينحل ويتفكك ، فاصبح على الأمة العربية الناهضة واجب سياسي يقضي عليها بان تعيد انشاء ذلك المجتمع ، ويمكن اعتبار هذا الغرض أهم أغراض القومية العربية، ذلك أثره يتجاوز السياسة الصرفة إلى أشياء أخرى كثيرة .

إن لاعادة بناء المجتمع مشاكل داخلية وخارجية ، منها ما يقرر شكله ، ومنها ما يقرر علاقته بسائر أفراد الأسرة العالمية ، وهذان النوعان من المشاكل مرتبط بعضهما ببعض ارتباطاً وثيقاً في كل الظروف ، ولكن المشاكل الخارجية تفوق

Digitized by Birzeit University Library

غيرها في الأهمية في هذا العصر ، والمشكلة الداخلية الكبرى للامة العربية في عصر الانتقال الراهن ، هي أن تقرر علاقتها بالمدنية الأوروبية من ناحية ، وعلاقتها بماضي العرب من الناحية الأخرى، ان تعين ما ينبغي لها أن تأخذه من كل منهما ، وكيف تصنع لنفسها منهما مزيجاً يساعد على تفتح العبقرية العربية واستثمارها تمام التفتح والاستثمار ولا يمكن حل هذه المشكلة حلا مرضياً إلا إذا تمكن العرب من اقامة علاقة مرضية بينهم وبين الدول الغربية التي تمثل في نظرهم حضارة الغرب ، وما داموا يلقون معاملة سيئة على يد هذه الدول ، فلا ينتظر منهم أن يقبلوا القيم العليا في تراث الغرب وتقاليده ، بل يخشى عليهم أن يتحولوا عن الغرب، ويقتبسوا منه القوة المادية وحدها ، ويقفوا ازاء المجتمع العالمي موقف المنبوذ ، ولا وسيلة غير أن يعاملوا معاملة مرضية ، تحملهم على السير في الصراط القويم ، الذي يؤدي بهم إلى اقتباس كل ذي قيمة في أية ناحية من نواحي الحيـاة الغربية ، اقتباساً طليقاً خالياً من كل تأثير أو توجيه خارجي ، قادراً على اغنـــاء أرواحهم لا افقارها أو خسرانها .

كثيراً ما يعتبر البرنامج السياسي للحركة القومية بيت القصيد فيهـــا ، وهذا اعتبار خاطىء ، وانما هذا البرنامج في الواقع محاولة يقوم بها دعاة القومية لتحديد الشروط التي يعتبرونها أساسية لحسن المعاملة التي ينالونها من الأعضاء الآخرين في المجموعة العالمية ، وخاصة الدول الغربية التي يتصلون بها اتصالا وثيقاً ، وبين هذه الشروط شرطان على جانب كبير من الأهمية ، أولهما أنهم يرغبون في أن يعترف بهم كاعضاء متساوين مع غـيرهم في عضوية مجموعة الأمم ، وأن يسمح لهم بحمل تبعات الاستقلال وجني ثمـاره ، والثاني انهم يرغبون في أن يساهموا بنصيبهم في شؤون العالم ، كأمة متحدة تضم جميع الشاعرين بعروبتهم .

Digitized by Birzeit University Library

فاذا كانت الدول الغربيـة مستعدة لقبول مطلبي العرب هذين الأساسيين ، أصبح في الامكان أن تسير الأمة العربية في السبيل الذي يرجوه لها جميع زعمائها المسؤولين اليوم ، وهذا هو سبيل التسامح والسعي الانشائي في الشؤون الداخلية ، والاقبال على المساهمة التامة في مهام المجموعة العالمية ، أما إذا لم تكن مستعدةلقبول ذينك المطلبين ، أو اتخذت ازاء العرب موقف العدوان ، فقـد تسوء حال الأمة العربية ، وتسوء ماهية القومية العربية بكاملهـا ، وتحل محل الحركة القومية التي يشهدها العالم اليوم ، حركة أخرى هي وليدة السخط والقنوط ، أخطر من تلك بمراحل . ولو قدر لهذا أن يحدث ، لكان فيه ما يهدد الأمن والسلام في الشرق الأوسط وبذلك يهدد الأمن والسلام في العالم كله ولكان فيه كارثة عـــلى العرب أنفسهم .

والجيل الراهن ذو أهمية حيوية لحل هـذه المشكلة ، لأنه الجيل الذي تتخذ فيه الأمة العربية طابعها الجديد ، وكل ما يؤثر فيها الآن يبقى أثره فيها أجيالا كثيرة ، والدور الذي تلعبه الوحدة السورية في حل هذه المشكلة دور حيوي ، ففي هذا العصر الذي يعتبر العرب فيه أول واجباتهم التفاهم مع الغرب ، مدنيته وقوته ، لا بد أن يقع عبء جد ثقيل على كاهل البلدان العربية الواقعة على شواطئ البحر الابيض المتوسط ، وخاصة البلدان التي تأثرت تأثراً عميقاً بمدنيـــة حوض البحر المتوسط والعالم الغربي ، وساهمت في تلك المدنية باوفى نصيب ، وسوريا اليوم هي مركز الجهاز العصبي للقومية العربية ، وحركة البعث العربي .

ولا تقدر خطورة الصهيونية في نظر العرب ، إلا على ضوء هـذا الشرح ، ولذلك فان العرب جميعاً يعتبرون المحاولة التي تقوم بها بريطانيا العظمى ، بموافقة

Digitized by Birzeit University Library

بعض الدول الاخرى على الاقل ، لفرض مهـاجرين أجانب على العرب في مركز الجهاز العصبي للعالم العربي ، وفي مرحـلة من أحرج مراحل تطوره ، رمزاً ومحكاً لموقف العالم الغربي بكامله ازاء العالم العربي بكامله . فمـا دامت الصهيونية تنـال معاضدة جانب كبير من العالم الغربي ، يظل من المستحيل أن يقيم العرب علاقة مرضية مع ذلك العالم، وعلى هذا الضوء، لا يقتصر أثر السياسة التي تتخذها الدول الغربية تجاه الصهيونية على تقرير موقف الامة العربية تجـاه الغرب ، بل يتعدى ذلك إلى تقرير أعمق ما في كيانها الداخلي ، وتكوين الروح التي تسري فيه .

١٠ — الصهيونية والمشكلة اليهودية

وفي حين كانت الحركة القومية تتقوى بين العرب ، أو حوالي ذلك الحين ، نشأت حركة موازية لها بين اليهود المبعثرين في أوروبا . وكانت تلك الحركة حركة الصهيونية التي ترمي الى عودة قسم كبير من اليهود الى استيطان فلسطين، لتصبح فلسطين مرة أخرى مركز حياتهم في العالم . وتستمد الصهيونية قوتها من عقيدة اليهود العريقة في القدم بعودة المسيح ، ومن ايمانهم بان اداء رسالتهم يقضي بعودتهم الى فلسطين ، وبحرصهم على بقاء عاداتهم وطقوسهم التي تبقى ذكرى فلسطين حية في قلوبهم . وقد حملتهم تلك العقيدة قبل القرن التاسع عشر بزمن طويل ، على القيـــام بعـدة محاولات عقيمة للعودة الى فلسطين ، وأوحت الى متدينيهم بالهجرة ، غير المتقطعة ولكن باعداد جد قليلة ، من شرق أوروبا الى القدس ، حيث يحيون حياة تعبّد ، ويعيشون في سلام مع سكانها الآخرين . وما كان لتلك العقيدة بذاتها أن تلد الصهيونية التي نعرفها اليوم ، لو لم تضم اليهـا بعض العناصر الاخرى التي نشأت في القرن التـاسع عشر . وقد كان بعض هذه

Digitized by Birzeit University Library

العناصر عالمياً غير مقصور على اليهود وحدهم مثال ذلك تطور فكرة الدولة القومية وحق الشعب في تقرير مصيره بدل الانصياع لمشيئة حاكميه ، ومثال آخر تقدم وسائل المواصلات وفنون الاقتصاد ، وهذا سهل الانتقال والاستيطان على مقياس كبير ، ولكن هناك عاملين اختص بهما اليهود .

فالعامل الاول منهما فتح الثغر في الاسوار التي كانت تعيش وراءها جماعات اليهود في غرب أوروبا وأواسطها بعض الفتح ، كما فتحت أمامهم في شرق أوروبا فتحاً بطيئاً فبدت لهم ثقافة أوروبا وفرص التقدم فيها ، وكأنها تفتح أبوابها في وجه عدد من اليهود يزداد باطراد . وسار بعضهم في سبيل الاندماج بغيرهم فنجحوا فيه أو خيل اليهم كذلك ولكن كان ثمة آخرون لا يرغبون في الاندماج، لاعتقادهم بان لدى اليهود رسالة يجب عليهم مواصلة ادائها في العالم ، وبان اندماجهم يعتبر في هذه الحالة ضرباً من الردة عن الدين وكان هذا الاندماج مستحيلا على بعض آخرين ، لانهم كانوا قد حاولوا الاندماج فخاب سعيهم وهم في منتصف الطريق ومن هذه الخيبة نشأت الصفات التي اختص بها اليهود الذين لم يكمل اندماجهم من شعورهم بالضعة والارتياب حتى وكراهية النفس ، ذلك انهم قادرون على المساهمة التامة في حركاتهم القومية والاجتماعية والفكرية ، ولذلك يتوقون الى مكان يعترف بانه لهم ، ويشعرون فيه بالارتياح ، ويحيون فيه معاً حياة طبيعية مثل سائر الامم .

وكان العامل الثاني المذابح اليهودية الكبيرة التي جرت في روسيا في أواخر القرن التاسع عشر . وقد أصبح كثير من اليهود ، لدى تأملهم فيما أصابهم من هذه المذابح ، يعتقدون أن السبب الحقيقي لها ، كان وضعهم السياسي والاجتماعي

Digitized by Birzeit University Library

الشاذ في بلاد التشتيت حيث كانوا بلا وطن ولا حمـاية ، ولا يرغب فيهم أحد ، وكان عملهم مقصوراً عـلى حرف ومهن محدودة ، كما كانوا هدفاً تصيبه كل غارة من غارات الكراهية الشعبية . ولم يكن لليهود من وسيلة للفرار من هذا الوضع سوى تكوين حياة طبيعية في وطن يقيمون فيه كحق لهم .

وتعاون هذان العاملان ، وعوامل أخرى أقل أهمية منهما ، على ايجاد الحركة الصهيونية غير أن تشعب أصولها قد أوجد فيها توتراً ونزاعاً داخليين حادين ، نشأ بنشأتها وما زالا يلازمانها ويصح القول أن فيها عناصر ثلاثة هامة — أولها اليهود الغربيون الذين اندمجوا بغيرهم اندماجاً تاماً على التقريب — من طراز ثيودور هرتسل — فلم يكن لديهم سوى القليل من الشعور الغريزي بالاخوة تجـاه اليهود الاخيرين لكونهم يهوداً ، ولم يدينوا بالولاء للديانة اليهودية ، اللهم إلا النذر اليسير ونظروا الى المشكلة اليهودية كما ينظر اليها مفكرو الغرب على اعتبارها مشكلة عالمية ينبغي حلها ، ودعوا الى الصهيونية على اعتبارها برنامجاً سياسياً وحلا معقولا لتلك المشكلة ، لا عقيدة من عقائد الدين ، والعنصر الثاني صهيونيو روسيا وغيرها من أقطار شرقي أوروبا ، الذين كانوا قليلي المبـالاة في بادىء الامر بالقواعد والبرامج السياسية ، وانما اعتبروا العودة الى فلسطين بجماعات كبيرة ، واستعمارها من جديد أمراً أساسياً ، والعنصر الثالث هم دعاة « الصهيونية الثقافية » الذين بنوا القضية على فرض أن اليهود لا يزال لديهم رسالة دينية نحو العالم ، وسعوا لايجاد الظروف التي يمكن فيها تحقيق تلك الرسالة ، وفي حين انهم سلموا بضرورة التشتت ، مع كل أخطاره ، كشرط ضروري لذلك ، فقد اعتقدوا أيضاً أن الحياة السليمة ليهود

Digitized by Birzeit University Library

العالم تتطلب مركزاً روحياً ثقافياً ، وأن هذا المركز ينبغي أن يكون في فلسطين ، حيث يمكن أن يصان تراث اليهود الديني وازدهاره .

وكان أول ما برز من هذه العناصر العنصر الثاني ، فاوحى باستمرار الهجرة والاستيطان منذ سنة ١٨٨٠ ، وقد أنشأ المستوطنون القادمون من شرق أوروبا ، وكانوا يدعون أنفسهم « محبي صهيون » عـدداً من المستعمرات الزراعية بفضل المعونة المالية التي قدمها اللورد روتشيلد ، وعاشوا مع جيرانهم العرب عيشة أمن وسلام . ولكن ، بعد حين ، حدث تطوران أثرا في ماهية الصهيونية أثراً باقياً . أولهما الأثر العميق الذي أصابها من ازدراء الدين المتزايد في أوروبا ، بحيث تحولت العقيدة الاصلية الدينية بعودة المسيح ، شيئاً فشيئاً ، الى عقيدة باطلة بعودة شعب وعنصر من الناس ، والثاني صهيونيو الغرب السياسيون وقائدهم ثيودور هرتسل الذين أنشأوا المنظمة الصهيونيـة وهي ذات برنامج سياسي خاص ، وعملوا شيئاً فشيئاً على تلقيح الحركة كلها بمذهبهم السياسي .

وقد كان لهذين التغييرين نتائج مشؤومة . فاتجهت الصهيونية الى حركة علمانية مجردة من الدين ، تعبـد الدولة والامة والارض ، وتلاشت فكرة الرسالة اليهودية بالمرة أو اتخذت شكلا حقيراً . ثم ان تحالف العنصرين الثاني والثالث ، صهيوني الغرب السياسيين و « محبي صهيون » ضمن المنظمة الصهيونية قد أبعـد ونفر العنصر الثالث الذي كان يفسر معنى رسالة اسرائيل وشروط ادائهـا تفسيراً أدق وأعمق ، ومن ذلك الوقت حتى هذا اليوم قل أثره في الحركة الصهيونية ، وبقيت عقـائده محصورة ضمن جماعات صغيرة وفي قلوب بعض الافراد الاجلاء قليلي الحول والنفوذ . وكان أهم من ذلك للمستقبل ، الاثر الذي يحدثه تغيير ماهية

Digitized by Birzeit University Library

الصهيونية في العلاقة بين المستوطنين اليهود وعرب فلسطين . ذلك ان المستعمرات التي تسيطر عليها المنظمة الصهيونية لم تستطع ، أو لم تحاول ، حتى قبل سنة ١٩١٤ اقامة علاقات ودية مع جيرانها الذين جاء بهم « محبو صهيون » الاولون الى مستعمرات روتشيلد .

١١ — الحرب العالمية الاولى

نشأت هاتان القوتان ، القومية العربية ، والحركة الصهيونية، في وقت واحد تقريباً . فلما جاءت الحرب العالمية الاولى ، كانتا كلتاهما من النضج والقوة بحيث استرعتا انتباه العالم ، فقطعت خلال الحرب لكلتيهما عهوداً ما فتئت تثير جدالا لا ينتهي . ولسنا نحاول هنا اضافة جدل جديد ، بل نقتصر على معالجة بعض النقاط ذات المساس بالتذمر الحالي ، معالجة يسيرة .

(١) فقد كثر البحث حول ما إذا كانت فلسطين قد شملها ، وعد حكومة جلالته ، باستقلال العرب أو لم يشملها . وسواء أقصدت حكومة جلالته بوعدها شمولة فلسطين ، أم لم تقصد ، فما من شك في أن العرب قد فهموا منه انه يشملها ، وانه لم تجر آنذاك محاولة لخداعهم ، بل شجعهم على اعتقادهم هذا بعض أعمال منها توزيع التصريح البريطاني الفرنسي الصادر في شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٨ ، ونشره في طول فلسطين وعرضها .

(٢) وجرى مثل هذا البحث مؤخراً حول ما إذا كان وعد بلفور يستهدف امكان انشاء دولة يهودية في فلسطين أو لا ، فمن ناحية تقول بيانات المستر لويد جورج وغيره بامكان ذلك ، ومن ناحية أخرى تحقق ان صيغة الوعد الاصلية التي

Digitized by Birzeit University Library

وضعها الصهيونيون ونصت على جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود ، قد عدلت بحيث أصبحت تنص على اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين . فمهما قيل في ذلك، ظل يقيناً انه اذا كان المقصود اقامة دولة يهودية ، فهذا لم يبين للعرب في أي وقت من الاوقات ، بل انهم في الواقع شجعوا على الاعتقاد بنقيضه ، فمثال ذلك ان الكوماندور هوغارت الذي بعث به الى الملك حسين في شهر كانون الثاني من سنة ١٩١٨ ليشرح له معنى وعد بلفور كان مفوضاً بابلاغه ان تسهيل تحقيق الفكرة الصهيونية سيقتصر على « القدر الذي لا يتضارب به مع حرية السكان الحاليين ، الاقتصادية والسياسية » ، وان كان الوعد لم يشر إلا الى « حقوقهم المدنية والدينية » .

(٣) يتحدث دعاة الصهيونية دائماً عن وعد بلفور ، وكأنه عدالة فذة في تاريخ البشر ، ويحاولون تأويله بقولهم ان الباعث الوحيد على اصداره كان رفع ظلم لا مثيل له في التاريخ ، وتخفيف البؤس الواقع على اليهود ، وهذا الرأي بعيد عن أن يكون الحقيقة كلها ، شأنه في ذلك شأن جميع التأويلات العاطفية والدينية المماثلة له . فقد كان اصدار الوعد في جوهره عملا سياسياً ، وكان الدافع اليه اعتبارات أخرى (مهما كانت باطلة) تتصل بالسياسة العامة للامبراطورية . فقد كان اهتمام بريطانيا العظمى بفلسطين في ذلك الوقت يكاد يقتصر على الحيلولة دون احتلال دولة كبيرة أخرى لها ، أو تهديد مركز بريطانيا في مصر . ومن شأن الاعتراف بمطالب الصهيونيين في فلسطين أن يتيح لبريطانيا العظمى الفرصة للمطالبة بان تحكم هي فلسطين بدلا من اقامة حكومة دولية فيها حسب اتفاق سايكس ـ بيكو المعقود سنة ١٩١٦ ، ولعله قد أشير على الصهيونيين ، بين التلميح

Digitized by Birzeit University Library

والتصريح ، بان يطلبوا حماية بريطانيا أو اشرافها حين عقد مؤتمر الصلح ، مقابل منحهم ذلك الوعد. فني ضوء هذا الشرح، يتضح أن وعد بلفور كان طرفا في صفقة سياسية ، لا عملا منقطع النظير في تاريخ العدالة الانسانية .

(٤) قد يجوز ان يكون القرار الذي اتخذته دول الحلفاء بعد الحرب بفتح ابواب فلسطين للهجرة الصهيونية كان نقضاً للوعود التي قطعتها الى العرب ، وقد يكون هذا الفرض غير صحيح ولكن مما لا جدال فيه ان التسوية العامة لمجموع شؤون العالم العربي بعد الحرب كان خلافاً لتلك الوعود . فقد حارب العرب مع الحلفاء جنباً الى جنب في تلك الحرب أملا في الاستقلال . ولما انتهت الحرب ، وضعت اكثر البلدان العربية الآسيوية تقدماً ـ وهي البلدان السورية والعراقية ـ تحت الانتداب الذي لم يزد كثيراً على كون استعمار متخف، وقسمت هذه البلدان تقسيماً مصطنعاً ، الى عدة وحدات صغيرة. وهكذا لم يكن اتخاذ السياسة المساندة للصهيونية في فلسطين سوى جانب من سياسة عامة غير مرضية اتخذتها دول الحلفاء مع العرب ، وفرضتها عليهم رغم ارادتهم المعروفة .

ولذلك كانت مقاومة العرب للصهيونية ، منذ البدء ، تزداد شدة وتعقيداً لاستيائهم من بعض العهود المقطوعة لهم ، وخيبة آمالهم ، وتبرمهم بعقم ثورتهم . وأصبحت الصهيونية ، منذ البدء ، رمزاً لعدوان الاستعمار الغربي ، كما اتصلت مشكلة فلسطين ، منذ بدئها ، بمشاكل سوريا والعراق ، فكان لكل تذمر أو ثورة في أي منطقة من مناطق الهلال الخصيب صداها الفوري في جميع مناطقه الاخرى .

Digitized by Birzeit University Library

١٢ — الانتداب « والالتزام المزدوج »

أوضح المبدأ الذي يقوم عليه نظام الانتداب ، في المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم ، التي جاء فيها ، « إن بعض الجماعات التي كانت تابعة فيما مضى للامبراطورية العثمانية قد بلغت درجة من الرقي يمكن معها الاعتراف مؤقتاً بكيانها كأمم مستقلة بشرط أن تمدها بالمشورة والمعونة الادارية دولة منتدبة ، إلى أن تصبح قادرة على حكم ذاتها بذاتها . وينبغي أن تكون لرغبات هذه الجماعات الاعتبار الأول في اختيار الدولة المنتدبة » . ولكن هذه المبادىء لم تعتبر اعتباراً تاماً لدى إقامة الانتداب البريطاني على فلسطين ، ولذلك ظل عرب فلسطين مصرين على بطلان الانتداب هذا المخالف لأحكام المادة الثانية والعشرين. فهو ، أولا ، خلو من كل اشارة الى استقلال فلسطين المبدئي، كما أن حكم الانتداب لم يكن طيلة الخمس وعشرين سنة الماضية حكم أمة يعترف مؤقتاً بكيانها كدولة مستقلة تنال المشورة والمعونة، بل كان في كل مقاصده وغاياته حكما كحكم مستعمرات التاج . وهو ، ثانياً ، قد أعطى لبريطانيا العظمى ، وفرض عليها بصورة خاصة تشجيع الاستيطان اليهودي ، دون مبالاة بما جاء في التقرير الذي قدمته لجنة كنج — كرين الى الرئيس ويلسون سنة ١٩١٩ ، من أن أكثرية السكان لا تريد أية وصاية ، ولكنها تفضل أميركا على غيرها ، إذا لم يكن من الوصاية بد ، وانها تعارض ، معارضة قوية ، في تنفيذ السياسة المساندة للصهيونية .

والحقيقة أن صك الانتداب قد صيغ بنيّتين مختلفتين وروحين متباينين : فهو من ناحية ، مصوغ بحيث ينطبق على أحكام المادة الثانية والعشرين من الميثاق ، وينسجم مع صكوك الانتداب المصوغة للبلدان المحيطة بفلسطين ، إلى

Digitized by Birzeit University Library

أقصى ما يمكن من هذا الانسجام وذاك الانطباق . ولذلك فرضت المادة الثانية منه على الدولة المنتدبة أن تتخذ التدابير لتأمين تقدم مؤسسات الحكم الذاتي ، كما أوصت المادة الثالثة منه بتشجيع الحكومة المحلية ، بقدر ما تسمح الظروف بذلك . ومن ناحية أخرى ، أريد بالانتداب تنفيذ العهد الذي تضمنه وعد بلفور ، ولذلك فرضت المادة السادسة على الادارة تسهيل هجرة اليهود واستيطانهم في البلاد ، بالتعاون مع وكالة يهودية مختصة ، ولكنها اشترطت أن لا يجحف ذلك بحقوق ومركز سكان البلاد الآخرين .

يتضح من هذه المقتبسات أنه وضع على كاهل الدولة المنتدبة التزامان يصعب التوفيق بينهما صعوبة كبيرة ، إن لم يكن ذلك التوفيق مستحيلا .

١٣ — السياسة الصهيونية بين سنتي ١٩١٧ و ١٩٣٩

لقد كان في سلوك ساسة الصهيونية وأقوالهم صراحة لا مزيد عليها، في مستهل ظفرهم بعد صدور وعد بلفور . ودليل ذلك أن اللجنة الصهيونية التي ذهبت الى فلسطين سنة ١٩١٨ ، لم تخف رغبتها في السيطرة على سياسة الادارة ، حتى أن الدكتور وايزمن وهو اكثر السياسيين لباقة وبصيرة وحذراً ، قد بلغ به الاندفاع الى التحدث عن جعل فلسطين يهودية كما أن انكلترا انكليزية . غير أن المعارضة والريبة اللتين أثارتها هذه البيانات قد سببتا تغييراً في حركات الصهيونية وخططها. صحيح أن بعض الصهيونيين — وهم الاصلاحيون قد ظلوا يصرحون بمطالبهم القصوى ، ويطلبون تأسيس دولة يهودية في الحال على كلا جانبي نهر الأردن . ولكن كال على نقيضهم فريق متطرف آخر — هم الصهيونيون الروحيون أو

Digitized by Birzeit University Library

الثقافيون ، الذين تخلوا بالمرة ، باخلاص وصراحة ، عن فكرة السيطرة السياسية أو الدولة اليهودية ، واكتفوا بالدعوة الى اقامة مركز روحي لليهودية العالمية على أن يظل معظم أفرادها مشتتين . أما الصهيونيون المحافظون فقد ساروا بعيداً عن كلا هذين النقيضين . ومع انهم ظلوا ، دون ريب ، يتعلقون بفكرة الدولة اليهودية كمثل أعلى لهم ، إلا انهم رأوا أن من الأصوب ارجاء جميع المطالب السياسية الأخرى وتوجيه جميع جهودهم نحو مطلب واحد ، هو الهجرة على مدى واسع . وهذا المطلب سياسي في جوهره ، ولكن بالامكان الباسه حلة الاقتصاد أو اخفاؤه وراء مظاهر انسانية ، ومتى تحقق أمكن تحقيق جميع المطالب الأخرى .

وقد كان الكتاب الأبيض الصادر سنة ١٩٢٢ ، لما كان المستر تشرتشل وزيراً للمستعمرات، وثيقتهم التي يحتاجون اليها لذلك . لأنه ذكر مقدرة الاستيعاب الاقتصادي واعتبرها القاعدة التي تقرر الحد الأعلى الذي لا يجوز أن تتعداه الهجرة في أي حال من الأحوال . ومنذ ذلك الوقت ظل الصهيونيون يدعون بأن « مقدرة الاستيعاب الاقتصادي » يجب أن تكون القاعدة الوحيدة لتقرير الهجرة، وان النظر الى أية اعتبارات أخرى، سياسية أو خلقية، يعتبر خرقاً لصك الانتداب وبهذه الطريقة ضمنوا المعونة من عقيدة يتعصب لها العقل الانكلوسكسوني ، هي الاعتقاد بان المشاكل السياسية ليست مشاكل حقيقية تماماً ، وان من العملي والواقعي توجيه جميع الجهود الى الاعتبارات الاقتصادية والفنية حتى انهم قد اقنعوا السلطة المنتدبة أن تنسى ، الى حين ، أن القرار القاضي بتنظيم الهجرة وفقاً لمقدرة الاستيعاب الاقتصادي قد كان في ذاته وجوهره قراراً سياسياً ناجماً عن بواعث سياسية ورامياً الى اهداف سياسية هامة ، وهكذا تمكنوا من الحصول على هجرة باعداد وافرة ، ما كان ليتسنى لهم الحصول عليها لولا لجوؤهم الى ذلك .

Digitized by Birzeit University Library

BEERZEIT COLLEGE
١٤٠١٧

وعندما كانوا يرغمون على التكلم عن القضايا السياسية كانوا يميلون الى انتهاج سبيلين. فمن ناحية، لم يتكلموا صراحة عن الدولة اليهودية، بل عن دولة فلسطينية، يساهم العرب واليهود فيها بنصيبين متعادلين ، في حين انهم ابقوا موضوع لمن تكون الاكثرية فيها ، غامضاً بهما .

وبهذه الطريقة استطاعوا أن يقدموا مطلباً معقولا لاحراز نصيب في الحكومة أعظم بكثير مما يمكن لنسبتهم العددية الحالية أن تبرره ، وأن يلقوا على كاهل العرب في الوقت نفسه ، تبعة رفض اقتراح يروق للعقل الأنكلوسكسوني ما لم يبحث بحثاً عميقاً . ومن ناحية أخرى حاولوا أن يظهروا معارضة العرب لخططهم بمظهر الضعف ، فزعموا أن لا باعث عليها سوى المصالح الشخصية لطبقة أصحاب الأراضي القليلة العدد وأن جمهرة الشعب العربي لا ترغب في شيء أكثر من رغبتها في التعاون مع اليهود . وبهذا أشاروا الى أن أي خضوع لمعارضة العرب يعتبر ترضية للقوى الرجعية ، وحاولوا دون أي تبكيت يحتمل أن يصيب ضمائر أنصار الصهيونية الانكليز .

ولم يكن العرب عندئذ قد بدأوا يفصحون للعالم الأنكلوسكسوني عما يدور في خلدهم ، وقل بين ساسة الانكليز من عنى بمناقشة رأي الصهيونية في السياسة العربية ، وتفهم نضال الشعب العربي الصامت في سبيل الاصلاح والتجديد .

وعندما تسلم هتلر مقاليد الحكم سنة ١٩٣٣ ، ازدادت السياسة الصهيونية شدة وتطرفاً ، وازدادت الدعاية الصهيونية حثاً وإلحافاً واصراراً ، فاستولت على مشاعر ذوي النزعة الانسانية من الشعبين البريطاني والأمريكي . نعم إن اضطهاد اليهود في أوروبا ، خلال السنوات القليلة ، قد جعل من العسير على أي شخص

Digitized by Birzeit University Library

كان أن يفكر في هذا الموضوع تفكيراً متزناً خلواً من العطف ، ولكن هـذا لا يمنعنا من الاصرار على أنه ما كان للاضطهـاد أن يؤدي الى تلك الـكوارث التي أصابت اليهود ، لو لم يرافقه تطور آخر ، هو فرض القيود الشديدة على الهجرة الى الولايات المتحدة والى مجموعة الأمم البريطانية . وقد عمـل هذان العاملان كلاهما معاً على توجيه أنظار نسبة كبيرة من يهود أوروبا نحو فلسطين . ومما لا شك فيه أنه قامت أسباب وطنية ملحة قضت على الحـكومتين البريطانية والأمريكية بعدم السماح إلا بدخول عدد معين من اللاجئين ، كما قامت أسباب وطنية ملحة لمقاومة العرب للهجرة الصهيونية ، ولـكن سياسة تقييد الهجرة التي اتبعتها الحـكومتان البريطانية والأمريكية قد جعلت موقفهما المساند للصهيونية موضعاً للطعن من الناحية الخلقية (في نظر العرب على الأقل) اكثر مما لو تتبعا هذه السياسة .

١٤ — التطور الاقتصادي بين سنتي ١٩١٧ و ١٩٣٩

ليس بنا من حاجة هنـا إلى أن نذكر بالتفصيل ما قام به المهـاجرون الصهيونيون من الأعمال في ميدان الاقتصاد في السنوات التي تخللت الحربين . فاذا ما قسنا التقدم الذي جرى في ميداني الزراعة والصناعة ، بالمقاييس السطحية العادية ، وجدناه يثير الاعجاب ، ولكن إذا درست المسألة درسـاً عميقاً ظهرت بعض الشكوك في استقرار هذا الـكيان بمجموعه . وهذه الشكوك ناجمة عن حقيقة لا جدال فيها ، هي أن حياة اليهود الاقتصادية في فلسطين قد خضعت جميعها لاعتبارات سياسية حولت التقدم في بعض النواحي عن مجراه الطبيعي الصحيح . ولنضرب على ذلك مثلا ، فنقول : أن سيـاسة شراء الأراضي للصندوق الوطني

مكتبة جامعة بير زيت
Digitized by Birzeit University Library

اليهودي وغيره من الوكالات ، قد أملتها الرغبة في اقتطاع فلسطين وعزلها عن البلدان المحيطة بها ، وتمهيد الطريق للسيطرة السياسية ، وتسهيل السبل للهجرة غير المشروعة . ثم أن الاعتبارات السياسية قد أدت أيضاً الى حظر استخدام العمال العرب في الأراضي التي يملكها اليهود ، وفي جميع المشاريع اليهودية تقريباً . وقد كانت هذه الاعتبارات مسيطرة على السياسة المتبعة في استيطان الأراضي . ونفقات هذا الاستيطان كبير مرتفعة فوق المعتاد بكثير ، ومعدلها للعائلة اليهودية الواحدة اكثر من ٥٠٠ ج. ف ، كما أن نفقات الانتاج وأسعار منتوجات المزارع أعلى بكثير في مثيلتها في المزارع العربية. وقد كان عدد قليل من المستعمرات المشتركة يدر الربح حتى نشوب الحرب . وكانت حياة اليهود الاقتصادية في الريف تعتمد بصورة عامة على استمرار تدفق رؤوس الأموال الأجنبية من الخارج ، على أن الربح الذي ينتظر أن تجنيه كان ضئيلا . والنظام الصناعي اليهودي لم يكن اكثر منه استقراراً .

فقد شرع فيه والعوائق والحواجز الشديدة قائمة في وجهه — منها عدم وجود المواد الخام وعدم التأكد من وجود أسواق محلية وأجنبية ، وارتفاع تكاليف العمل نسبياً — وأن توظيف رؤوس الأموال الأجنبية الضخمة الطائلة يمهد سبيل هذه الحواجز والعوائق . وأن الصناعات اليهودية قد ظلت إلى أن نشبت الحرب حيث قطعت خلالها مصادر التوريد من الخارج ، ومكنت للصناعات اليهودية من أن تزدهر ازدهاراً اصطناعياً ظاهرياً — تتسم ببطء انقلاب رؤوس الأموال بطئاً متناهياً ، وبرداءة السلع وارتفاع أسعارها .

وان لمن المشكوك فيه أن الصناعات اليهودية كان يقدر لها البقاء قطعاً ،

Digitized by Birzeit University Library

لولا هذه التعرفة الجمركية التي فرضتها الحكومة لحمايتها ، ولولا هذه المساعدات المالية التي تقدمها الوكالات اليهودية الوطنية مباشرة وغير مباشرة ، ومع ذلك فما كانت هذه الإجراءات التي اتخذت لمساعدة الصناعات اليهودية ، ولا أيةوسائل أخرى ، تستطيع أن تحول دون عدم استقرار هذه الصناعات اليهودية ، مما يؤثر تأثيراً سيئاً على حياة جميع السكان الاقتصادية : من جراء أسعار السلع العالية التي يشتريها المستهلكون ، وتكرار حدوث الأزمة والبطالة .

وعندما يطرى ما قام به اليهود من أعمال في الحقل الاقتصادي ، يجب أن لا يغرب عن البال الناحية الثانية المعاكسة من الصورة ، وهي جلاء المزارع العربي ونزوحه عن الأراضي التي امتلكتها الوكالات اليهودية الوطنية ، وارتفاع مستوى المعيشة ارتفاعاً غير عادي ، من جراء التعرفات الجمركية المفروضة لصالح الصناعات اليهودية الناشئة ، واشتغال المستعمرات الزراعية والمعامل بخسارة ، والإعتماد على تدفق رؤوس الأموال ، والربح الضئيل دون المعتاد الذي يتأتي من رؤوس الأموال المستثمرة ، وتكرار اشتداد الأزمة الاقتصادية ، وبطالة العمال ، وامكان وقوع الكارثة فيما لو وقف سيل رؤوس الأموال عن تدفقه . ومع هذا كله لا بد من تأسيس المعامل ، ولا مندوحة عن انشاء المستعمرات ، ولتكلف مهما كلفت من المصاريف والنفقات ، إذ بهذه الطريقة وحدها يكون ثمة ما يبرر ويسوغ المطلب السياسي الأساسي وهو مطلب الهجرة على مجال واسع ، معبراً عنه بمقدرة الاستيعاب الاقتصادي .

١٥ — التغيرات التي طرأت على العرب

إن جهود المهاجرين الصهيونيين التي ظبلوا لها وزمروا وأعلنوا عنها على رؤوس

Digitized by Birzeit University Library

الأشهاد بدعاياتهم الواسعة ، قد جلبت أنظار العالم الخارجي ، وجعلته يلتفت اليها ويهتم بها دون سواها . ولكن في الوقت نفسه كان المجتمع العربي يسير قدماً في ذلك السبيل ، بيد أن تقدمه أقل تطفلا ولكنه ولا ريب أصح . فقد كان ذلك التقدم شاملا جميع مناحي الحياة ، وكانت أهم علامة من علامات هذا التقدم في ميدان الزراعة توسع بيارات البرتقال العربية وازدهارها واطرادها . فقد كان المزارعون العرب هم أول من جعل للبرتقال اليافي مقاماً مرموقاً في الأسواق العالمية، وبالرغم من المنافسة اليهودية ، فإنهم لا يزالون يملكون ما يربو على خمسين في المائة من المنطقة المغروسة بالحمضيات ، ولا يزالون نسيج وحدهم فيما يتعلق بالجودة ، والخبرة الفنية . واذا غضضنا النظر عن صناعة الحمضيات ، فان المزارعين العرب لا يزالون ينتجون معظم المنتوجات الزراعية التي تغلها هذه البلاد . (ففي سنة ١٩٤٥ كانت قيمة الحاصلات الزراعية ، باستثناء الحمضيات زهاء ، ٠٠٠و٠٠٠و١٧ جنيه فلسطيني ، في حين أن قيمة الحاصلات اليهودية لا تتجاوز أربعة ملايين ونصف مليون جنيه فلسطيني ، هذا مع العلم أن اليهود يشرفون على قسم كبير من أخصب أراضي البلاد) . أما في ميدان الصناعة فان النجاح لم يكن مطرداً ، ويرجع السبب في الغالب الى عدم وجود رؤوس الأموال ، ولكن العرب قد شرعوا في السير في هذا الطريق فانشئوا صناعات الأنسجة الميكانيكية (وتنتج الآن مصانع المنسوجات العربية ٣٥ في المائة من المنسوجات الفلسطينية) ، وان صناعة الصابون النابلسي التقليدية لا يزال لها المقام الأول ، وان نجاح تأسيس مصرفين عربيين هما البنك العربي ، وبنك الأمة العربية ، مع ما تجمع من الأموال التي وفرت خلال الحرب، سيجعل اطراد النجاح يسير بخطى حثيثة في المستقبل .

Digitized by Birzeit University Library

وان الغيرات التي طرأت على المجتمع العربي عديدة ومتنوعة النواحي، بحيث لا يتسنى حصرها وذكرها ، فقد لمسوا كل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية ، بما فيها مركز المرأة ، والعادات والتقاليد الاجتماعية ، واطرزة الأزياء والسكن . ومما يجب التنويه بذكره انتشار التعليم انتشاراً سريعاً بين جميع طبقات الشعب. فخلال العشرين سنة التي تخللت الفترة بين الحربين ، تضاعف تقريباً عدد المـــدارس الحكومية والخصوصية ، التي أنشئت في الغالب للطلاب العرب ، فقد كان في سنة ١٩٢٠ — ١٩٢١ ، ٤٠٥ مدارس (منها ١٧١ مدرسة حكومية ، و ٢٣٤ مدرسة خصوصية) ، فاصبحت في سنة ١٩٤٠ — ١٩٤١ ، سبعمائة وثمانين مدرسة (منها ٤٠٣ مدارس حكومية و ٣٧٧ مدرسة خصوصية) . وقـد ازداد عدد الطلاب اكثر من ثلاثة أضعاف ، فبعد أن كانوا حوالي خمسة آلاف في سنة ١٩٢٠ — ١٩٢١ ، أصبح عددهم يربو على ٢٥ الف في سنة ١٩٤٠ — ١٩٤١ . أضف الى هذا أنه يذهب في كل سنة الى الخارج عدد يتراوح بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ شاب عربي ، لاتمام علومهم العاليـة ، في سوريا ، ولبنان ، ومصر ، وأوروبا وأمريكا ، وان السبب الرئيسي في هذا النجاح هو رغبة هذا الجيل من الشباب العربي الناشىء رغبة اكيدة ملحة في طلب العلم والدرس ، وهو مظهر من مظاهر اليقظة العربيـة العمومية ، تلك اليقظة التي كانت تجمع قواها وتتحفز خلال المائة سنة الماضية .

إن التغييرات في النظام الاجتماعي وانتشار التعليم ، قد عمـــلا يداً بيد في تغيير ميزان القوى الاجتماعية . فالسلطة أصبحت تنتقل من أيدي طبقة أصحاب الأراضي (الذين لم تكن لهم القوة مطلقاً التي تملكها الطبقة ذاتها في الأقطار العربية الأخرى) الى أيدي الطبقة المتوسطة في المدن ، وخصوصاً شـباب هذه الطبقة ،

Digitized by Birzeit University Library

أولئك الشبان المتعلمون تعليماً جيداً الذين قطعوا اكثر من نصف الطريق نحو الحياة الغربية في حياتهم الاجتماعية وهم رجال جد وكد ، ويشعرون من أعماق قلوبهم بالتبعات الملقاة على عواتقهم . وان هذه النخبة الممتازة المثقفة لهي رأس الجسر في الحركة الوطنية . بيد أن مبادئها الوطنية خلال السنين الماضية الأخيرة قد أصبحت فياضة بشعور اجتماعي حديث ، عبر عن نفسه بتأليف المنظمات الاجتماعية طوعاً واختياراً ، وبتحالف بين فئة من الطبقة المتوسطة المثقفة وحركة العمال في المدن الكبيرة .

وان فكرة الانكليز والصهيونيين عن العرب قد تكونت قبل ثلاثين سنة على الأقل ، وان كثيراً من الانكليز واليهود ليعتقدون بانهم لا يزالون يواجهون الشرق التقليدي الذي لا يتغير ولا يتبدل والذي يتصوره الزائر الذي يضرب في ميدان الخيال بسهم . والذين شاهدوا هذه التغييرات قد مالوا في بعض الأحيان أن يعزوها الى مساعدة اليهود واقتفاء أثرهم فيها. وهذا الرأي سيقوضه حتما الفحص السطحي لحالة الأقطار العربية الأخرى ، ذلك أن عرب فلسطين ليسوا هم الوحيدين الذين تطوروا ، وتقدموا ، بل ان العالم العربي باسره هو الذي طرأ عليه التطور والتقدم، فقد كان في الواقع تقدم بعض الأقطار العربية، في بعض النواحي، أسرع وأصح من تقدم فلسطين . فقد تقدم التعليم في مصر ، والعراق ولبنان وغيرها ، بخطى أسرع ، كما أن الصناعة في مصر تقدمت تقدماً عالياً ، وفي لبنان كان النجاح أعظم في خلق طبقة من الفلاحين المتعلمين ، ثابتة الخطى في رقيها معارج الفلاح ، مطردة التقدم في مراقي النجاح ، وان الحياة الثقافية في مصر ، وبيروت ، لهي أبعد أثراً ، من حياة عرب فلسطين الثقافية .

Digitized by Birzeit University Library

١٦ – التاريخ المعاصر للبلدان العربية

إن السنين التي وقعت بين الفترة التي تخللت الحربين لم تكن فترة حدث فيها تغيير اجتماعي فقط في الأقطار العربية ، بل فترة تطور سياسي أيضاً . وقد كانت الأحوال والمشاكل المحلية الداخلية تختلف اختلافاً عظيماً بين قطر وآخر ، بيد أن بعض الاتجاهات كانت مشتركة بينهم جميعاً مما كان له آثاره الخطيرة على عرب فلسطين . وأولها ، هو الكفاح والنضال من أجل الاستقلال ، وما جاءت سنة ١٩٣٩ ، حتى كانت جميع الأقطار التي تحيط بفلسطين، قد سارت بعض السير على أقل تعديل في طريق الحكم الذاتي . فكان القسم الأعظم من شبه الجزيرة العربية قد توحد تحت سلطان ابن السعود في المملكة العربية السعودية . وعقدت مصر والعراق معاهدتي تحالف مع بريطانيا العظمى، وقبلتا عضوين في عصبة الأمم. وعقدت سوريا ولبنان مثل هاتين المعاهدتين مع فرنسا التي تخلفت عن ابرامهما ، ولكنهما مع ذلك كانا على أقل تقدير حائزين على الاشكال الدستورية للحكم الذاتي . وكان شرق الاردن أيضاً يتمتع بالحكم الذاتي ، وعقد معاهدة مع بريطانيا العظمى .

أما الاتجاه الثاني ، فقد كان يستهدف الوحدة بين الاقطار العربية . فقبل سنة ١٩١٨ ، كان هدف الوطنيين تأليف دولة واحدة في الاقطار العربية بآسيا ، دون أن يخيل اليهم امكان التقسيم والفصل بينها . ومهما يكن من أمر فقدقسمت البلاد العربية الاسيوية منذ سنة ١٩١٨ ، فما بعد الى عدة وحدات سياسية فصلت كل منها عن الاخرى بحواجز جمركية ، وتشاريع مختلفة ، وحكومات مختلفة ، كما اختلف التعليم ، والمالية ، وقد جعلت المصالح الشخصية المحلية الشعور بالانفصال

Digitized by Birzeit University Library

ينمو نمواً شديداً . وبناء على ذلك فان الحركة نحو الوحدة العربيـة أصبحت ضرورة لازبة وتغيرت صفتها . وبرز الاتجاه نحو الوحدة في تأليف الاحزاب التي تدعو الى العروبة ، وعقد المؤتمرات السياسية وغير السياسية .

هذا وان كلا من هذين الاتجاهين كانت له آثار بعيدة المدى في الحركة العربية بفلسطين . فقد كان عرب فلسطين جزءاً من المجتمع التركي ، متساوين مع عرب الاقطار العربية الاخرى ، فوجدوا أنفسهم عندئذ أنهم قد أخضعوا لحكم الانتداب الى أجل غير مسمى ، وفي حين أن هذه الاقطار كانت تسير في طريق الحكم الذاتي وان كانت خطاها متثاقلة بطيئة ، ظلوا لا يرعون مكانهم دون ان يكون لهم امل في الحكم الذاتي الداخلي . وكانت هذه الحالة كارثة وطنية ، كما كانت كارثة فردية . فالعربي الفلسطيني المثقف يرى بأم عينيه اصدقاءه واقرباءه في الاقطـــار الشقيقة وقد تبوءوا ارقى مناصب السلطة العليـا ، وتسنموا ارفع الوظائف ذات التبعات العظمى ، في حين ان تقدمه في هذا المضمار مستحيل فهو يعيش تحت رحمة الادارة الاجنبية والشرطة الغرباء ، وقد تألم آلاماً مبرحة من هذه الظاهرة البريطانية الشاذة التي ادت الى ان يشعر الشعب المحـكوم بانه غريب في وطنه . ولكن هذا لم يكن بأسوأ ما في المسألة . ذلك ان وجود الصهيونيين لم يحل دون مضي العرب في الطريق المؤدي الى الحكم الذاتي فحسب ، بل انه قـد عرضهم ايضاً الى خطر داهم . فقد اصبحوا يرون ان الطائفة اليهودية تنمو وتربو سنة بعد سنة ، ويزداد اطراد نجاحها ، وانها منظمة تنظيما افضل من تنظيمهم ، وانها ستصبح عما قريب الاغلبية . وبناء على ذلك فقد واجههم احتمال لا ان يحرموا حرماناً دائماً من الحكم الذاتي فحسب ، بل ان يصبحوا اقلية خاضعين لحكم الاغلبية الغريبة الدخيلة ،

Digitized by Birzeit University Library

وكان هذا الاحتمال لا يحتمل في وقت من الاوقات ، ولكنه في الاحوال الحاضرة اصبح اشد مما كان قبلا ، بالنظر لازدياد نمو حركة الوحدة العربية . وان الاقطار العربية الاخرى ، بعد ان وصلت الى الحكم الذاتي ، اصبحت تستعمل حريتها في العمل في تقرب احدها من الآخر ، وتكون مجتمعاً متحداً وان جميع الاواصر الطبيعية لتربط فلسطين بالاقطار العربية الاخرى ، ولكن عرب فلسطين ايرون انفسهم بانهم سينحون عن هذا المجتمع السياسي والثقافي الجديد ، الذي اصبح قائماً ، شأنهم في ذلك شأن الرجل المبعد عن وطنه .

١٧ — مقاومة العرب للصهيونية — الثورة الفلسطينية

لا يمكن أن تفهم معارضة عرب فلسطين للهجرة اليهودية فهماً صحيحاً تاماً إلا على ضوء التقدم السياسي العام في الأقطار العربية . وسنبحث أسباب هذه المقاومة بالتفصيل في (الفصول) التالية ، ومن هذه الأسباب ولا شك ما هو خاص بفلسطين ، وهي ناجمة عن أخطاء يمكن إصلاحها من قبل السلطة المنتدبة والمنظمة الصهيونية . وان من المؤكد أن المقاومة العربية لم تكن تصل الى هذه الدرجة من العنف والتشبث ، لو لم يشعر عرب فلسطين بأنهم وقد سلخوا قوة واقتداراً من جسم الأمة العربية ، قد حرموا من نصيبهم في تراثهم الوطني ، وتعرضوا لخطر فقدان قوميتهم . وقد زاد في الطين بلة أن جميع هذا قد وقع بطريقة أشد ما تكون امتهاناً وتحقيراً ، خلافاً للوعود التي أعطيت لهم ، ودون الحصول على موافقتهم .

لقد ظهرت المقاومة للصهيونية بين جميع طبقات الشعب العربي منذ بدء الانتداب ، وقد حاول الكتاب الصهيونيون أن يشربوا النفوس الأوهام التالية :

Digitized by Birzeit University Library

أولاً ، ان مقاومة العرب لم تكن حقيقية ، بل أن الحافز عليها هم بعض المحرضين للوصول الى مآربهم وأهدافهم الشخصية . ثانياً ، إن هذه المقاومة كانت بطيئة النمو وانها لم تكن موجودة في بدء التجربة الصهيونية . وسيبحث في أول هذه الأوهام في فصل تالٍ ، ولكن الوهم الثاني ، وهو أسطورة أن العرب واليهود يعيشون في شهر العسل معاً ، يمكن بحثها على الفور ، ويؤيد الصهيونيون هذه الفكرة بالاشارة الى بعض الأعمال التي قام بها الملك فيصل في سنة ١٩١٩ — وهي اتفاقه مع الدكتور وايزمن ، وموقفه التوفيقي في مؤتمر السلام ، ورسالته التي حررها الى البروفسور فرانكفورتر . وفي الواقع أن تفسير هذه الأفعال لبسيط . فقد كان فيصل عندئذ يجهل حقيقة الصهيونية وماهيتها وأهدافها السياسية ، التي كانت في الواقع حديثة عهد جداً بحيث لا يمكن فهمها قبل تجربتها . ولكنه عندما أصبح على علم بالصهيونية تغير موقفه وأصبح ثابتاً متين الأركان لا يتزعزع شأنه في ذلك شأن جميع رجال الوطنية العرب الآخرين . ومن الناحية الثانية ، فقد كان في ذلك الحين غارقاً في يم كفاحه مع الفرنسيين بسوريا وقد كان يتمسك تمسكا شديداً بأية فرصة ممكنة تساعده ضدهم ، وفي الواقع كان اتفاقه مع وايزمن مساومة سياسية أملتها الضرورة . ولو أبدى الصهيونيون رغبتهم في أن يلقوا بدلوهم مع العرب ويساعدوهم في كفاحهم الوطني ، لأملوا أن يحصلوا على امتيازات من العرب ، والا فانهم لن يأملوا شيئاً . وفيما يلي الشرط الذي وضعه فيصل لتنفيذ الاتفاق ، ذلك الشرط الذي قلما يقتبسه الصهيونيون : « وانني لأوافق على المواد السابقة ، إذا نال العرب استقلالهم وفقاً لما طلبته في مذكرتي المؤرخة في الرابع من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٩ ، المقدمة الى وزارة الخارجية لحكومة بريطانيا العظمى ، ولكن إذا حدث أدنى تغيير أو أقل حيد ، فانني لن اكون

عندئذ مقيداً بأية كلمة وردت في الاتفاق الحـالي الذي يعتبر لاغيا وباطلا ، لا قيمة له ولا اعتبار . ولن اكون آنئذ مسئولا بأية طريقة من الطرق . »

وفي أوائل سنة ١٩١٩ ، أصبحت مقاومة العرب للصهيونية حازمة صارخة . ففي شهر تموز من تلك السنة صرح المؤتمر السوري الذي عقد في دمشق بقوله : « إننا نرفض مطالب الصهيونيين بتأليف دولة يهودية في القسم الجنوبي من سوريا المعروف بفلسطين، واننا نعارض في الهجرة اليهودية في أي جزء من أجزاء البلاد، — — — ، وسيظل إخواننا اليهود المواطنون يتمتعون بالحقوق ويتحملون التبعات المشتركة بيننا جميعاً » .

وفي سنة ١٩٢٠ و ١٩٢١ نشبت الاضطرابات العربية . وقد قدمت لجنة هاي كرافت التي عينت للتحقيق فيها تفسيراً لا يزال محتفظـاً بقيمته ويثبت استمرار العرب في موقفهم « ان السبب الأساسي ... هو شعور العرب بالسخط على اليهود الناجم عن أسباب سياسية واقتصادية، وذو علاقة بالهجرة اليهودية، وعن فكرتهم عن السياسة الصهيونية التي استقوها من الناطقين الصهيونيين ». وقد قالت اللجنة ان الشعور ضد الصهيونية لهو شعور حقيقي جـداً ، ومنتشر انتشاراً واسع المدى وعنيف ، بحيث لا يمكن ان يعزى الى ان الحـافز عليه هو عدم رضى طبقة « الأفندية » .

وليس من الضروري متـابعة أسباب هذه الاضطرابات ولا غيرها من الاضطرابات التي تلتهـا ، في سنة ١٩٢٩ ، وسنة ١٩٣٣ ، واخيراً الثورة العـامة الشـاملة التي نشبت في سنة ١٩٣٦ ، وظلت مستمرة حتى سنة ١٩٣٩ ، ومن الأفضل عدم التعريج على ذكر التاريخ المفعم بالمآسي . بيد ان من الضروري على اقل تعديل الإشارة الى العظات التي لقنتها الاضطرابات ، ذلك انها لا تزال كامنة ،

Digitized by Birzeit University Library

ومن المحتمل انها لم تهضم بعد هضما تاما . اولا : ان هذه الحوادث ، المنفصلة احداها عن الأخرى كما يتراءى في الظاهر ، التي كانت فتراتها قصيرة (باستثناء الأخيرة منها) لا يمكن اعتبارها اضطرابات فجائية قد نجمت عن سوء تصرف مؤقت ، بل انها كانت تعبيراً اكثر وضوحاً لمقاومة العرب الطويلة الأمد المستمرة للصهيونية ، وان فترات الهدوء التي تخللت هذه الاضطرابات لم تكن إلا فترات استجمام من الجهود السابقة ، واستعداداً لما يليها . ثانياً : ان كل تحقيق دقيق لكل حادثة من هذه الحوادث ادى الى نفس الاستنتاج الذي توصلت اليه لجنة هاي كرافت في بدء الحركة: وهو ان الاضطرابات لم تنجم في الأساس عن أسباب مؤقتة، او عن مظالم ادارية ، بل نجمت عن معارضة وطنية لجميع السياسة الصهيونية التي اتخذتها السلطة المنتدبة . ثالثاً : ان الوقت وحده هو الذي زاد في ماهية المقاومة العربية وجعلها شاملة تامة يعتنقها الجميع بلا استثناء . ففي الفترات التي تخللها الهدوء كانت الخصومات العائلية والمنازعات بين الزعماء تلفت الانظار ، وقد يكون الأثر الذي يحدثه هذا المظهر في نفس المراقب الخارجي ان المعسكر العربي مشوش تشويشاً تاماً ، ولكن هذه المنازعات والخصومات ، عند حلول الازمات ما كانت لتحول دون ان يعمل عرب فلسطين يداً واحدة ، وكتلة متراصة ، وان يعمل ما يسمون « بالمتطرفين » و « المعتدلين » على السواء ، متحدين في الطرق السياسية الرئيسية . رابعاً ، وقد يكون أهم هذه الاسباب : ان مقاومة العرب بمرور الوقت قد اصبحت موجهة ضد الحكومة المنتدبة ، كما هي موجهة ضد المنظمة الصهيونية . وقد اعتبرت الصهيونية كتجربة لنيات البريطانيين — وفي الواقع لنيات جميع الغرب — نحو العرب ، وقد تسممت بالتدريج جميع العلاقات الخلقية بين العرب والعالم الغربي . واصبحت هذه الحقيقة اكثر انطباقا على الواقع خلال

Digitized by Birzeit University Library

سنة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ، عندما اتبعت السلطات البريطانية طرقاً للقمع ، قوضت الاسس الخلقية ، في نظر الشعب التي كان قائماً عليها حكمهم السابق. وما دامت الحكومة البريطانية والحكومة الامريكية مستمرتين في معاضدة الصهيونية بفلسطين، فانهما لن تتمكنا من جعل علاقاتهما بالعرب ، قائمة على أسس خلقية مرضية . وليس من احد يقصر في الفهم ، سوى السذج البسطاء من انه إذا لم تكن ثمة علاقات خلقية مرضية ، لا يمكن ان تؤمن المصالح .

١٨ — العالم العربي والصهيونية

وهكذا أصبح النزاع بين القومية العربية والحركة الصهيونية أزمة عامة في العلاقات الخلقية بين الحكومة المنتدبة وعرب فلسطين . ومع مرور الوقت ، زاد على ذلك ، فأثر في العلاقات بين جميع البلدان العربية والدول الغربية عامة .

لماذا اهتم العرب بالمشكلة الصهيونية ، هذا الاهتمام الكبير العام ؟ لقد نجم اهتمامهم بها عن حقيقتين : أولاهما أن العرب لم يرضوا ، في وقت من الأوقات ، بالتجزئة السياسية الحالية للبلدان العربية ، التي لم تقتنع بها عقولهم ولم يستسغها خيالهم . وهذا ينطبق على الأقل على عرب الأقطار الآسيوية ، وعلى عرب شمال افريقيا انطباقاً متزايداً مع الزمن . ولذلك فان أي تهديد يوجه لأي جزء من أجزاء الأمة العربية يؤثر في جميع أجزائها الأخرى ، وتشعر به هذه الأجزاء وكأنه خطر موجه اليها نفسها . والحقيقة الثانية أن جميع البلدان العربية تقريباً كانت ، في الخمس والعشرين سنة الماضية ، مشغولة بالنضال في سبيل إحراز العضوية التامة في مجموعة الأمم ، وكان لكل منها مصاعب سياسية خاصة ،

Digitized by Birzeit University Library

تتصل بعلاقتها مع هذه الدولة أو تلك من دول الغرب . وقد امتزج السخط الذي ولدته مناوأة الصهيونية في فلسطين ، بظلامات تلك البلدان الخاصة بها ، فزاد كل منهما الآخر عنفاً . وأصبحت الصهيونية تعتبر أداة الاستعمار الغربي أو شريكته أو المسيطرة عليه . وفي الواقع أن العرب أخذوا يرون فيها رمزاً لعدوان الغرب . ولكن ، عدا أهميتها الرمزية في نظر العالم العربي ، فالعرب يعتبرونها خطراً كبيراً يهدد حياتهم القومية ، وعقبة في سبيل تحقيق أمانيهم . وهم يخشون أنها ترمي الى السيطرة السياسية والاقتصادية على الشرق الأوسط بكامله . حتى لو لم يصح ذلك ، فان وجود دولة يهودية في المركز الستراتيجي للشرق الأوسط ، حيث تلتقي طرق المواصلات الرئيسية ، ويتواجه الشقان الآسيوي والافريقي من العالم العربي ، من شأنه أن يحول دون تحقيق استقلال العرب التام ويجعل أي اتحاد عربي ناقصاً غير مستقر .

وقد ظهر عطف العالم العربي على عرب فلسطين بطرق كثيرة ، حتى قبل ثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ، ولكنه لم يصبح ذا صبغة واقعية حقيقية إلا خلال تلك الثورة . ففي كبريات مدن العالم العربي، شكلت لجان للدفاع عن فلسطين، وتبرع الناس بالأموال . وتطوعوا للنضال المسلح . وفي أخريات الثورة ، بعد أن أعلنت الحكومة أن اللجنة العربية العليا هي هيأة غير مشروعة ، كانت الثورة في الواقع تدار من سوريا ولبنان والعراق ، وما كان لها أن تستمر لولا معاضدة شعوب هذه البلدان لها معاضدة فعلية .

وفي الحق أن ثورة فلسطين كانت ملتقى جميع الجهودَ السياسية في العالم العربي ، وأنها عملت ، اكثر من أي عامل آخر ، على زيادة الرغبة في الاتحاد ،

(٥١)

Digitized by Birzeit University Library

فكانت هي السبب ، في عقد أهم المؤتمرات العربية العامة التي عقدت في تلك المدة — وهي مؤتمر بلودان (في سوريا) المنعقد في شهر ايلول سنة ١٩٣٧، والمؤتمر البرلماني المنعقد في القاهرة في شهر تشرين الأول سنة ١٩٣٨ . وكان الفضل في تنظيم هذين المؤتمرين كليهما ، وادارتهما ، يعود الى عرب فلسطين وآخرين ممن يعطفون على قضيتهم . ووجه فيهما كليهما اهتمام خاص الى الخطر الصهيوني والدور الذي تستطيع البلدان العربية الأخرى أن تلعبه في مكافحته .

وأهم من كل ذلك ، أن العالم اعترف ، في تلك السنوات ، بأن ما حدث في فلسطين كان حدثاً هاماً للعرب جميعاً ، وبانَ للعالم العربي حقاً لا يقل عن حق العالم اليهودي ، في المساهمة في تقرير مصير فلسطين . فلما دعت الحكومة البريطانية الى عقد مؤتمر لجميع الفرقاء المختصين لبحث المشكلة في لندن في أوائل سنة ١٩٣٩ ، وجهت الدعوة الى الحكومات العربية في مصر والمملكة العربية السعودية واليمن والعراق وشرق الأردن ، للاشتراك فيه مع ممثلي عرب فلسطين .

١٩ — السياسة البريطانية بين سنتي ١٩١٧ و ١٩٣٩

يمكن تفسير السياسة البريطانية في فلسطين منذ سنة ١٩١٧ ، تفسيراً سهلا ، بأنها خضعت لمبدأ التوازن — أي الرغبة في الحيلولة دون أن يصبح العرب أو اليهود أقوى مما ينبغي ، ومنع الفريقين من أن يتفقا معاً ، وبذلك يظلان كلاهما معتمدين على بريطانيا . وهذا تفسير ساذج لا يصمد أمام البحث والمناقشة ، وان كانت قد جرت بعض الحوادث في السبيل الذي كانت تتخذه لتوضيح ذلك التفسير . والحقيقة أن السياسة البريطانية اعتمدت على مبدأ التوازن ، ولكن بمعنى أبعد

Digitized by Birzeit University Library

غوراً من ذلك ، وربما كان اكثر خطراً منه . فمن البديهي ، حسب التفكير البريطاني ، أنه لا يكون أي انسان ، في أي وقت ، على حق تام من جميع النواحي . وفي هذه القضية ، بدأ التفكير الرسمي للحكومة البريطانية بافتراض أن مطالب العرب واليهود بشأن فلسطين تقع في مستوى واحد — أي أن لكلا الفريقين حقوقاً في البلاد ، وأن على بريطانيا العظمى لهما كليهما التزامات لا يمكن اغفالها . فقد التزمت بتسهيل الهجرة اليهودية والاستيطان اليهودي وانشاء وطن قومي لليهود ، وفي الوقت ذاته التزمت بصيانة حقوق العرب . فازاء هذه الالتزامات المزدوجة ، واصرار العرب على أن انشاء الوطن القومي هو في ذاته تطاول على حقوقهم ، اتخذت الحكومة البريطانية سياسة ذات شقين : أولهما أنها حاولت تفسير فكرة الوطن القومي تفسيراً أقل اثارة لرفض العرب إياها ، والثاني أنها أملت في أن يتغير موقف العرب ، ما دامت مطالب الفريقين لا تزال متضاربة .

فالمبدأ الأول كان أوضح من رفض الحكومة البريطانية القبول بالنص الأول الذي وضعه الصهيونيون لوعد بلفور . وهو الذي أوحى القرار باستثناء شرق الأردن من المنطقة التي التزمت بريطانيا بتسهيل انشاء الوطن القومي فيها . وأخيراً أدى هذا المبدأ نفسه الى اصدار تشرتشل الكتاب الأبيض سنة ١٩٢٢، الذي حدد الوطن القومي اليهودي تحديداً أدق من السابق ، وصرح بأن حكومة جلالته : « لم يخطر في بالها ، في أي وقت من الأوقات ، . . . أن يزول الشعب العربي أو اللغة العربية أو الثقافة العربية في فلسطين ، أو أن تصبح مسيطراً عليها . وهي تود أن تلفت النظر الى أن نص التصريح المشار اليه (أي تصريح بلفور) لا يرمي الى تحويل فلسطين كلها الى وطن قومي يهودي ، بل الى أن وطناً كهذا سيؤسس في فلسطين » .

Digitized by Birzeit University Library

وقد كان يعيب الكتاب الأبيض سنة ١٩٢٢ امران : أولهما انه ، على الرغم من نقضه فكرة سيطرة اليهود على العرب، أقر مبدأ لتنظيم الهجرة على اساس قدرة البلاد على الاستيعاب الاقتصادي ، وهو مبدأ يمكن ، بتطبيقه تطبيقاً جدياً ، ان يؤدي على مرور الزمن الى تحقيق هذه السيطرة ، ان لم يؤد الى جعلها محتومة . والثاني انه لم يتعد كونه بياناً لمبادىء شكلية، ولم يحسب حساباً لعامل جوهري من العوامل الفعلية في القضية ، هو انه وان قررت الحكومة البريطانية سياسة عامة تحترم فكرة الالتزامات المزدوجة ، فالصهيونيون يستطيعون دائماً ترجيح الكفة في جانبهم ، بفضل تفوقهم على العرب في التنظيم ، وفي كثرة وسائلهم للضغط على الحكومة بواسطة المركز الممتاز الذي تتمع به الوكالة اليهودية ، وغير ذلك . وهكذا ، على الرغم مما جاء في الكتاب الأبيض من التعريف والتحديد ، ظلت المطالب اليهودية والعربية متضاربة ، فلجأت الحكومة الى الوسيلة الثانية : وهي الأمل في ان يؤدي الرخاء والتقدم اللذين يأتي بهما الصهيونيون الى البلاد ، والخبرة الناجمة عن معيشة الشعبين معاً فيها ، على مرور الزمن ، الى قبول العرب بالصهيونية وتعديل موقفهم السياسي .

وظل هذا الأمل يحدو الحكومة من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٣٧ ، وكانت له نتيجة واحدة ذات بال ، فما دام يحتمل ان يكف العرب ، إن عاجلا او آجلا ، عن مقاومتهم للصهيونية ، ظلت الرغبة في تأجيل منح مؤسسات الحكم الذاتي حتى يحين الوقت الذي يتغير فيه موقف العرب . فاذا بودر الى اقامة حكم ذاتي ، في حين ان الأكثرية العربية لا تحيد عن مقاومة الصهيونية ، نجم عن ذلك استحالة تنفيذ الالتزامات البريطانية للصهيونيين . اما اذا اجلت اقامته بعض

Digitized by Birzeit University Library

الوقت، فقد يقتنع العرب بفوائد الاستيطان الصهيوني، وحينئذ يمكن انشاء المؤسسات النيابية في مأمن من خطر النزاع بشأن الهجرة، وهنا نشأت احدى المتناقضات في سياسة الحكومة، وهي أن تشجيع مؤسسات الحكم الذاتي — وان كان امراً يفرضه الانتداب — قد أجل بالفعل لأن اكثرية السكان معروفة بمقاومتها لأحكام اخرى ينص عليها الانتداب. فتقرر ان تحرم الاكثرية حق تقرير مصيرها السياسي، الى ان تجعل سياستها منسجمة مع سياسة الأقلية، او الى ان تصبح الأقلية نفسها اكثرية.

صحيح انه عرضت عدة مشاريع لاقامة مؤسسات نيابية. ولكنها جميعاً رفضت: إما من قبل اليهود (كما حدث سنة ١٩٣٥) لأنها أعطت الأكثرية سلطة واسعة، او من قبل العرب (كما حدث سنة ١٩٢٢) لأنها لم تعط الأكثرية سلطة فعلية في الشؤون ذات الأهمية القومية الكبرى. وقد أوجزت هذه المشكلة في مجرى المراسلات التي تبادلها اول وفد عربي ذهب الى لندن مع المستر تشرتشل الذي كان وزيراً للمستعمرات في ذلك الحين، بهذه العبارة: «فعلينا ان نفهم، إذن، ان الحكم الذاتي سيمنح حالما يصبح الشعب اليهودي في فلسطين قادراً، بعدد افراده ومدى صلاحيته، على الانتفاع من ذلك الحكم انتفاعاً تاماً، وانه لن يمنح قبل ذلك الحين».

وقد هزت ثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ الحكومة، واذهبت عنها كابوس الوهم والخداع. وأماط تقرير اللجنة الملكية الذي نشر سنة ١٩٣٧ اللثام عن الضلال الذي وقع فيه التفكير الرسمي بهذا الشأن، وكان بيانها بليغ العبارة قوي الحجة. فبدأ بمناقشة الافتراض القائل بتساوي وزن الالتزامين، وقرر تقريراً حاسماً ان امل

Digitized by Birzeit University Library

التوفيق بين الالتزامين امل كاذب يستحيل تحقيقه ، وان احتمال انتفاع العرب الاقتصادي مهما كان كبيراً لن يزيل اعتراضاتهم السياسية على انشاء وطن قومي لليهود ، وان مقاومة العرب له لا محيد عنها ، لانها لا تقوم على مجرد تقدير للفوائد التي يجنونها ، او الارتياب الذي يساورهم الى حين ، او سوء التفاهم الذي سرعان ما يزول ، بل على اعتقادهم الراسخ بحقهم ، وعلى رغبتهم في الاستقلال . وقرر ايضاً انه لا يمكن تنفيذ الالتزام المزدوج في ظل نظام الانتداب ، وان الانتداب نفسه لا يمكن تطبيقه . واعترف التقرير كذلك — واعترافه هذا لا يقل اهمية عما سبق — وان محاولة معالجة مسألة الهجرة على اعتبارها مسألة فنية يكفي لتقريرها الرجوع الى قدرة البلاد على الاستيعاب الاقتصادي ، ان هي الا محاولة تتجاهل الحقيقة وتفر من الواقع ، فالهجرة في جوهرها مسألة سياسية ، بل انها اهم المسائل السياسية ، وعليها تعتمد جميع المسائل الاخرى .

وعلى الرغم من ان تقرير اللجنة الملكية كان له ، كما كان لجميع حلقات سلسلة التقارير التي سبقته ، اثر قليل مباشر في سياسة الحكومة ، وعلى الرغم من ان بعض تفاصيله قد شوهها التحيز او الجهل ، فان في بيانه الجلي الجريء لهذه المبادىء ما يستحق امتنان كل من ينعم النظر فيه او يدعى لمعالجة مشكلة فلسطين .

٢٠ — الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩

ختمت اللجنة الملكية تقريرها بالتوصية بتقسيم فلسطين إلى دولتين يهودية وعربية . وسنورد فيما بعد إشارة الى الاسباب التي تحمل العرب على الاعتقاد بأن مشروع التقسيم جائر غير عملي . اما هنا فنكتفي بالاشارة إلى ان المشروع الذي

Digitized by Birzeit University Library

اوصت به اللجنة لم يكن له صلة منطقية بتحليلها للحالة. فقد اوضحت اللجنة المبادئ الاساسية للمشكلة ، ولكنها عجزت عن استخلاص النتائج المنطقية منها .

ثم جاء الكتاب الأبيض سنة ١٩٣٩، فاستخلص منها تلك النتائج ، ولذلك يمكن اعتباره التكملة المنطقية لتقرير لجنة بيل . والفقرة التي يلخص بها الكتاب الأبيض ما ينطوي عليه ذلك التقرير ، فقرة هامة ، وهي جديرة بالاقتباس بنصها الكامل :

« لقد كان من رأي اللجنة الملكية ان ادماج سياسة تصريح بلفور بنظام الانتداب ينطوي على الاعتقاد بامكان التغلب على موقف العرب العدائي من ذلك التصريح ، عاجلا او آجلا . ولقد كانت الحكومات البريطانية ، منذ صدور تصريح بلفور ، تأمل ان يرضى السكان العرب ، مع مرور الزمن ، عن إطراد نمو الوطن القومي اليهودي ، بعد ان يدركوا الفوائد التي سيجنونها من الاستيطان والعمران اليهودي في فلسطين . ولكن هذا الامل لم يتحقق . واصبح على حكومة جلالته الآن ان تختار بين سياستين :

(١) إما ان تعمل على توسيع الوطن القومي توسيعاً لا نهاية له عن طريق الهجرة ضد رغبات سكان البلاد من العرب ، التي اعربوا عنها بكل شدة ،

(٢) او ان تسمح بزيادة توسع الوطن القومي اليهودي عن طريق الهجرة إذا كان العرب على استعداد للقبول بتلك الهجرة ، ولكن ليس بدون ذلك .

Digitized by Birzeit University Library

اما السياسة الأولى فتعني الحكم بالقوة ، وهي ، بقطع النظر عن الاعتبارات الأخرى ، تخالف في رأي حكومة جلالته روح المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم كل المخالفة ، كما انها تناقض ايضاً الالتزامات الصريحة المترتبة عليها نحو العرب بموجب صك الانتداب على فلسطين ، اضف الى هذا أن العلاقات بين العرب واليهود في فلسطين ، لا بد لها ان تبنى ، عاجلا او آجلا ، على اساس تبادل التسامح والنية الطيبة ، فسلام الوطن القومي اليهودي نفسه وسلامته وتقدمه تتطلب ذلك . ولذلك قررت حكومة جلالته ، بعد انعام النظر والتدقيق ، وبعد اعتبار المدى الذي سهل فيه نمو الوطن القومي اليهودي خلال السنوات العشرين الماضية ، انه قد حان الوقت للاخذ من حيث المبدأ ، بالسياسة الثانية من السياستين المشار اليهما اعلاه . »

وبعبارة اخرى ، اصبح استمرار الهجرة اليهودية بعد الآن متوقفاً على قبول الاكثرية العربية بها ، قبولا تعرب عنه مؤسسات الحكم الذاتي ، بعد ان كان منح الحكم الذاتي للاكثرية العربية متوقفاً ، في السابق ، على قبولها بالهجرة اليهودية . وفي حين ان هذا التغيير يعني الاخذ بوجهة نظر العرب ، فانهم قد طولبوا ، وفي الوقت ذاته ، بأن يتنازلوا عن بعض الامور . منها ان يتخلوا عن ميثاقهم القومي الذي ينص على رفض الاعتراف بجميع المهاجرين الصهيونيين الذين فرضوا على العرب فرضاً ، وان يقبلوا باليهود الذين سبق لهم ان دخلوا فلسطين كمواطنين في الدولة الفلسطينية ، وبعبارة اخرى ان يعيشوا مع اقلية تؤلف ثلث مجموع السكان ، وتظل ابداً فيما بينهم غير مستقرة ولا منصهرة في بوتقتهم .

ولهذا لا يجوز وصف الكتاب الابيض ، كما يصفه مهاجموه الصهيونيون ،

Digitized by Birzeit University Library

بأنه نزول تام على مشيئة العرب . وانما هو حل وسط ، ومحاولة جديدة لتعيين نقطة التوازن بين الفريقين . وليس فيه خروج على السياسة البريطانية التي سبقته، بل انه مسعى جديد لحل المشكلة القديمة ذاتها — مشكلة تحديد الالتزامين على وجه يجمع بينهما دون تنافر او تناقض . اما ما طولب العرب بالتنازل عنه ، وان كان اقرب الى القبول بالامر الواقع منه الى الموافقة على شيء جديد ، فقد كان امراً جوهرياً .

ولكن الكتاب الابيض ، شأنه شأن تقرير لجنة بيل ، لم يواصل التفكير الى نتيجته المنطقية . فقد كانت المبادىء التي بينها تؤدي منطقياً الى امرين : أولهما انه ينبغي إقامة حكم ذاتي فوراً ، والثاني ان تترك الهجرة وانتقال الاراضي ، وجميع ما عداهما من الشؤون المتصلة بانشاء الوطن القومي ، للحكومة الوطنية لتبت فيها ، فبدلا من هذا ، نص الكتاب الابيض على استمرار الهجرة خمس سنوات اخرى، وان كان استمرارها ضمن حدود ، ونص على تنظيم انتقال الاراضي ، وان لم يوقفه ايقافاً تاماً ، ودفع بمسألة إقامة الحكم الذاتي الى مكان في المستقبل اقل وضوحاً واكثر بعداً مما ينبغي . ولهذه الاسباب رفض العرب القبول بالكتاب الابيض بالصورة التي صدر فيها . غير انهم كانوا ، ولا يزالون ، مستعدين للقبول به ، إذا ازيلت بعض العوامل غير المرضية . وهم يعترفون بأنه ، لو طبق كما ينبغي، يخلصهم من اسوأ الاخطار التي تواجههم بها الصهيونية . وهم راضون بالمبادىء التي نص عليها ، كتفسير صحيح للمشكلة ، وتعيين لطريق حلها المرضي ، إذا طبقت تلك المبادىء على وجهها الصحيح .

Digitized by Birzeit University Library

٢١ — عرب فلسطين خلال الحرب

انتهت ثورة عرب فلسطين الوطنية ، عند نشوب الحرب العالمية الثانية ، ولو كان العرب قد نالوا تأكيداً بانهم ، في حالة انتصار بريطانيا العظمى ، لا يوضعون تحت السيطرة الصهيونية ، لعملوا ما في وسعهم في سبيل نصرة قضية الأمم المتحدة. ففي شهري تموز وآب من سنة ١٩٤٠ ، في اللحظة الحالكة التي انهارت فيها فرنسا ، جرت للسيد جمال الحسيني ، أحد كبار الزعماء الفلسطينيين — وقد كان مقيما في بغداد آنذاك — محادثات مع الكولونيل نيو كمب الذي كان يطوف الشرق الأوسط ممثلا لوزير المستعمرات اللورد لويد . وقد جرت هذه المحادثات تحت اشراف رئيس الوزارة العراقية، الجنرال نوري باشا السعيد ، بحضور الشيخ يوسف ياسين ممثل الملك ابن السعود ، كمشاهد ، وعلى علم من السفير البريطاني ، ونجم عن تلك المحادثات ان تم الوصول الى اتفاق يعد العرب بموجبه بمعاضدة بريطانيا العظمى وحلفائها معاضدة تامة، مقابل تنفيذ نصوص الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩ مع بعض التعديلات ، تنفيذاً فورياً . صحيح ان ثمة الآن زعماً بانه لم يكن لدى الكولونيل نيو كمب تفويض بعقد ذلك الاتفاق ، وانه كان يطوف الشرق الأوسط ممثلا للورد لويد ولكن دون صبغة رسمية، ومع هذا فقد اعتبر العرب تلك المحادثات رسمية، ودليل ذلك انه، لدى انتهائها، أبلغت الحكومة العراقية الحكومة البريطانية ان العراق قد اصبح، بعد ان سويت مسألة فلسطين، مستعداً ، حين ينفذ الاتفاق المعقود بين الكولونيل نيو كمب والسيد جمال الحسيني ، لاعلان الحرب على المحور، ولوضع نصف القوى العسكرية العراقية تحت تصرف القائد العام في الشرق الاوسط لاستخدامها خارج العراق .

Digitized by Birzeit University Library

ولكن هذا الاتفاق لم تعتبره الحكومة البريطانية اتفاقاً رسمياً ، في اي وقت ، ولم تضعه موضع التنفيذ ، ولم تسر خطوة واحدة في سبيل تنفيـذ البنود السياسية من الكتاب الأبيض ، وان كانت احكامه المتصلة بالهجرة وانتقـال الاراضي قد نفذت تنفيذاً جزئياً . ومع هذا ، فقد ظل عرب فلسطين هادئين كل الهدوء طيلة مدة الحرب ، على الرغم من خطر الصهيونية الجاثم فوق رؤوسهم . وتوقف نشاطهم السياسي بكامله . وبادر الكتاب الصهيونيون الى الزعم بان هدوء العرب علامة على انهم لا يقاومون الصهيونية حقاً ، او على ان العرب واليهود قد اخذوا يتفاهمون تحت ضغط ظروف الحرب . ولكن لم يكن لهذين الزعمين اساس من الصحة . فموقف العرب ظل في جوهره على ما كان عليه ، واستؤنف النشاط السياسي في بضعة الشهور الاخيرة . ولهذا النشاط اشكال شتى . فقد انشئت لجنة عربية عليا جديدة قوامها الرئيسي ممثلو الاحزاب السياسية المؤسسة قديماً . وتقوم الآن مشاريع لانقاذ الأراضي العربية وتحسينها ، تنال المعونة المالية والمعاضدة المعنوية من البلدان العربية الأخرى . وقد انشىء بمعاضدة البلدان العربية ايضاً ، مكتبان في لندن وواشنطون ، مهمتهما بسط وجهة النظر العربيـة للشعبين البريطاني والاميركي . واخيراً بدأ يظهر اهتمام جديد بالمشاكل الاجتماعية ، ويجد لنفسه منفذاً في انتشار الشيوعية ، وفي محاولة انشاء منظمات للخدمة الاجتماعية ، وجماعات اشتراكية ديموقراطية .

٢٢ — السياسة الصهيونية منذ سنة ١٩٣٩

لقد احدث اصدار الكتاب الابيض تغييراً جوهرياً في الحالة ، على الرغم من انه لم ينفذ تنفيذاً تاماً . فقد كان العرب هم المطالبين بتغيير السياسة ، قبل سنة

Digitized by Birzeit University Library

١٩٣٩ ، في حين ان مهمة الصهيونيين كانت الحث على الاحتفاظ بالحالة الراهنة — اي تنظيم الهجرة وفقاً لمقدرة البلاد على الاستيعاب الاقتصادي — وهذه اسهل من مهمة العرب بكثير . فلما صدر الكتاب الابيض اصبح العرب يطالبون ببقاء الحالة الراهنة وتطبيق السياسة المقررة رسمياً ، في حين صار الصهيونيون في وضع جديد ينادون فيه بتجديد السياسة .

ومنذ سنة ١٩٣٩ ، اتجهت جميع جهود الوكالة اليهودية ، وكافة المنظمات الصهيونية ، الى نقض الكتاب الابيض . وكان يراد نقضه بشن غارة متصلة منظمة ضده في بريطانيا العظمى واميركا ، وبمحاولة منظمة لعرقلة تنفيذ ما اريد تطبيقه من احكامه . فنظمت الهجرة غير المشروعة على مقياس كبير ، وحاول الصهيونيون تبرير ذلك في نظر العالم بالحاجة الى ايواء ضحايا هتلر ، زاعمين انها حاجة ملحة الحاحاً يطغى على كل قانون . ولكن في الواقع كان عدد كبير من المهاجرين ، من يهود سوريا واليمن والعراق وايران وغيرهم من يهود البلدان الشرقية ممن لم يصبهم اضطهاد او مضايقة ، بل جذبتهم الى فلسطين وعود الوكالة اليهودية . وكذلك احتيل على نظام انتقال الاراضي بادعاءات الملكية المختلقة ، وبالوكالات التي لا يبطل مفعولها ، وبغيرها من وسائل الاحتيال على القانون . ففي سنة ١٩٤٤ وحدها تملك الصندوق القومي اليهودي بهذه الوسائل مئة الف دونم في المنطقة المحذورة .

وقد ادى نضال الصهيونيين ضد الكتاب الابيض ، ومذبحة اليهود في اوروبا معاً ، الى تكوين سياسة اكثر ايجاباً واشد تطرفاً مما كان الصهيونيون المحافظون يستصوبون نشره للملأ . فبرنامج بيلتمور يطالب بهجرة غير مقيدة واقامة دولة

Digitized by Birzeit University Library

يهودية ، في حين ان مطالب الصهيونية الرسمية كانت قبل ذلك اكثر غموضاً وتحفظاً . ولكن هذا التغيير كان في سياسة الصهيونيـة اقل منه في خططها ، إذ اعرب برنامج بيلتمور عما كان الصهيونيون يريدونه دائمـاً ولكنهم لم يستصوبوا التصريح به ، لأنهم تعلموا الحذر والحيطة من الأثر الذي تركته اعمـال اول لجنة صهيونية ، في موقف العرب تجاههم .

وقد كان من نتائج ميل الهيئات الصهيونية الى زيادة التطرف في مطالبهـا ، ان حدثت اعمال الارهاب على مقياس كبير في السنوات الأخيرة من مدة الحرب. وكانت الوكالة اليهودية ، كلما حدثت اعمال من الارهاب ، تتنصل منها وتستنكرها فوراً . ولكن العرب يرون ان الوكالة لا تستطيع ان تتنصل ، تنصلا تامـاً ، من مسؤولية هذه الأعمال . فقد ظلت هذه الوكالة ، طيـلة السنوات السبع الماضية ، تعلن ، على رؤوس الاشهاد ، عزمها على كسر شوكة قانون البلاد فيما يتصل بالهجرة وانتقال الأراضي . فهل تبرأ الوكالة من كل لوم ، حين يسير بعض افراد الشعب اليهودي على نهجها ، ثم يسبقونها في مضمار الخروج على القانون ؟

٢٣ — الجامعة العربية

اما في الجانب العربي ، فقـد كان اهم تطور سياسي جرى في بضعة السنوات الأخيرة ، انشاء جامعة الدول العربية . ودستور الجامعة يعرفه ، ولا ريب ، اعضاء اللجنة ، ولكن قد يكون من المفيد تفسير البواعث التي ادت الى انشائها . يحاول الصهيونيون حمل الناس على ان يروا في الجامعة العربية عملا خلقته كراهية العرب للغرباء ، ولا يستهدف إلا مقاومة الصهيونية والدول الغربية . ولكن الجامعة العربية شكلت ، في الواقع ، لغايات اكثر انشاء وايجاباً من ذلك .

Digitized by Birzeit University Library

فمن جهة ، عمل الرجال الذين انشاؤا الجامعة ، وهم يدركون احتمال اقامة منظمة عالمية عند انتهاء الحرب ، على اقامة بناء يمكن ان ينسجم مع نظام السلام العالمي ، ويعطي البلدان العربية اكبر وزن ممكن في ذلك النظام . ومن هذه الناحية ، كان بروتوكول الاسكندرية وميثاق القاهرة محاولتين لايضاح السبيل الذي يؤدي بالدول العربية الى الانتظام في سلك المجموعة العالمية، وتعيين الشروط التي يتم بمقتضاها هذا الانتظام .

ومن جهة اخرى ، كان معظم مؤسسي الجامعة ، صغار السن في ايام العهد العثماني ، ولهم ذكريات عن الوحدة العثمانية ، جعلتهم يشعرون شعوراً قوياً بالمضايقة والنتائج السيئة التي سببتها التجزئة المصطنعة التي حلت بالعالم العربي . وقد ادركوا ايضاً ان التجزئة تعقب تجزئة ، وكلما طال بها الزمن ازدادت صعوبة جمع الشمل بعد التفرق . فاستهدفوا ايقاف سير التجزئة والانحلال ، وازالة الآثار السيئة التي خلفها ، والسير في سبيل التعاون وجمع الشمل . وبعبارة اخرى ، حاولوا ان يضعوا الأساس لمجتمع عربي شامل جديد يحل محل الوحدة العثمانية القديمة التي حلت عراها.

وقد كان منشئو الجامعة على علم تام بان حل مشكلة فلسطين هام كل الأهمية لتحقيق كلتا هاتين الغايتين . فما لم تضمن عروبة فلسطين ، يستحيل ان تقوم علاقة طبيعية بين البلدان العربية والعالم الغربي ، كما يستحيل قيام روابط الوحدة على صورة مرضية . وقد أريد التدليل على اهمية مشكلة فلسطين للعالم العربي بكامله ، حين خصت فلسطين وحدها — من بين جميع البلدان العربية المحرومة من الحكم الذاتي — بحق التمثيل في مجلس الجامعة ، وحين أثبت في بروتوكول الاسكندرية اهتمام جميع الدول العربية بحل مشكلة فلسطين حلا مرضياً ، وحين

Digitized by Birzeit University Library

تعهدت الدول المنتسبة الى عضوية الجـــامعة بمساعدة العرب الفلسطينيين بكافة الطرق ، وخاصة في محاولاتهم انقـاذ الاراضي العربية من الانتقال الى ايدي الصهيونيين ، وبسط قضيتهم للعالم الخارجي .

٢٤ — بيان المستر بيفن

بدأت المرحلة الأخـيرة من مراحل القضية بالبيان الذي اصدره المستر بيفن في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٥ ، واعلن فيه تأليف لجنة تحقيق بريطانية اميركية. والعرب بوجه عام لم يقابلوا هذا البيان بالارتياح . وقد يكون من المفيد ، بهـذه المناسبة ، اقتباس بعض العبارات من الخلاصة الثالثة التي اعدها المكتب العربي بالقدس ، لرد الفعل الذي سببه لدى العرب البيان المذكور ، بعد صدوره ببضعة ايام :

تعلن الفقرة الثامنة عشرة ان هـذا البيان يعالج المشكلة بوسيلة جديدة ، ولكنه في الواقع لم يأت بالكثير من الجديد . فهو لا يفوق البيانات السابقة في فهمه المشكلة ، لا كثيراً ولا قليلا ، كما انه لا يعرض اقتراحاً جديداً لحلها . وهو يعود بنا الى الحالة التي كنا عليها قبل سنة ١٩٣٩ ، ايام كانت تتوالى اللجان ، وتتلاحق بيانات السياسة ، ولا يكاد يتخذ قرار حتى يقلب رأساً على عقب . ويبدو من المحتمل انه سيعاد السير على هذا القرار ، وانه ستمر الشهور ، بل قد تمر السنوات ، قبل الوصول الى قرار نهائي . ولا شك في ان فترة التأجيل هذه ستسودها الحيرة والقلق ، ويصعب على العرب في اثنائها ، مهما حسنت نواياهم ، ان يلتزموا الهدوء التام ، في حين تظللهم اخطار غامضة ، وخاصة إذا استمرت اعمال الاستفزاز

Digitized by Birzeit University Library

الصهيوني. وفي الواقع ان اصدار هذا البيان، وما ينطوي عليه من تغيير في السياسة، هو في ذاته عامل من عوامل هذا الاضطراب .

وسيزيد في هذه الحيرة ان الحالة الراهنة لن تبقى دون تغيير خلال فترة التأجيل . فالبيان يشير الى استمرار الهجرة حتى قبل تقديم اللجنة توصيها الاولية السابقة لانهاء عملها . وهذه الهجرة تعني حدوث تغيير مستمر في الحالة الراهنة ، وحدوث توتر متزايد على الدوام . وهذا البيان ، في الواقع ، مجحف بالقضية ، على الرغم من تأكيد الفقرة السادسة عشرة منه خلاف ذلك .

٢ — ان من الصعب ادراك النفع الايجابي الذي يجنى من تعيين لجنة جديدة ليرجح على المضار الناجمة عن زيادة التأجيل وشعور الحيرة والارتياب . فقد بحثت قضية فلسطين ، من كافة نواحيها ، على يد سلسلة من اللجان ، ولم يبق حل يتصوره العقل إلا اقترح ، وبحث . فماذا تستطيع لجنة جديدة ان تضيف الى ما سبق ؟ ولعله كان افضل من تعيينها ، التأمل في العظات التي اعطتها اللجان السابقة ، ومتابعة النهج المنطقي الذي سارت عليه سلسلة كاملة من التحقيقات والمقترحات حتى انتهت اخيراً — ولم يكن لها بد من الانتهاء — الى الكتاب الأبيض ثم التساؤل فيما إذا كان السير على نهج مماثل له في المستقبل لا يؤدي الى نتيجة مماثلة .

٣ — إن هذا البيان يلاقي القبول لدى العرب في اي وقت من الاوقات. اما الان، وقد جاء بعد الكتاب الابيض، فانهم يستقبلونه بأعنف شعور بخيبة المسعى، إذ ان الكتاب الابيض قد سلّم بالحد الادنى لمطالبهم ، وهذا البيان لا يشير الى ذلك الكتاب ابداً ، بل يخالفه في نواح عدة منها :

Digitized by Birzeit University Library

(أ) ناحية الهجرة : فالبيان يرمي الى احتمال استمرار الهجرة، بعد استنفاذ العدد المقرر في الكتاب الابيض ، وبمعدل يدعى « النسبة الشهرية الحالية » وقد تعينه الحكومة كما تشاء . اما النص الذي ورد فيه بشأن استشارة العرب ، واشارته إلى ان هذه الاستشارة تأتي وفاقاً للعهود التي قطعتها حكومة جلالته، فيؤخذ عليه ان الحكومة البريطانية تحتفظ لنفسها بحرية تفسير معنى « الاستشارة » كما تشاء . فلو نفذ الكتاب الابيض تمام التنفيذ ، لكان في البلاد الآن مؤسسات للحكم الذاتي ، ولأمكن الاستعانة بها على تحديد معنى الاستشارة . اما في الظروف الحاضرة فليس لها معنى محدود . ثم لو افترض اجراء الاستشارة على اوسع مدى ممكن ، لقصر ذلك عن الوفاء بعهود حكومة جلالته . فقد كان العهد في الكتاب الابيض ان لا يسمح باستمرار الهجرة « إلا إذا كان عرب فلسطين على استعداد للقبول بها » ، ولم يأت فيه ذكر للاستشارة . وهذا التغيير في العبارة مقلق للعرب حتما ، وهو ، ما لم يفسر تفسيراً كاملا ، يحمل على انه يعني فرض الحكومة الهجرة على العرب فرضاً إذا استشيروا بشأنها ورفضوها .

(ب) إن الكتاب الابيض قد لوح بالامل في ممارسة الحكم الذاتي واكثرية عربية بعد سنين معدودة ، ونص على انهاء الانتداب ، اما البيان فلا يشير الى الحكم الذاتي ابداً ، ولا يعطي العرب تأكيداً بشأن مصيرهم السياسي النهائي ، بل يأتيهم بالوصاية ، تلك العبارة

Digitized by Birzeit University Library

الغامضة التي يبدو انه لا مفر ، مع ممارستها ، من تأجيل بلوغ مرحلة الحكم الذاتي الى مدى ابعد مما يرمي اليه الكتاب الابيض، واسوأ من هذا ان الوصاية قد تعني استمرار الانتداب مع تغيير في الاسم فقـــــط .

(ج) ولا يقتصر الامر على تخلي البيان الجديد عن بعض مقترحات الكتاب الابيض ، بل يتجاوز ذلك الى انه يتخلف عنه في فهمه للمشكلة . فالفقرة الخامسة من البيان تشير إلى « النقص في إيضاح الالتزام المزدوج الذي قطعته بريطانيا العظمى لليهود والعرب » ، في حين ان الكتاب الابيض يوضح ما تعهدت به حكومة جلالته للصهيونيين وما لم تتعهد به ، بل انه بكامله مبني على فهم جلي لهذه الناحية .

(د) كتب البيان بكامله ، وكأن المشكلة التي يعالجها جديدة لم تدرس ولم يقترح لها اي حل حاسم في الماضي . وهو يتجاهل ان في الكتاب الأبيض حلا فاصلا رأت فيه الحكومة البريطانية القائمة آنذاك ، ما ينهي المشكلة . فاذا تبين للحكومة القائمة الآن ان ذلك الحل غير قابل للتطبيق او غير مرغوب فيه ، فلا اقل من ان تذكر الاسباب التي حملتها على تغيير رأيها .

٤ — لا يرى العرب اساساً قانونياً يستند اليه في تعيين اللجنة البريطانية الاميركية ، ولذلك يحتمل ان يثير هذا التعيين قلقهم . إنهم قد يجدون مبرراً لتعيين لجنة بريطانية صرفة ، على اساس ان بريطانيا تمارس الانتداب على البلاد.

Digitized by Birzeit University Library

ولعل بعض الناس يجدون طريقة اخرى يبررون بها تعيين لجنة ممثلة للدول المتحدة. أما ان تدعى الولايات المتحدة وحدها لمعاونة الدولة المنتدبة في وضع سياسة جديدة، فأمر يتعذر ايجاد مبرر له . ثم انه ، بصرف النظر عن المسألة القانونية ، لا يمكن الادعاء بأن للولايات المتحدة مصلحة اوفى او اوثق بالمشكلة اليهودية او بمسألة فلسطين من الدول الكبرى الأخرى او الدول العربية . ولهذا فان العرب ، وان كان يحتمل ان يرحبوا بلجنة اميركية غير رسمية تقتصر الغاية منها على تحري الحقائق لتنوير الرأي العام الاميركي ، لا يمكنهم ان يعتبروا انفسهم ملزمين بقرار لجنة بريطانية اميركية يراد منها وضع سياسة لفلسطين وتقرير مصيرها .

٥ — والبيان لا يعطي صورة دقيقة تامة الدقة للحالة :

(أ) فهو يميز بين المشكلة اليهودية ومشكلة فلسطين ، ولكن تمييزاً شكلياً فقط ، إذ انه في الواقع يبالغ في تأكيد العلاقة بينهما . ودليل هذا ان صلاحية اللجنة تشمل المسألتين معاً . ثم انه يتخذ من اضطهاد اليهود في اوروبا مبرراً لمواصلة هجرتهم الى فلسطين دون تأخير او انقطاع . وفي الواقع ان الاضطهاد ليس العامل الوحيد في طلب مواصلة الهجرة الى فلسطين فوراً ، بل ان الى جانبه عاملا آخر لا يقل عنه اهمية ، هو تخلف الحكومة الاميركية وغيرها من الحكومات عن القيام بأي عمل فوري لاسعاف اليهود الذين لا يستطيعون ان ان يعيشوا في اوربا . فلو كان للبواعث الانسانية لدى الحكومتين مثل الوزن الذي تدل عليه الفقرة العشرون من البيان ، لاتخذتا الاجراءات الفورية لاسعافهم على حسابهما الخاص لا على حساب

Digitized by Birzeit University Library

العرب . ويترك البيان للجنة ان تقرر الحصة التي تساهم بها الامم الاخرى في سبيل اسعاف اليهود ، ولا يطلب الى هـــذه الامم ان تعمل الآن شيئاً . وهكذا يتضح ان الرابطة المنطقية بين الضيق الشديد الذي يلاقيه اليهود في اوروبا ، وبين الحاجة الى الهجرة الفورية الى فلسطين ، ليست من المتانة بالقدر الذي يريده لهاالبيان.

(ب) وفيه ذكر « للالتزام المزدوج » الذي قطعته بريطانيا العظمى ، وهو يفترض التساويـــ والتعادل بين ما للعرب وما لليهود من ادعاء وحق في فلسطين ، بل انه بكامله قائم على هذا الفرض . والعرب لا يعترفون بهذا التساوي والتعادل ، وبصرف النظر عن هذا ، كان جديراً ان يتضح الآن انه لا يمكن حل المشكلة بطريق المصالحة ، إذا هي صيغت في قالب نزاع بين حقين متعادلين . وهذا ثابت لن يغير منه اي نداء يناشد فيه الاعتدال او الروح الطيبة .

(حـ) والفقرة الخامسة منه تشير الى « الخلاف المستمر بين العنصرين ، بسبب اختلاف الدين واللغة والحياة الثقافية والاجـــتماعية » . ويحاول الحيلولة بينهما لئلا يندفعا ، كل منهما آخذ بخناق الآخر . هـــذه الصورة التي يرسمها البيان ليست دقيقة بكامل تفاصيلها ، فالنزاع في فلسطين ليس ، عـلى اي حال من الأحوال ، ناشئاً عن تعصب عنصري او ديني ، والعرب من جانبهم لا يكنون اي عداء لليهود لمجرد كونهم يهوداً .

(د) والفقرة السادسة تبين مطالب العرب ، ولكن بما ليس فيه الكفاية ،

Digitized by Birzeit University Library

بل تبديها وكأنها لا تستند إلا إلى احتلالهم البلاد منذ الف عام ، وتوهم انها لا تصلح للمقارنة بالمطلب اليهودي المستند الى « العلاقة التاريخية مضافاً اليها ، العهد المقطوع في الحرب العالمية الاولى » . ولكن عبارة « الاحتلال منذ ألف عام » ليست دقيقة من الناحية التاريخية ، فاحتلال العرب هذه البلاد لا يرجع إلى الف عام ، حتى ولا إلى ١٣٠٠ عام حين جاء الفتح العربي ، بل ان عرب فلسطين ينحدرون من سلالة سكان البلاد الأصليين ، ولذلك يرجع احتلالهم إياها إلى اوائل التاريخ المسطور . وقد يكون اقرب إلى الإنصاف لو اشير الى مقام فلسطين في التاريخ الإسلامي ، وما دام قد اشير إلى العهد المقطوع للصهيونيين خلال الحرب العالمية الأولى ، فقد كان من الانصاف ان يشار إلى العهود التي قطعت للعرب قبل وعـــد بلفور وبعده .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الثانى

مناقشة الحجج الصهيونية

١ — تمهيد

حاولت الدعاية الصهيونية ، طيلة جيل او اكثر ، ان تستميل الرأي العام العالمي ، وخاصة الجمهور في البلدان الانكلو سكسونية ، الى تأييد فكرة الهجرة على مقياس كبير ، واقامة دولة يهودية في فلسطين . وقد قامت بذلك بتفسيرها الحوادث الجارية كما تشاء ، وبوسيلة اخرى اشد اثراً من هذه ، الا وهي محاولة انشاء نظام من الآراء الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والروحية ، يعين لرجال السياسة والحكم والمراقبين السياسيين — حتى من لا يعتنق الصهيونية منهم اعتناقاً واعياً — طريقاً يملك تفكيرهم ، لدى مواجهتهم قضية فلسطين وشؤون الشرق الاوسط . وحاولت ايضاً تكوين اطار يحيط بألوان تفكير العالم عن العرب واليهود وفلسطين، لانه إذا تم لها هذا امكن حصر كل لون من الوان الفكر واظهـــاره بمظهر المؤيد لنظرية الصهيونية . وفي هذه المحاولة ، اثبت دعاة الصهيونية السياسية سيطرتهم التامة على التفكير السياسي الحالي في العالم الانـكلو سكسوني . وبديهي انهم احرزوا معونة كبيرة من وجود عدد كبير من الصهيونيين الانكليز او الاميركيين مولداً وتعليماً ، يستطيعون التعبير عن الافـكار الصهيونية من وجهة نظر ما لدى الامم الانكلو سكسونية من حرية واستعمار وديمقراطية اجتماعية وحركات تتخذ من التقدم او الطريقة العلمية شعاراً لها .

Digitized by Birzeit University Library

وليس موضع الجدل هنا ان دعاة الصهيونية ، ومن انضم الى صفوفهم ، غير مؤمنين بما يقولون . ولكننا نرى ان مجموعة الآراء التي ينشرونهـا ينبغي ان لا تقبل دون نقد وتمحيص ، وان مناقشة هذه الآراء تثبت انها سقيمة ان لم تـكن باطلة بالمرة . وما لم تجر هذه المناقشة ، يظل تفكير الصهيونيين ، وتفكير جميع من تأثر بآرائهم ، تأثراً واعياً او غير واع ، تفكيراً معيباً ، لا فيما يتصل بمشكلة فلسطين وحدها ، بل فيما يتصل بمشاكل الشرق الاوسط جميعها . وقد يكون لهذا التفكير اثر خطير في السياسة .

وسنتولى ، في النبذ التـالية ، تحليل الانواع الرئيسية للحجج الصهيونية ، واحدة واحدة ، ويمكن تصنيفها ، تصنيفاً تقريبياً ، على الوجه التالي :—

١ — حجة الحقوق الطبيعية والتاريخية .

٢ — حجة النبوءة الدينية .

٣ — حجة التعهدات الدولية .

٤ — الحجة المتصلة باللاجئين .

٥ — الحجة السيكولوجية (النفسية) .

٦ — الحجة الاستراتيجية (المتصلة بموقع البلاد الحربي) .

٧ — حجة (المدنية العليا) .

٨ — حجة انتفاع العرب .

٩ — الحجة القائلة ان الصهيونية ليست خطراً على العرب .

١٠ — الحجة القائلة انه انما يقاوم الصهيونية ملاكو الاراضي والافندية ، لا الشعب العربي بكامله .

Digitized by Birzeit University Library

١١ — الحجة القائلة لماذا يبيع العرب الاراضي الى اليهود .

١٢ — الحجة القائلة ان فلسطين ليست سوى جزء صغير من العالم العربي، قليل الاهمية له ، ولذلك فان قيمتها لدى العرب تقل كثيراً عن قيمتها لدى اليهود .

وبديهي ان هذا ليس سوى تصنيف تقريبي ، إذ ان الاصناف يتداخل بعضها في بعض كما ان لكل حجة عدة صيغ متنوعة تصاغ فيها . وينبغي كذلك ان يلاحظ ان معظم الصهيونيين لا يقيمون قضيتهم على اية حجة منهـا منفردة ، بل على مجموعة منها معاً او عليها جميعاً في آن واحد .

٢ — الحقوق الطبيعية والتاريخية

يمكن ايجاز هذه الحجة بالقول : « ان لكل امة الحق في ان يكون لهـا وطن لا ينازعها فيه احد . واليهود امة . كانت فلسطين وطنهم عدة قرون ، ولم تنقطع صلتهم بها حتى وهم في منفاهم ، ولم ينزلوها في يوم من الأيام عن مقامها الأول في قلوبهم ، كما لم يجدوا بلاداً اخرى يمكنهم اتخاذها وطناً بهذا المعنى . ولذلك يحق لهم حيازتها تامة » .

ليس المراد هنا مناقشة موضوع الحق الطبيعي والحق التاريخي، من اساسه . بل نفترض وجود هذين الحقين ، ونعالج السؤالين التاليين : (١) هل لليهود حق طبيعي في الاستيطان في فلسطين ؟ (٢) حتى لو كان لهم هذا الحق ، هل هو اقوى من حق العرب ؟

(١) فالسؤال الأول نفسه ينطوي على تحقيق تمهيدي في جواز اعتبار اليهود

Digitized by Birzeit University Library

امة . لأنهم إذا لم يكونوا امة منفردة ، ووجب اعتبـــارهم افراداً في الأمم التي يعيشون بين ظهرانيها ويتكلمون لغتها ، ولا يختلفون عن افرادها الآخرين إلا في العقائد والتقاليد الدينية ، اتضح انهم لا يستطيعون الادعاء بوجوب احرازهم بلاداً اخرى غير البلاد التي يعيشون فيها . ولا يكون ادعاؤهم معقولا إلا بقدر ما يعقل ادعاء جميع افراد الطائفة (الكلفينية) حق استيطان مدينة جنيف ، اقامة دولة لهم فيها .

ليس لكلمة (امة) تعريف مقرر يقبـــل به الجميع ، وليس ثمة اي تصنيف انساني يمكن وضع اليهود فيه وضعاً محكماً ، ولذلك لا يمكن اعطاء اي جواب بسيط على قول السائل : هل اليهود امة ؟ وكل ما يستطاع قوله هو انه ليس لدى اليهود كثير من الخصائص المتوفرة لمعظم الأمم . فليس لهم لغة مشتركة ، ولا مركز جغرافي واحد ، وليس لهم سوى قدر محدود من التقاليد المشتركة والتراث الشعبي المشترك ، ولهم من الأصل العنصري المشترك اقل بكثير مما يفترض في كثير من الأحيان . زد على ذلك انه اذا كانت هذه خصائص الأمة ، فاليهود لا يؤلفون امة بمفردها ، بل يتبع الكثيرون منهم هذه الأمة او تلك من امم العالم المعترف بهـا ، ويكونون ، فيما يتصل بالثقافة والتقاليد او الميول السياسية ، اميركيين او بريطانيين او افراداً من امة اخرى ، حسب مقتضى الحال . اما اذا اريد تشبيههم باية مجموعة انسانية اخرى ، فيمكن تشبيههم « بالملل » الأخرى في الامبراطورية العثمانية ، وهؤلاء هم اتباع المذاهب الدينية المنظمة تنظيما دقيقاً ، الشاعرون برابطتهم ووحدتهم المذهبية . ولا يمكن اعتبار هؤلاء امماً بالمعنى الحديث لهذه الكلمة .

حتى لو سلمنا جدلا بان اليهود يعتبرون امة على وجه من الوجوه ، لظل يعوزنا

Digitized by Birzeit University Library

البرهان على ان لهم في فلسطين حقاً اقوى مما لهم في اي قطر آخر . فقد كانت صلتهم بها قصيرة العهد نسبياً ، وكانت المدة التي قامت لهم فيها دولة ، اقصر امداً . وقد اقتصرت هذه الدولة على بعض المناطق الجبلية بفلسطين ولم تشمل البلاد بكاملها إلا في مدة جد وجيزة . (والسهل الساحلي الذي يكثر فيه استيطان اليهود اليوم ، لم يكن لهم سيطرة دائمة عليه) . وقد انقطعت صلتهم بفلسطين منذ قرون ، ولم يدخلوها إلا باعداد لا يؤبه بها ، حتى في القرن التاسع . صحيح ان اليهود في جميع انحاء العالم قد احتفظوا بذكرى ارض اسرائيل ، ولكن هذا ، من وجهة نظر انسانية ، لا يكفي لاثبات حقهم اكثر مما تكفي ذكرى العرب للاندلس او حنين الالمان الروائي الى البلاد اللاتينية .

ثم ان نسبة كبيرة من اليهود الاوروبين والاميركيين ليسوا من نسل اولئك اليهود الذين عاشوا في فلسطين في وقت مضى إذ لا بد ان يكونوا قد تزاوجوا مع غيرهم ، على مر القرون ، غير البعض دينهم في فترة من الزمن . ولذلك لا يجوز ان يقال ان اليهود يؤلفون عنصراً واحداً ، ولا يمكن اعتبار الاوروبيين والاميركيين منهم انهم ينتمون الى ذات العنصر الذي ينتمي اليه اليهود الشرقيون او العرب . ولا هم ساميون في طرق معيشتهم وتفكيرهم . وقد اكثر المشتغلون بالدعاية من الكلام عن قرابة العرب واليهود ، وكرروا القول ان هذا الفريق ابن عم لذلك . وهذا قول يضحك كل من يعرف الشعبين . فمعظم اليهود لا يستخدمون اللغة العبرية في حياتهم اليومية ، وليس في حياتهم او تفكيرهم اي شيء يمكن الاعتراف به بانه شرقي ، او يتطلب اكتمال نموه واستغلاله ، سكنهم في بلاد شرقية .

ويمكن ايضاً ان يشار ، اشارة عابرة ، الى ان الفكرة الشائعة عن اخراج

Digitized by Birzeit University Library

اليهود من بلادهم بالقوة ، وانهم ظلوا منذ ذلك الحين يضجون بالمطالبة بالرجوع اليها ، لا اساس لها من الصحة . وقد سبق لنا ان اشرنا الى ان تشتت اليهود بدأ قبل قمع الرومان للثورات اليهودية ، وان كانت اعمال القمع قد عجلت في التشتت. وقد كان للتشتت اسباب غير القمع — منها ان اليهود ، شأنهم شأن غيرهم من سكان سوريا، انتشروا في جميع انحاء العالمين الاغريقي والروماني بحثاً عن الكسب او التقـــدم ، واستقروا حيث وجدوا وسائل العيش . ولكن ، في حين ان امتزج السوريون بالسكان الذين نزلوا بين ظهرانيهم ، ظل اليهود في عزلة واحتفظوا بوحدتهم كجماعة منفردة .

والسؤال الثاني عن قوة حق العرب واليهود ، يجاب عليه بالقول انه إذا شك في صحة ادعاء اليهود بفلسطين على اساس الحق الطبيعي والحق التاريخي ، فليس ثمة غبار من الشك في صحة ما يدعيه العرب . فهم سكان البلاد ومالكوها وفالحوا ارضها منذ زمن سحيق في القـــدم . وليسوا بدواً رحلا جاءوا البلاد عرضاً ، وبامكانهم الخروج منها ، على الصورة التي يحاول الكتاب الصهيونيون رسمها لهم ، بل هم مزارعون طال استقرارهم في الأرض ، ولهم ، كما للمزارعين في انحاء العالم ، تعلق شديد بالأرض والمنازل التي اقاموها عليها . ولا يقتصر الأمر على انهم يحتلون الأرض الآن ، فقد كان اسلافهم يحتلونها منذ بدء التاريخ . وهم ، كما سبق القول، لم يدخلوا البلاد فاتحين غرباء حين وقع ما يسمى (الفتح العربي) بل انهم من سلالة سكانها الأصليين الذين لم يحل العبرانيون ، او اي اناس آخرين ، محلهم في اي وقت من الأوقات، كما انهم امتزجوا بالفاتحين العرب في القرن السابع واعتنقوا دينهم واقتبسوا لغتهم .

Digitized by Birzeit University Library

يحتج الصهيونيون في بعض الأحيان بان العرب لم يكونوا ، في اي وقت من الأوقات، مالكي البلاد الشرعيين، وبانها كانت تحت حكم الأتراك طيلة الأربعمائة سنة السابقة لسنة ١٩١٧ ، ثم انتقلت الى البريطانيين بمقتضى حق الفتح . وهذه حجة مغلوطة ، من حيث المبـدأ والأمر الواقع . فمن حيث المبـدأ ، ينبغي اعتبار ساكن البلاد الفعلي مالكا لها ابعد ما يكون للملك من معنى . اما من حيث الأمر الواقع فليس من دقة الوصف ان يقال ان الامبراطورية العثمانية كانت امبراطورية تركية . فقد كانت امبراطورية اسلامية عالمية ساهم العرب فيها بنصيب من الحكم لا يقل عن نصيب الأتراك ، وكان العرب يدركون انهم من العنصر الحاكم فيها . اما سياسة التتريك فلم تبدأ إلا في السنوات العشر الأخيرة من حياة الامبراطورية العثمانية ، اي بعد قيام ثورة تركيا الفتاة . وقد كانت النتيجة المباشرة لهذا ان صمم العرب على الانفصال عن الامبراطورية . ولـكن العرب ، وبينهم فلسطينيون ، ظلوا يشغلون المناصب الرفيعة في الحكومة والجيش حتى في ظل تركيا الفتاة . وقبل هذه الامبراطورية ، كان يحكم فلسطين سلالات عربية . وقبـل ذلك كانت جزءاً من الامبراطورية الرومانية التي كان يتمتع الجميع فيهـا بالفرص المتساوية والحقوق المتساوية امام القانون .

ينحدر عرب فلسطين من سلالة سكان البـلاد الأصليين ، وقد كان لهم ، طيلة القسم الأكبر من عصور التـــاريخ ، نصيب في تقرير مصيرها ، يقل حيناً ويزداد آخر . فاذا اتخذنا من الحق الطبيعي والحق التاريخي قاعدة ، حق لنا ان نتسائل اين هو الحق الذي يقوى على حق العرب فيها ؟

Digitized by Birzeit University Library

٣ — النبوءة الدينية

يمكن ايجاز الحجج الدينية التي تعرض في معرض تأييد الصهيونية فيما يلي :

« لقد وعد الله اليهود بفلسطين ، واعطاهم اياها زمناً . فلما طردوا منها وعدهم ، على لسان الأنبياء ، بانهم سيعودون اليها حينما يحين الوقت. ولعودة اليهود هذه منزلة رفيعة في النظام الذي شاءه الله للعالم ، لأن عودة المسيح ، ونهاية العالم ، لن تتما قبل عودتهم تلك . ولذلك فان كل عمل يسهل عودة اليهود الى فلسطين ، يحاط بهالة من القداسة ، ويعتبر تنفيـذاً لمشيئة الله في البشر .

« ثم ان عبادة اليهود وطقوسهم تدور جميعها حول فلسطين . وعبادة الله لا تتم إلا في الهيكل في القـدس ، ولا يتم المعنى المراد بالصلوات والطقوس اليهودية ، او باقامة الشعائر الدينية ، إلا في جوها الطبيعي — فلسطين . فمالم تتم عودة اليهود اليها ، تقوم العراقيل في سبيل نمو اليهودية ، وتعجز عن المساهمة بكامل نصيبها ، في حياة البشر الروحية . »

وهنا ، كما هي الحال في معالجة مسألة الحق الطبيعي ، لا نثير مسأ صحة هذه الحجة من حيث المبـدأ ، وان جازت الاشارة العارضة الى بعض الشكوك . فاذا افترضنا القبول بها من حيث المبدأ، بقي علينا ان نسأل عن المعنى الدقيق للنبوءات، وعما إذا امكن اتخاذها مبرراً لمطالب الصهيونية السياسية . وهذه مسألة فيهـا من التعقيد والشك ما لا يسمح ببحثها هنا بحثاً وافياً . ولـكن النقاط التـالية ذات مساس بها :—

Digitized by Birzeit University Library

(١) ان اليهودي المؤمن يوقن ان اليهود سيعودون الى فلسطين ، عاجلا او آجلا ، وعندئذ يبدأ عهد جديد في تاريخهم وتاريخ العالم . ولكن ليس جميع ذوي النظرة الدينية التقليدية منهم يعتقدون ان هـذه العودة يجب ان تـكون بوسائل سياسية من صنع الانسان ، او يجب ان تتم الآن . بل يعتقدون انها ستحدث حين يشاء الله ، وتحت لواء المسيح حين رجوعه ، لا بوسائل من صنع البشر . ولا نزاع في ان هؤلاء اليهود يرغبون في استبقاء صلتهم بفلسطين كمركز لحياتهم الروحية والثقافية ومكان يحجون اليه . ولكن كل ما يطلبونه لهـذا المركز الروحي هو ان يكون لليهود المتدينين حق الوصول اليـه ، لا اقامة دولة يهودية على غرار الدولى الأخرى . ولهذا كان جانب من هؤلاء اليهود يقاوم الصهيونية السياسية ، مقاومة لا انقطاع لها .

(٢) ولا يقتصر الأمر على ان هؤلاء اليهود المنـاوئين للصهيونية السياسية كثيرون ، بل ان جمهرة الساسة الصهيونيون ليست من اليهود ذوي النظرة الدينية التقليدية . فالصهيونية حركة تبعد عن الروح الدينية يوماً بعد يوم . ذلك أنها تحل الأمة أو الطائفة محل الله ، وتعكف على عبادتهـا . والجو السائد في مستعمرات الصهيونيين ومدارسهم في فلسطين ليس فيه من الديانة اليهودية إلا عنصر التفرد والانعزال . وهم يحاولون أن يشتروا هذا بالادعاء أنهم إنمـا يعبدون الله بالعمل ، بدل الصلاة . ولكن ليس هذا الادعاء يقنع أحداً غير ضحايا النحل الوثنية الجديدة في أوروبا الحديثة . ولذا لا يحق لساسة الصهيونية اتخاذ الحجج الدينية لدعم قضيتهم .

(٣) إن النبوءات الواردة في العهد القديم من الـكتاب المقدس لا يؤمن

Digitized by Birzeit University Library

اليهود أنفسهم ولا البروتستانت الأساسيون إلا بمعناها المجازي . والمسلمون والكثرة الغالبة من المسيحيين، لا يأخذونها بنصها الحرفي ولا يعتبرونها صحيحة في كل حين. ومن ناحية خاصة ، يرى معظم المسيحيين أن بعض الوعود المقطوعة في العهد القديم قد عدِّل ، و بعضها الآخر قد أبطل ، من جراء رفض اليهود للمسيح . وثمة اتجاه للتفكير المسيحي مؤداه أن مهمة اليهود ورسالتهم في التاريخ قد أبطلت ، وأن الوعود المقطوعة لهم قد حُوِّلت ، ان صح هـذا التعبير ، إلى الذين قبـلوا المسيح وتبعوه . وثمة آخرون يعتقدون بأنه لا يزال لليهود دور يلعبونه في التاريخ ، إذ أنهم سيقبلون المسيح ويتبعونه ، ثم تصفو آخر الأمر وتصلح علاقتهم بالله ، ولكن رسالتهم ستظل الى ذلك الحين ، في أن يكونوا مشتتين ، وأن يحمـلوا بين جميع الأمم ، عبء « أعجوبة اسرائيل » على حد تعبير ماريتان .

(٤) أما الحجة القائلة أنه لا غنى عن فلسطين لتمام مراعاة تعليم الديانة اليهودية ، من العسير إدراك علاقتها بمطالبة الصهيونيين بالهجرة الواسعة وإقامة دولة يهودية . نعم إن التشابيه والأخيلة التي في الطقوس العبرية مصدرها مناظر فلسطين وحياتها ، وفلسطين قد صارت لليهود رمزاً للحلول الالهي . لكن هـل يقل أثر الصورة في الخيال ، أو يفقد الرمز معناه إذا لم يكن في فلسطين أحد من اليهود ؟ ترى هل الله في نظر اليهود رب العـالمين وكلي الوجود ، أم هو إله من آلهة الطبيعة يحل في مكان واحد ولا تجوز عبادته إلا فيه ؟ حتى لو سلمنا بتلك الحجة ، فان أقصى ما تثبته لا يتعدى الحاجة الى مركز روحي ، تمارس فيه تعاليم الديانة اليهودية دون عائق ، ويصل اليه الحجاج اليهود الى أماكنهم المقدسة بحرية والعرب لم يعارضوا في شيء من هذا في أي وقت من الأوقات .

Digitized by Birzeit University Library

(٥) ومن اليقين ان فلسطين لا تقل قداستها لدى المسلمين والمسيحيين عن قداستها لدى اليهود ، وأن فيها أماكن مقدسة يقدسها كل من المسلمين والمسيحيين . ولكن من العسير أن يدرك الانسان كيف يمكن أي مسلم أومسيحي القبول بالمطالب اليهودية التي تجعل أماكنهما المقدسة تحت اشراف اليهود .

٤ — التعهدات الدولية

طالما تمسكت العقلية القانونية اليهودية بالضمانات والتعهدات الدولية كشرط ضروري للوطن القومي اليهودي . فقد أورد هرتسل في كتابه « الدولة اليهوديه » ذكر الوطن المضمون بالتعهدات الدولية ، وتضمن برنامج مؤتمر بال المعقود سنة ١٨٩٧ ، المطالبة بانشاء وطن قومي ذي وضع دولي .

ولذلك تقوم احدى حجج الصهيونيين الرئيسية على أن استيطانهم فلسطين قد جرى وفاقاً للمواثيق الدولية الخطيرة ، وفي ظل حمايتها . وأول هذه المواثيق هو وعد بلفور الذي أصدرته الحكومة البريطانية واعترف به كبار حلفائها ، ثم الانتداب الذي وافقت عليه جميع الدول المنتمية الى عضوية عصبة الأمم ، ودولة الولايات المتحدة أيضاً . فأي عمل يحد من مدى استمرار هذا الاستيطان ، أو يجعل سلامة واستقرار ما تم منه في خطر ، يعتبر نقضاً لتعهدات ذات خطورة قصوى ، ونكصا من أمم العالم عن وعد التزمت به بشرفها .

إن من الصعب تقدير الوزن الذي ينبغي أن يقام لوعود قطعت قبل ثلاثين عاماً ، في ظروف تختلف اختلافاً كلياً عن الظروف الحالية ، ودون علم بحالة فلسطين الحقيقية . ومنذ صدور وعد بلفور وصوغ صك الانتداب ، تغيرت كافة

Digitized by Birzeit University Library

ظروف العرب واليهود والشرق الأوسط ، بل والعالم كله ، تغيراً تاماً ، فنشأت عوامل جديدة ، وانجلت حقيقة الوضع انجلاء لم يكن للعالم مفر من تبينه . حتى لم يعد في الامكان اعتبار أية وثيقة من الوثائق تلك المدة ، مهما بلغت من الخطورة، قانوناً ملزماً من شريعة مادي وفارس الـــتي يعتورها التغيير ، بل أصبح لزاماً تفسيرها من جديد واعادة النظر فيها على ضوء الظروف الحاضرة .

ولسائل أن يسأل أيضاً : بأي حق وهبت بريطانيـــا العظمى ، وحلفاؤها والدول المنضمة الى عضوية الأمم ، فلسطين ، دون علم سكانهـا الأصليين ودون التفكير في أخذ موافقتهم ؟ وقد يجاب على هذا بأن هنالك « حق الفتح » وأن بريطانيا العظمى فتحت فلسطين واستولت عليها من الأتراك في الحرب العـالمية الأولى ، ولا تزال في قبضتها بفعل قوة السلاح ، ولذلك كان لها الحق في أن تتصرف بها كما تشاء .

قد يوجد « حق الفتح » هذا الى حد ما ، ولكن الحرب العالمية الأولى ، شأنها شأن الحرب العالمية الثانية ، قد خيض غمارها بأسم مبادىء أخلاقية ، من حرية قومية ومساواة ، ومبدأ الرضى الديمقراطي ، ولذلك كانت أية ممارسة لحق الفتح ، إذا خالفت هذه المبادىء ، خروجاً على قانون أسمى من الأساس المبني عليه هذا الحق .

حتى لو وضعت هـذه النقاط جانباً ، ظل يتوجب التساؤل عن حقيقة النية المقصودة بتلك التعهدات الدولية الخطيرة ، وعمـــا إذا كانت لا تناقض عهوداً أخرى أعطيت للعرب ، تلك العهود الـتي تضارع تلك في الخطورة إن لم تزد عليها . ومن الجلي ، فيما يتعلق بالسؤال الأول أنه لم يرم وعد بلفور ، ولا صك

Digitized by Birzeit University Library

الانتداب ، إلى اقامة دولة يهودية تطغي على حقوق السكان الأصليين ، أو الى جعل فلسطين يهودية كما أن انكلترا انكليزية ، على حد تعبير الدكتور وايزمن الذي ظل منذ وضعه يدعى أنه لم يستعمله أبداً . وقد كان يستحيل حين قطعت التعهدات الدولية ، التنبؤ بقيام الحركة اللاسامية على مدى واسع في أوروبا أو ينمو روح القومية المتفردة المحاربة بين شباب اليهود . ولم يتوقع أحد ، وان كان يجدر أن يتوقع ، أن تبلغ مناوأة العرب للصهيونية ما بلغته من اتساع وشدة . ولا بأس بالقول أن الحكومات التي أصدرت وعد بلفور وصك الانتداب وأيدتهما ، قد عملت ذلك وهي تفترض أن العالم يسوده السلام والتسامح فلا حاجة الى أن يذهب من اليهود الى فلسطين إلا ما تدفعهم الرغبة والحاجة الحقيقية الى ذلك ، وأن الحركة الصهيونية لا تزال تسيطر عليها المثالية الروحانية والحرية التي بشر بها « أحاد هاعام » ، وأن الأمة العربية راضية قانعة ، قد نالت كل ما كانت تصبو اليه سوى هذه القضية ، ولذلك أصبحت مستعدة للوصول الى اتفاق ودي مع الصهيونيين .

ولا مراء في أن وعد بلفور وصك الانتداب قد بنيا على أساس من هذا التفكير . وهو التفكير الذي أقر التعريف لفكرة الوطن القومي اليهودي حسبما وضعه المستر تشرشل سنة ١٩٢٢ . ولكن من الصعب ، اذا اهتدينا بنور كل ما جرى منذ تلك السنة وما يجري الآن ، أن نتجنب النتيجة التي توصل اليها الكتاب الأبيض الصادر سنة ١٩٣٩ ، من أن بريطانيا العظمى قد عملت كل ما في وسعها للمساعدة على انشاء الوطن القومي لليهود حسب التعريف الذي وضعه المستر تشرتشل، وان على اليهود، اذا طلبوا المزيد، أن ينالوا موافقة العرب على ذلك.

Digitized by Birzeit University Library

أما فيما يتعلق بالسؤال الثانى ، فقد قطعت للعرب ، قبل وعد بلفور وبعده ، وعود خطيرة لا يمكن التوفيق بينها وبين هجرة يهودية واسعة تفرض رغم ارادتهم. والعرب ، كما سبق القول ، لم ينفكوا يعتقدون أن منطقة الاستقلال العربي التي وعد بها السير هنري مكماهون في مراسلاته مع الشريف حسين تشمل فلسطين ، حتى أن ممثلي بريطانيا في اللجنة الفرعية التي عهد اليها مؤتمر لندن سنة ١٩٣٩ ، معالجة هذه الوعود، لم يجدوا مفراً من الاعتراف بأن في مدعيات العرب من القوة أكثر مما سبق أن اعترف به . ووعد بلفور نفسه قد نص على أن لا يعمل شيء يجحف بما لسكان فلسطين غير اليهود ، من الحقوق المدنية والدينية .

وفي شهر كانون الثاني من عام ١٩١٨ اكد القومندان هوغارث ، بلسان الحكومة البريطانية ، للملك حسين ان الحكومة البريطانية انما عطفت على الأماني الصهيونية بالقدر الذي « تنسجم فيه مع حرية السكان الحاليين ، الاقتصادية والسياسية » .

وقد كشف التصريح الذي اعطي الى السبعة سنة ١٩١٨ ، اشياء منها ان الحكم في المناطق التي تحتلها قوى الحلفاء ينبغي ان يقام على مبدأ رضى المحكومين.

وقد حدد التصريح البريطاني الفرنسي الصادر في شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٨ ، هدف بريطانيا العظمى وفرنسا في الشرق الأدنى ، بانه « التحرير التام النهائي للشعوب التي اخضعها الاتراك زمناً طويلا ، واقامة حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها من السكان الأصليين لدى ممارستهم حرية الاختيار والابتكار » .

وتنص المادة الثانية والعشرون من ميثاق عصبة الأمم على ان بعض الشعوب التي كانت في السابق جزءاً من الامبراطورية العثمانية ، قد بلغت مرحلة من

Digitized by Birzeit University Library

التقدم يمكن عندها الاعتراف بها امماً مستقلة، بشرط ان تنـال الارشاد والمعونة الادارية من دولة منتدبة ، وانه ينبغي ان تعتبر رغبات هذه الشعوب اساساً لاختيار تلك الدولة المنتدبة. واخيراً اكد الكتاب الأبيض الصادر في سنة ١٩٢٢، ان الحكومة البريطانية لم ترم، في اي وقت من الاوقات ، الى زوال او اخضاع السكان العرب او لغتهم او ثقافتهم في فلسطين .

ان العرب لا يرون ان في الامكان التوفيق بين هذه البيانات والسياسة التي اتبعت طيلة الخمس والعشرين سنة الماضية ، بقصد فرض وطن قومي لليهود عليهم.

٥ — بيان الحجة المتصلة بالاجئين

هذه هي الحجة التي يحتج بها الصهيونيون الآن، في اشد ما يكون من الالحاح، نظراً لشدة التأثير الذي يحتمل ان يكون لهـا في الذين اشمأزوا ، وحق لهم ان يشمئزوا ، مما قاساه اليهود من الحكم الهتلري . ويمكن عرض هذه الحجة عرضاً وافياً فيما يلي :—

« ان في اوروبا عدة عدة مئات الآلاف من اليهود لا يستطيعون البقاء فيها ، لانهم يضطهدون الآن، او لانهم قد يضطهدون في اية لحظة، او لانهم لا يطيقون احتمال العيش فيها بعد الذي قاسوه في الاثنتي عشرة سنة الاخيرة، او لان الاساس الاقتصادي لحياتهم قد انهار . وبعض هذه الاعتبارات ، على الاقل ، ينطبق على عدد من اليهود في العالم العربي ، وهو عدد كبير في ذاته وان تضاءل أمام عدد من قاسى منهم في أوروبا . ولا تنطبق هذه الاعتبارات على اليهود في أميركا أو الامبراطورية البريطانية ، الآن ، ولكنها قد تنطبق عليهم في الأيام المقبلة .

Digitized by Birzeit University Library

« لا بد لهؤلاء اليهود من أن يجدوا ملجأ في مكان ما ، ولا بد من أن يكون ملجأ واحداً ، لا عدداً من المناطق المبعثرة ، لأن توزيعهم في مناطق عدة لا يحل المشكلة ، ولا يعدو أن يحدث تغييراً ضئيلا في مكان التشتيت ، وينقل اللاسامية الى مناطق جديدة . وفلسطين صالحة لأن تكون هذا الملجأ ، فلها موارد اقتصادية كبيرة ، وهي قليلة السكان ، ويعوزها التحسين ، وفيها على العموم ممكنات الاستيطان الدائم الثابت على مقياس واسع . وفيها اجتمع عدد كبير من اليهود وحسن تنظيمهم ، فلا يذهب اليها اللاجئون كغرباء غير مرغوب فيهم، بل يجدون أبناء شعبهم ينتظرونهم ويرحبون بهم ، ويقدمون لهم المعونة .

« ليس في العالم كله بقعة لها كافة هذه الميزات من الممكنات الاقتصادية ، وقلة في السكان ووجود طائفة يهودية كبيرة . حتى لو توفرت هذه الميزات في بقعة أخرى ، ظلت لفلسطين ميزة أخرى . فمعظم اللاجئين يريدون الذهاب اليها . وبوجه عام ، لا شيء ، غير فكرة عودة اليهود الى فلسطين ، يستطيع ان يثير في صدور اليهودية العالمية من الحماسة ما يكفي لتحقيق الجهد المالي والمعنوي الكبيرين اللازمين لاستيطان اللاجئين على وجه مرض .

« واذا قدر لفلسطين أن تكون ملجأ ملائماً ، فينبغي أن يكون اليهود فيها آمنين مستقرين ، وأن لا ينشأ فيها خطر اللاسامية . وهذا لا يتيسر إلا إذا عاشوا في ضمانة وحماية دولية ما داموا أقلية ، فاذا تمكنوا من أن يصبحوا في أقرب وقت ممكن ، من الكثرة والقوة على جانب يمكنهم من تقرير مصيرهم السياسي ، تولوا حكم أنفسهم والدفاع عن أنفسهم . »

Digitized by Birzeit University Library

٦ — مناقشة الحجة المتصدة بالمهاجرين

يوجه النقد الى هـذه الحجة من جانب الأمر الواقع ومن حيث المبدأ . فمن حيث الواقع ، ترتكز هذه الحجة على بعض مزاعم مشكوك في دقتها . ويمكن ايجاز هذه بالقول :

(١) ان مشكلة اللاسامية لا يمكن حلها إلا بخروج جميع اليهود من أوروبا

(٢) ان جميع اليهود الذين يريدون مغادرة أوروبا أو عليهم أن يغادروها يريدون المجيء الى فلسطين

(٣) ان فلسطين تستطيع قبولهم جميعاً

(٤) انه ليس من مكان غير فلسطين يستطيعون الهجرة اليه

(١) وليس ضروريا مناقشة التأكيد الأول طويلا لأنه قد سبق للجنة بحث هذه المشكلة في مكانهـا بحثاً مفصلا . ولـكن يجوز أن يعرض هنا سؤال مفاده : هل من الحق قطع حبل الرجاء من أوروبا على هذه الصورة ، أو بالادعاء بأن اللاسامية العنيفة مستوطنة فيها استيطاناً لا يمكن معه لليهود أن يحيوا فيها حياة راضية ؟ ليس في الأوروبيين ميل طبيعي الى كره اليهود ، وانما قد جاء هذا الكره نتيجة لأسباب معينة يمكن السيطرة عليها حين لا تمكن ازالتها . ومنشأ هذا الكره عدة أسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية ، قـد تزول جميعها مع الوقت . وثمة سبب آخر أعمق مما تقدم لن يزول بمثل هـذه السهولة ، هو فشل اليهود في استكمال التمازج والانسجام مع الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها ، واستمرار اختلافهم عن سواهم . ولكن ليس من الضروري لهذا الاختلاف ، حتى لو استمر ،

Digitized by Birzeit University Library

أن يولد الكره والاضطهاد ، إذ يمكن التخفيف من غلوائه بتبادل الاحترام والتسامح ، وبذلك ينشأ تجاذب يكشف النقاب عن أفضل السجايا في كلا الفريقين.

وانما تنشأ اللاسامية وتشتد حين يجتمع الى هـذه العوامل كلها عامل آخر ، هو ضيق الصدر في نظام سياسي اجتماعي متعب مكدود ، لا بد له من منفـذ يتنفس منه زفيراً عنيفاً لافحاً . ولكن هـذا أيضاً ليس بالأمر المحتوم . وليس ثمة مسوغ لانقطاع الرجاء من امكان خلق نظام سياسي اجتماعي مقبول في أوروبا الشرقية والوسطى . وهذا يعتمد ، الى حد كبير ، على بريطانيا والولايات المتحدة . فهما قادرتان ، اذا شاءتا ، على استخـدام نفوذهما المعنوي والمادي الكبيرين ، في بعض جهات أوروبا ، للحيلولة دون ظهور الكره العنصري العنيف. ويعتمد الى حد كبير أيضاً ، على نفوذ الحـكومة السوفيتية الروسية ، التي حلت المشكلة اليهودية في بلادها ، كما يبدو ، على أسس المساواة في الفرص المتـاحة لجميع المواطنين ، وتعاون الجميع في الواجبات الانشائية العامة .

(٢) ومما لا شك فيه أن اليهود الذين أصبحوا لا يستطيعون العيش في أوروبا يكونون مستعدين للذهاب الى فلسطين اذا أقفلت جميع الأبواب الأخرى في وجوههم . وأنهم ، إذا أصبحوا في فلسطين فالأكثرية الغالبة منهم مستعدة للبقاء فيها بقوة الاستمرار أو لأسباب أخرى ، ولن تبدل جهداً للذهاب الى مكان آخر . (وان كان حتى هذا لا ينطبق في كافة الأحوال ، فليس ثمة ما يشير الى أن جميع اليهود الموجودين الآن في فلسطين يبقون فيها إذا أتيحت لهم الفرصة للذهاب الى مكان آخر) . وقـد يصح أيضاً أن يقال أن نسبة كبيرة من اليهود الأوروبيين يتوقون الآن الى المجيء الى فلسطين يدفعهم الى ذلك ما تواجههم به

Digitized by Birzeit University Library

الدعاية الصهيونية من صور لحياة البهجة الموهومة في فلسطين ، والبون الشاسع بينها وبين الوضع البائس الذي هم فيه . ولكنه قد يشك في تفضيل أكثرية يهود أوروبا فلسطين على جميع أقطار أوروبا ، لو ووجهوا بصورة صحيحة للحالة فيها أو أعطوا حرية الاختيار ، ولم يتأثروا بدعاية أو ضغط . ويبدو لأول وهلة أن نسبة كبيرة منهم، إن لم يكن أكثرهم، تفضل الولايات المتحدة أو كندا أو أستراليا أو جنوب افريقيا أو أمريكا الجنوبية أو بريطانيا العظمى ، حيث تجد فرصاً اقتصادية أكبر ، وطمأنينة مماثلة إن لم تكن أكثر ، ومقداراً أوفى من رفاهية العيش ، وعدداً كبيراً من اليهود المستوطنين ينزلونهم بين ظهرانيهم ويزيلون عنهم الشعور بالغربة .

(٣) أما الامكانيات الاقتصادية بفلسطين فسنناقشها فيما بعد ، حين نشير الى أنه لا يمكن استيعاب أية هجرة إضافية إلا بانفاق رؤوس أموال كبيرة ، والحاق ضرر بليغ بمصالح السكان الحاليين . وليس من حاجة الى استباق الحجة هنا ، بل يكفي لمقارعتها الآن أن نشير الى أن على الصهيونيين ، ما داموا يبنون قضيتهم على أساس الحاجة الى ايواء اللاجئين ، أن يثبتوا أن فلسطين تستطيع استيعابهم بنفقات أقل وأرباح أكثر مما يحدث في أي قطر من الاقطار الاخرى المقترحة لايوائهم وهذا ما لا يستطيعون اثباته . فهنالك نحو اثني عشر قطراً يمكن استيطان اللاجئين اليهود فيها بنفقات رأسمالية أقل واحتمالات للنجاح والرخاء أقوى مما في فلسطين . هذا اذا قصرنا النظر على الاعتبارات الاقتصادية البحتة ، ولم نعترف بوجود مشكلة سرعة ازدياد السكان الاصليين في فلسطين وهم الزراعيون في الغالب ، أو بقلة أراضيهم، ولا بأن هذه المشكلة قد أصبحت حادة . ومهما كانت

Digitized by Birzeit University Library

امكانيات فلسطين الاقتصادية ، فليست من السعة في الغنى ، أو الحاجة الى التحسين ، أو النقص في السكان ، على ما يتصوره الصهيونيين ، في حين تتوفر هذه الصفات حقيقة في مساحات واسعة من الاميركتين وأستراليا وجنوب افريقيا .

(٤) لاتقوم عقبات طبيعية أو اقتصادية في سبيل هجرة اليهود الى أمريكا الشمالية أو الجنوبية أو أستراليا أو جنوب افريقيا أو كثير من المناطق الاخرى في العالم . ذلك أن الطاقة الاقتصادية في أي من هذه البلدان ليست على العموم دون طاقة فلسطين ، والصعوبات الفنية التي تعترض نقل اليهود اليها واستيطانهم فيها لا تزيد على صعوبات نقلهم الى فلسطين واستيطانهم فيها ، كما أن الهجرة اليهودية اليها لا تثير من مناوأة السكان الاصليين فيها أكثر مما أثارته الهجرة الى فلسطين ، ولن يجد اليهود فيها صعوبة في التكيف تبعاً لاحوالها ، وبناء حياة جديدة لهم فيها ، أكثر من الصعوبة هنا ، وكذلك الترحيب الذي يلقونه من اليهود المستقرين هناك لن يقل حرارة عما يلاقونه هنا . والمانع الوحيد لذهابهم الى تلك البلدان هو أن حكوماتها تفرض القيود على الهجرة اليها ان لم تمنعها بالمرة . وفي الامكان ازالة هذه القيود دون عناء أو سوء عاقبة ، اذا رغبت الحكومات المختصة في ذلك .

وهكذا يتبين التمويه في الرأي القائل « ان اليهود المساكين ليس أمامهم مكان يذهبون اليه ، فينبغي أن تعطى اليهم فلسطين » . وذلك حين يناقش مناقشة دقيقة ، وتطرح الميول العاطفية جانباً . ولا بد للمراقب النزيه من أن يرى بعض النفاق في الحكومات التي تقفل في وجوه اللاجئين أبواب بلادها ، كل الإقفال أو بعضه ، ثم تقترح ، مدفوعة بالعطف الشديد على اللاجئين ، أن يرغم العرب على قبولهم .

Digitized by Birzeit University Library

وثمة اعتراض على الحجة المتصلة باللاجئين أرسخ قدماً مما سبق ، وهو اعتراض يقوم على المبدأ الاعلى للحقيقة الواقعة . بأي حق يحاول العالم أن يلقي على كاهل العرب عبء حل مشكلة اللاجئين اليهود كاملا ؟ فالعرب غير مسؤولين عن خلق هذه المشكلة ، لا في الماضي ولا الآن . واذا كان عليهم أي قدر من المسؤولية في حلها ، فما ذلك لانهم أوجدوها ، بل لانهم أعضاء في المجموعة العالمية ، ولذلك عليهم المساهمة في حل المشاكل العالمية . وفي الحقيقة أنهم على تمام الاستعداد للمساهمة في حل مشكلة اللاجئين ، لكن ضمن المدى والشروط التي يساهم بموجبها الاعضاء الآخرون في المجموعة العالمية . والمعنى المقصود بكلمة « المدى » هو أن تكون البلاد العربية مستعدة لقبول عدد كبير من اللاجئين اليهود وغيرهم على أن تكون نسبته الى مجموع سكانها مثل نسبة عدد اللاجئين الى الأقطار الأخرى لمجموع عدد سكان تلك الأقطار .

أما معنى كلمة « الشروط » فينطوي على أمرين :

(١) أنهم يقبلون اللاجئين على اعتبارهم أفراداً ، ويعطونهم كامل حقوقهم كمواطنين ، على شرط أن يقوموا بواجباتهم كمواطنين أيضاً ، ولكنهم لا يقبلونهم أكثر مما تقبلهم بريطانيا العظمى أو الولايات المتحدة ، كجماعات منظمة لا تعترف بالولاء للبلاد التي تأتي اليها ، وترفض الانصهار في بوتقتها وتصرح بأن لها مقاصد سياسية خاصة بها .

(٢) أنهم لا يقبلون أي قرار بهذا الشأن إلا اذا كان صادراً عن منظمة الأمم المتحدة التي يكون لهم فيها تمثيل كاف ، وتتاح لهم الفرصة للمساهمة الوافية في مداولاتها .

Digitized by Birzeit University Library

فاذا طبقت هذه المبادىء على الظروف الخاصة بفلسطين ، تبين ان فلسطين قد ساهمت في قبول اللاجئين بأكثر من نصيب عادل ، وأن الانصاف لا يسمح بمطالبتها بقبول آخرين منهم ، وان الفلسطينيين لا يستطيعون على أي حال ، حتى أن يبحثوا في هذا الامر بحثاً مجدياً ما داموا غير منتمين الى عضوية منظمة الامم المتحده .

٧ — عرض الحجة السيكولوجية (النفسية)

ان الحجة التي نعتها هنا بكلمة (السيكولوجية) اعقـد واعمق الحجج التي يتخذها ساسة الصهيونية ، وهي جديرة باوفى قدر من المناقشة . ولعل اوفى عرض لها ما يلي :—

« ان اليهود في بلاد التشتيت شعب ذو صفات خاصة ، وميزات غير عادية . ويستحيل عليهم ان ينـدمجوا اندماجاً كلياً في اية امة من الامم التي يعيشون بين ظهرانيها ، ولذلك كان وضعهم وضعاً غريباً غامضاً يعتبرون فيه وسطاً بـين الغرباء والمواطنين . وهذا منشأ الشعور بانهم (دخلاء) . والشعور بالمهانة وفقدان الطمأنينة الروحية ، الذي لا ينفك يزعج معظم اليهود ويورثهم آلاماً مبرحة . وهو ايضاً منشأ النظام الاجتماعي الشاذ الذي تعيش الطائفة اليهودية في ظله . فهي منطوية على نفسها ، وعمادها في المعيشة جد قليل من الحرف والمهن في المدن ، حصرها في نطاقها ضغط قسري من الخارج وآخر من الداخل . وهو كذلك سبب كبت وتشويه العبقرية اليهودية التي لا تستطيع (إلا فيما ندر) ان تعطي خير اكلها في عالم تشعر فيه ببعض الغربة . ولهذا كله استحال على الشعب اليهودي اداء رسالته في العالم ، ما دام لا تربطه بالشعوب الاخرى صلات معنوية روحية .

Digitized by Birzeit University Library

وهنا ، اخيراً ، منشأ اللاسامية ، إذ ان اليهود يختلفون عن غيرهم ، والاختلاف مكروه ابداً .

« وليس ثمة مهرب من هذه الحالة في بلاد التشتيت . فقد ينجح بعض الافراد من اليهود في الاندماج بالامم التي يعيشون بينها ، وان كان هذا لا يتم إلا بتخليهم عن تقاليدهم اليهودية وولائهم اليهودي . ولكن إذا حاولت هذا الاندماج جماعة كاملة من اليهود ، تحتم نشوء اللاسامية واشتداد وطأتها . وفي الحقيقة ان من الصفات التي تميز حالة اليهود ان محاولتهم الاندماج ورفضهم الاندماج ، كليهما منشأ لحركة اللاسامية . زد على ذلك انه حتى لو امكن هذا الاندماج بالجملة ، لما كان امراً مرغوباً فيه ، لانه يعني محو اليهود كشعب وانكار ان لديهم ، كشعب ، اي شيء يقدمونه الى العالم .

« ولهذه الحالة الغريبة سبب بسيط ، هو ان اليهود بلا وطن . فليس لهم بلاد يتمتعون بحيازتها حيازة تامة ، ولا مكان يستطيعون ان يعيشوا فيه حياة اجتماعية واقتصادية عادية ، او ينشئوا فيه مؤسسات سياسية وقومية يحققون فيها مثلهم في الحياة ، ويكون لهم فيه تفكيرهم الخاص ، ويكونون ذوي شخصية واحدة لا مزدوجة ، ويكونون مرتاحين ارتياحاً لا تشوبه شائبة .

« ولتحقيق هذا الارتياح ، تحقيقاً تتوفر فيه الفرص الوافية للتقدم والابداع ، ينبغي ان يكون لليهود وطن يقيمون فيه لحق لا كمنة ، ويحيون فيه ، افراداً وجماعة ، حياة طبيعية . ولا بد لتحقيق فكرة هذا الوطن ، من ان تتمكن من اتخاذ الأشكال السياسية الطبيعية ، مما لا يقل عن تمكنها في نواح اخرى ، ولا بد لتحقيق الطمأنينة فيه من القدرة على تقرير مصيره السياسي والدفاع عن

Digitized by Birzeit University Library

نفسه . ولذلك ينبغي ان يكون هذا الوطن القومى دولة يهودية . وليس من سبيل امام اليهود يؤدي بهم الى ان يكونوا امة كباقي الأمم والى اداء رسالتهم الثقافية والروحية ، سوى ان يكون لهم دولة . حتى اذا لم يصيروا اناساً كباقي الناس كانوا على الأقل في مأمن من الشرور الناجمة عن اختلافهم عنهم .

« ولا يمكن انشاء دولة كهذة إلا في فلسطين . فقـد ظلت هذه البلاد قروناً طويلة هدفاً ترنوا اليه انظار اليهود جميعاً و يتعلق به خيالهم ، حتى اصبحوا ، حين يذكرون الحياة الطبيعية يعنون بها الحياة في فلسطين ، وكأن هذه تعريف لتلك . ولا شيء غير الحياة في فلسطين ، يثير من حماسة اليهود ما يكفي لعضدهم في اداء المهمة الشاقة التي ينطوي عليها انشاء وحدة قومية جديدة . ثم ان العمل لذلك الغرض قد بدأ في فلسطين . حتى لو كان في الامكان ، مبـدئياً ان يكون البدء في بلاد اخرى ، فان التخلي عن الأسس التي وضعها في فلسطين امر لا يجـوز التفكير فيه . »

٨ — مناقشة الحجة السيكولوجية

تستند هذه الحجة على دعامة من المنطق ، او هكذا يبدو . ولكن كثيراً من الحلقات التي تتسلسل فيها يعوزها التمحيص ، فهي تفترض ، اول ما تفترض ، ان اليهود ، وان كانوا مبعثرين في جميع البلدان ، ومساهمين في ثقافات عـدة ، يؤلفون امة على وجه من الوجوه ، وقد سبق ان نوقش هذا الفرض ، ولا حاجة الى البحث فيه هنا ثانية ، ولكن ثمة افتراضاً آخر لا يقل عن هـذا حاجة الى التمحيص، هو ان حالة اليهود البائسة يعزى معظمها ، ان لم يكن كلها الى كونهم بلا

Digitized by Birzeit University Library

وطن. وهذا كمن يفسر الماء بعد الجهد بالماء. فثمة مجموعات اخرى من الناس ليس لها مكان تكون فيه أكثرية ويعتبر مركزاً لها، ومع ذلك تنشأ لها خصائص اليهود وصفاتهم الفارقة، ولم يضطهدوا كما اضطهد اليهود. ذلك انما يقاسيه اليهود ليس منشؤه الوحيد كون اليهود بلا وطن، بل ثمة عوامل اخرى اولها الاضطراب الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في جميع انحاء اوروبا الوسطى والشرقية. وثانيها التوتر الذي اصاب العقل اليهودي من جراء جهدهم المبذول في سبيل اندماجهم بغيرهم والنجاح الجزئي الذي لاقوه في ذلك السبيل. وثالثها واهمها شعورهم بأنهم لا يزالون يؤدون رسالتهم. وهذا الشعور قد يتغير شكله، ولكنه لا يزول حتى من اليهود الذين بلغوا من الاندماج اقصى الحدود. وهو ينعكس في عقول الناس الذين يعيش اليهود بين ظهرانيهم فيشعرهم بأن لليهود سراً من الأسرار، ويمد بينهم حبل الصداقة، او يوقد نار العداوة. وقد يزول العاملان الأولان من هذه العوامل الثلاثة على مرور الزمن، ويزول بزوالهما النفور والاضطهاد. ولكن العامل الثالث يبقى، ومن الأهمية تأكيده بسبب بقائه، وعملا على الايضاح ان المشكلة ليست مجرد مشكلة اقتصادية او سياسية فحسب. فهنالك، كما اوضح مارينان، «أعجوبة اسرائيل» وهي منشأ احزان اليهود، وان كانت هذه الأحزان تتشكل بين وقت وآخر، باشكال تختلف تبعاً للاحوال الاجتماعية والاقتصادية السائدة في ذلك الحين.

ولقائل ان يقول «لو سلمنا جدلا بمسألة «أعجوبة اسرائيل» هذه فان التغيير الكبير الذي تحدثه اعادة استقرار اليهود في فلسطين في وضعهم السياسي والاقتصادي سيكون له أثر نافع في الحيلولة دون تشويه تفكيرهم بالشعور بأن لهم رسالة، ودون

Digitized by Birzeit University Library

النتائج السيئة التي تترتب على خصائصهم وصفاتهم الفارقة . واذا كانت لهم بلادهم الخاصة بهم ، فلا اقل من ان يأمنوا شر الكراهية والاضطهاد . ولكن هذه التأكيدات موضع للشك . فاليهود الذين يأتون الى فلسطين ، يدخلون عالماً غريباً عنهم معادياً لهم ، عالماً لا يؤيدهم ويتبرم بالطريقة التي يأتون بها ، وهم لا يأتون عملا من شأنه كسب وده . ويجلبون معهم روح الخوف والارتياب التي علمتهم اياها التجربة القاسية في اوروبا ، ويجيئون بشعور عدم الاطمئنان في دنيا من الأعداء ، فأي امل لهم في احراز السلام والاطمئنان في هذه الظروف ؟

ثم ان من المشكوك فيه شكاً كبيراً ان اليهود سيخلصون من الشعور بان لهم رسالة ، وهو الميزة التي تنشأ عنها جميع صفاتهم الفارقة ، مهما حدث من التغير في احوالهم الاجتماعية والاقتصادية ، فالظاهر ان ترجح كفة الاحتمال بأن تقوى الدولة اليهودية ايمانهم بهذه الرسالة ، وان تبقى رسالتهم ، ولكن في شكل حقير خطر ، حين لا تعود شعوراً برسالة دينية ولا شعوراً برسالة ثقافية (كما هي حال الكثيرين من اليهود غير المتدينين في اوروبا) بل تتخذ قالباً سياسياً اجتماعياً فقط .

وثمة شك آخر خطير تثيره هذه الحجة . أليست نوعاً من انواع الرد عن الدين؟ فاما ان يكون لليهود رسالة يؤدونها للعالم، واما ان لا يكون لهم رسالة. فاذا لم يكن لديهم رسالة ، فالأفضل ان يندمجوا في غيرهم ، وسيتمكنون من هذا الاندماج في الوقت الملائم . اما اذا كانت لهم رسالة ، وطالما اعتقدوا بذلك ، فان المحك الأخير لأي حل يقترح للمشكلة اليهودية ينبغي ان يكون المعونة التي يقدمها لهم هذا الحل في سبيل اداء رسالتهم في العالم ، لا جلب السعادة والطمأنينة والحياة العادية لهم . وقد يطول بنا الوقت اذا بحثنا في موضوع وجود رسالة يهودية ، وماهيتها ،

Digitized by Birzeit University Library

والشروط اللازمة لادائها ، ولكنه يبدو لازماً لادائها على الوجه اللائق ان يكون لهم مركز وتشتيت ، فالمركز ضروري لحياتهم الروحية والعقلية حيث تحفظ وتزداد ثروتهم من التقاليد والمعرفة ، والتشتيت حتى يكون منهم شهود على كل الأمم . وبعبارة اخرى ، ينبغي ان يكون للطائفة اليهودية دائماً تكوين وشكل يعينها الدور الخاص الذي تلعبه في العالم بمميزاتها عن باقي الناس .

وهذا ما ينكره ساسة الصهيونية . وهدفهم الصريح ان يصبح بنو اسرائيل مثل سائر الأمم . وان يقضى في شانهم بالمقاييس الاعتيادية التي يقضي بها بشأن جميع الأمم ، وان لا يساهموا في مدنية العالم الا بذات الطريقة التي تساهم بها الأمم الأخرى . وهم يعتبرون ان الدور الذي نصت النبوءات على ان سيلعبه بنو اسرائيل قد انتهى ، وان المحاولة الرامية الى ان يكون الشعب ديانة قد حبطت ، ولذلك وجب على اليهود المحاولة لأن يصبحوا كالبلغار او الساميين . أليس هذا مخالفاً لأسمى اماني اسرائيل ؟

ثم هناك اعتراض فرعي على هذه الحجة ، ولكنه ذو وزن حتى لو سلمنا بصحة مفترضات الصهيونيين ، وبان اليهود سيتمتعون ، في دولة يهودية تقام في فلسطين ، بالطمأنينة والسعادة والحياة الاعتيادية ، لبقي من الضروري النظر فيما اذا كان ايجاد دولة يهودية يساعد على توفير الطمأنينة والسعادة والحياة العادية لليهود خارج فلسطين ، بل انه ليحتمل ان يظل اكثرية الشعب اليهودي دائماً خارج فلسطين مهما بلغت الدولة اليهودية فيها من الازدهار وحسن التنظيم .

ويصر الصهيونيين بهذا الصدد على ان انشاء دولة يهودية لا تقل ضرورته لليهود الذين يبقون خارج فلسطين عنها لليهود الراغبين في المجيء اليها . فانها

Digitized by Birzeit University Library

ستشعرهم بالتماسك والاعتزاز بالجماعة ، وهذا ما لا يشعرون به الآن ، كما انها تبسط عليهم حمايتها اذا حاق بهم خطر الاضطهاد ، وتمكنهم من اسماع اصواتهم للعالم حين تجري المناقشات . وقليل من التفكير يكفي لاظهار انه قد يحدث نقيض هذا تماماً .

فوجود دولة يهودية ، وانماء الثقافة العبرية ، من شأنهما تعقيد المشكلة السيكولوجية لليهود في التشتيت ، إذ بذلك يزداد شعورهم بالشخصية الثنائية ، بأنهم جوالون بين عالمين . ويصبح اصعب عليهم ان يقدموا ولاءهم التام للبلاد التي يقيمون فيها او ان يندمجوا فيها اذا شاءوا . ثم ان وجود دولة يهودية لا يحميهم من الاضطهاد ، بل يزيد في اضطهادهم ويبرره . فيتحد مضطهدوهم من وجود الدولة اليهودية حجة يثبثون بها ان اليهود غير موالين ولا يمكن وضع الثقة فيهم ، او يقولون « ان لليهود على كل حال ، بلادهم الخاصة فليذهبوا اليها » فهل تستطيع الدولة اليهودية حمايتهم في ايام الاضطهاد؟ ثم انه لا يمكن لدولة آسيوية من الدرجة الثالثة ان تأمل في ان يكون لها وزن كبير في المباحثات الدولية ، ولن يكون لأكبر عمل دبلوماسي تقوم به اي أثر كبير . ولن تتمكن ايضاً من تقديم مأوى لليهود المضطهدين الا بحرب تهدف للتوسع تشنها على جيرانها العرب .

٩ — عرض الحجة المتعلقة بالموقع الحربي

« يتطلب سلام العالم ومصالح بريطانيا العظمى واميركا ان يكون في الشرق الأوسط مركز ذو موقع حربي ، يسوده الاستقرار الداخلي ، ويكون فيه الاستعداد للتعاون التام مع منظمة الأمم المتحدة ومع بريطانيا العظمى واميركا ، كما يكون

Digitized by Birzeit University Library

له من الموارد الصناعية والامكانيات الفنية ما تتطلبه ظروف الحروب الحديثة . وليس بين البلاد العربية قطر يستطيع تقديم هذا المركز .

« فالدول العربية لا تعتمع بالاستقرار السياسي او الاجتماعي وليس مزاجها مستقراً . ولا يمكن الاعتماد على صداقتها ومعاضدتها وقت الحاجة . ثم انها متأخرة من الناحيتين الفنية والصناعية ، ويحتمل ان تظل كذلك زمناً طويلا . ولكن دولة يهودية في فلسطين تستطيع تقديم هذا المركز . فقد برهن اليهود في الجيلين الماضيين على الاستقرار والائتلاف في بعث وطنهم القومي في فلسطين وتعاونهم مع منظمة الأمم المتحدة والحكومتين البريطانية والأميركية يأتي بطيبة خاطر ، ومجيئه امر محقق . وسيستند الى شعورهم بالامتنان للمعونة التي نالوها في انشاء وطنهم القومي ، كما يستند الى عطفهم على ما يحفز الأمم الأنكلوسكسونية من مثل الديمقراطية والرفاهية الاجتماعية والى عطفهم على مثل السلام العليا ، والى مصالحهم الظاهرة للعيان . فهم يبنون في فلسطين مركزاً عصرياً للصناعة والعلوم ، ليس في الشرق الأوسط مركزاً يثير الارتياح ، ولديهم موارد وافرة من المهارة والاختصاص اللذين تتطلبهما الحروب الحديثة ، وهم ، فوق ذلك ، في بلاد لها كافة المؤهلات الجغرافية اللازمة لجعلها المركز ذا الموقع الحربي الملائم في الشرق الأوسط.

« وقد اثبتت حوادث الحرب الأخيرة جميع هذه النقاط اثباتاً فيه الكفاية . اما العرب فانهم على الرغم من كل ما عملته بريطانيا العظمى لهم ، قد وقفوا جانباً ولم يتعاونوا تعاوناً فعليا مع الأمم المتحدة ، وفي بعض الحالات عطفوا على المحور عطفاً فعالا . هذا في حين ان اليهود ، على الرغم من الضربة التي اصابت آمالهم من الكتاب الأبيض الصادر سنة ١٩٣٩ ، قد ساعدوا الامم المتحدة في مجهودها

Digitized by Birzeit University Library

الحربي مساعدة فعالة ، كمتطوعين في قواها المسلحة ، وبالتعبئة الصناعية ايضاً . وكانوا ، حتى النهاية العنصر الوحيد الذي استطاعت الامم المتحدة الاعتماد عليه في الشرق الاوسط . ثم ان سير الحملات الحربية في الشرق الاوسط قد اظهر لبريطانيا العظمى والولايات المتحدة ، ما للتمسك بفلسطين من اهمية فائقة ، ولا سبيل لتحقيق ذلك سوى مصادقة العنصر التقدمي المستقر من سكان البلاد ، والتعاون معه » .

١٠ — دحض الحجة الاستراتيجية

ترتكز الحجة الاستراتيجية على ما لا يقل عن اربعة فروض غير صحيحة ، وهي : —

(١) انه يمكن الدفاع عن الشرق الاوسط من قاعدة واحدة .

(٢) ان التحالف مع دولة يهودية في فلسطين ينسجم مع التحالف والصداقة مع الدول والشعوب العربية في اجزاء الشرق الاوسط الاخرى .

(٣) ان دولة يهودية تقام في فلسطين يكون فيها استقرار وتكون صديقة للدول الديمقراطية .

(٤) ان الدول العربية لا تستطيع ان تكون مستقرة او صديقة .

فالادعاء ان الاول والثاني من هذه الادعاءات يستندان الى رأي باطل في تكوين الشرق الاوسط من الناحية الاستراتيجية، فقد اظهرت الحرب الاخيرة ان الشرق الاوسط وحدة استراتيجية سياسية ، وان الدفاع عن اي جزء منه ينطوي على السيطرة على مواقعه الحربية جميعها، او على المواقع الرئيسية على الاقل.

Digitized by Birzeit University Library

ويحتمل أن لا تكفي حيازة قاعدة واحدة ، مهما كانت قوية ومهما حسن موقعها ، للدفاع عن الشرق الاوسط بكامله أو لحماية تلك القاعدة نفسها ، بل يحتمل أن تقضي الضرورة بحيازة سلسلة من القواعد المتصل بعضها ببعض ، والتمكن من استعمال خطوط المواصلات بينها بحرية . ولذلك لا يحتمل أن تكون حيازة قاعدة قوية في فلسطين كافية لحماية المصالح البريطانية والاميركية أو لحفظ السلام في العالم . بل قد يكون من الضروري تعزيزها بحيازة قواعد أخرى في أجزاء الشرق الأوسط وبالسيطرة على نظام المواصلات .

ففي الظروف الحاضرة لا يمكن تحقيق حيازة هذه القواعد والسيطرة على المواصلات إلا بايجاد علاقات ودية مع حكومات الشرق الأوسط وشعوبه . وهنا نناقش النقطة الثانية . فقد يقول قائل من الصهيونيين : « لو سلمنا أن فلسطين اليهودية لا تكفي وحدها للدفاع عن الشرق الأوسط ، لظلت على رغم ذلك عنصراً ضرورياً في نظام السيطرة العسكرية عليه ، حينما تعزز باقامة علاقات ودية مع مصر والعراق وغيرهما من بلاد الشرق الأوسط » . والجواب على هذا ، هو أنه لا تستطيع أية دولة أو مجموعة دول ساعدت في انشاء دولة يهودية في فلسطين أن تأمل في إقامة علاقات ودية مع أية دولة عربية . فان الشعور في البلاد العربية يتحد اتحاداً يزداد عمقاً وقوة يوماً بعد يوم ، وقد وجد الآن منفذه الأول في انشاء الجامعة العربية ، وان كان منفذاً شكلياً غير كاف ، وأصبحت البلاد العربية جميعها متفقة على ما لقضية فلسطين من أهمية كبرى كمحك لنوايا الغرب . ثم أنه لا يمكن ترك الفرض القائل أن دولة يهودية تقوم في فلسطين تكون العنصر الوحيد المستقر الودي في الشرق الأوسط ، يمر دون مناقشة . فمنذ

Digitized by Birzeit University Library

الآن تدل الدلائل على خطر اضطراب الحالة لدى اليهود في فلسطين . وأسباب هذا كثيرة ، منها أن بناءها الاقتصادي يعتمد على استمرار تدفق رؤوس الأموال الأجنبية ، ووجود طبقة وسطى مثقفة ، وحدة اختلافاتها السياسية ، والتوتر السيكولوجي الناجم عن العيش في عزلة ضمن عالم معاد وعدم الاستقرار الناجم عن موجات المهاجرين الجدد المتتابعة،وحاجة كل مهاجر جديد الى الاندماج في البيئة. وقد تقل أهمية بعض هذه العوامل لدى انشاء دولة يهودية ، ولكن تنشأ هنالك عوامل أخرى دون ريب . وهنا أيضاً ليس من سبب يحمل على التسليم بأن الدولة اليهودية تكون صديقة للدول الديمقراطية (اللهم إلا إذا كان الانسان على جانب من السذاجة يجعله يصدق أن الصداقة السياسية يمكن أن تبنى على أساس الاعتراف بجميل صنع في الماضي) .

ومن جهة أخرى ، لا يوجد سبب لاعتبار العالم العربي في جوهره غير مستقر أو غير ودي . فان فيه الآن بعض عوامل عدم الاستقرار وبعض عوامل الضعف الخطير . ولكن منشأ ذلك كله ليس جوهر الخلق العربي والطبيعة العربية بقدر ما هو راجع الى فترة التطور الاجتماعي والعقلي الحاد التي يجتازها بعبقريته،والى عدم فهمه لمرحلة التطور التي يسير فيها ، وهو لذلك لا يستطيع أن يأمل في أن تكون له مؤسسات سياسية مستقرة . ثم إن تطوره الاجتماعي والسياسي قد عاقه وشوهه إنه لم يترك وشأنه في تكوين مصيره السياسي، بل أخضع طيلة الثلاثين سنة الاخيرة لنظم أجنبية في السياسة والادارة ، وحمل على النضال لانقاذ وعيه الاجماعي وكرامته من الضياع في الغمرة . ولكن هذه المرحلة مرحلة قصيرة الاجل . ففي إمكان العالم العربي أن يتغلب على ضعفه الداخلي ويحقق الاستقرار الاجتماعي

Digitized by Birzeit University Library

والسياسي . ولكنه لا يستطيع ذلك إلا بمعونة الدول الغربية . وواجب هـذه الدول ، من الجانب السلبي ، أن تتجنب القيام بأي عمل من شأنه الاخلال باستقرار العالم العربي ، ومن الجانب الايجابي ، أن تعطيه الفرصة للانتفاع بمهارتها وحكمتها في الحياة الاجتماعية والسياسية .

وكذلك يمكن جعل البلاد العربية حلفاء أقوياء تعتمد عليهم الدول الديمقراطية ، ولكن هذا أيضاً يعتمد على السياسة التي تنهجها تلك الدول . فهي لا تستطيع أن تأمل في صداقة العرب ما دامت تعاضد الصهيونية . وهذا أمر جلي ، ولكن ثمة أمراً أقل منه وضوحاً ، وان كان صحيحاً كصحته ، هو أنه لو حلت مشكلة فلسطين وجميع المشاكل السياسية الاخرى المتعلقة حلا مرضياً ، لما كان هـذا كافياً لضمان صداقة العرب . فالصداقة السياسية لا يكفي أن تنال ، بل ينبغي أن تصان ، وهي لا تستقر على قاعدة من الامتنان لمعروف عمل في الماضي بل على شعور دائم بوجود مصلحة ايجابية . والوسيلة الوحيدة التي تجعل من الامة العربية صديقاً دائماً للدول الديمقراطية ، هي شعور هذه الأمة بأنها بحاجة الى معونة هذه الدول للقيام بمهمة بعث المجتمع العربي ، وأن تنال هذه المعونة .

١١ — العرب فعلوا الحرب

يمكن هنا الحيد قليلا عن الموضوع . ففي هذه اللحظة تكثر الدعاية الصهيونية من ذكر الأعمال الحسنة والسيئة التي قام بها العرب واليهود خلال الحرب. فتدعي أن اليهود،لا يهود فلسطين فحسب بل يهود العالم جميعاً، عملوا كل ما في استطاعتهم لمساعدة الأمم المتحدة ، ولم يقوموا بعمل يعرقل سبيلها ، في حين أن العرب،لا في

Digitized by Birzeit University Library

فلسطين وحدها بل في العالم بأسره ، قد عملوا الشيء الكثير لعرقلة مجهود الأمم المتحدة الحربي ولم يعملوا شيئاً ذا بال لمعونتها . وتحتج الصهيونية بأن هذا دين من المعروف لليهود ، وهو فوق ذلك برهان على أنه لا يمكن الاعتماد على العرب في الأحوال الطارئة ، في حين يمكن الاعتماد على اليهود . ومن الضروري لدحض هذه الادعاءات تفسير موقف العرب في أثناء الحرب .

لا يمكن انكار أن العرب ، بوجه عام ، لم يقفوا الى جانب الامم المتحدة في الحرب العالمية الثانية موقفاً فيه من الاخلاص والاندفاع ما كان في وقوفهم الى جانب الحلفاء في الحرب الأولى ولا بالقليل من موقف المواطنين العرب في الولايات العثمانية . ولكن لا بد من اضافة بعض التعديل الى هذا القول . فلا يصح تفسير تأخر العرب بميول منهم نحو الفاشستية ، ولا بنكران للجميل ولا بنقص في الولاء. والعبارتان الأخيرتان لا معنى لهما في هذا الصدد . وانما يصح تفسيره باسباب معينة . أولها أن انتصار الأمم المتحدة لم يعرض شيئاً ايجابياً عليهم ، وخاصة على من لا يزال تحت الحكم الأجنبي أو محروماً من الحكم الذاتي الوطني . وكل ما عرضه عليهم أمل سلبي في أن يكون الجور أقل مما ينتظر تحت السيطرة الألمانية . ولا ريب في أن هذا أمل كبير ، ولكن من ذا الذي يحارب بكل قلبه في سبيل شر أهون من شر آخر ؟ وثانيها أن ذكريات الحرب العالمية الأولى لا تزال أليمة. فقد صدق العرب وعود الحلفاء ، ثم وجدوا أنفسهم مخدوعين ، فلم يطيقوا أن يجازفوا ثانية بهذه التجربة المرة . وثالثها أن الحياة السياسية في جميع البلدان العربية تقريباً كان يسودها في السنوات الخمس والعشرين الماضية نضال في سبيل إقامة علاقات مرضية مع بريطانيا العظمى وفرنسا . ولذلك كان من

Digitized by Birzeit University Library

الطبيعي أن لا يقدموا على المجازفة بكل شيء من أجل قضية بريطانيا العظمى وفرنسا . وآخر هذه الأسباب ظلامتهم الكبيرة ضد الصهيونية التي اصطبغت بها الحياة السياسية العربية بكاملها في جيلنا الحاضر وأوشكت أن تكون الميزان الفاصل للعمل السياسي . وقد كان في ارتباط قضية الأمم المتحدة بالصهيونية وتداخلها معها ما يكفي لمنع العرب من التطلع الى انتصارها في حماسة واخلاص تامّين .

ثم ان العرب ، على الرغم من تحفظاتهم الداخلية ، لم يقوموا بعمل يعرقل سير قضية الأمم المتحدة . فلم تجرِ في العالم العربي أعمال تخريب كبيرة ولم يستغل العرب الصعوبات التي قامت أمام بريطانيا العظمى حينما حلت بها أزمة حملات افريقيا الشمالية لمساومتها أو احراج موقفها، مع أنه كان يسهل عليها هذا الاستغلال. وقامت هدنة استمرت طيلة الحرب، بشأن جميع المسائل المعلقة بين العرب وبريطانيا العظمى ، ومن بينها مسألة فلسطين الحساسة الملحة . حتى أن الثورة العربية التي بدأت منذ سنة ١٩٣٦ انتهت حين نشوب الحرب ، وظل العرب خلالها هادئين تمام الهدوء قولا وفعلا . ومن بين هذه المسائل أيضاً مسألة سوريا ولبنان، اللذين لبيا طلب السلطات البريطانية ، فظلا هادئين على الرغم من استفزاز الديغوليين لهم استفزازاً شديداً ، وعلى الرغم من الريب البالغة الخطورة بشأن ما تخبؤه لهم الأيام حين تنتهي الحرب وينسحب الجيش البريطاني .

وبديهي أن يستثنى من هذا الانقلاب الذي وقع في العراق سنة ١٩٤١ ، يوم استولى رشيد عالي على الحكم . ولكن هذا الحادث الوحيد لا يمكن اعتباره مثالا لموقف العربي بكامله ، فقد جاء نتيجة لمجموعة عوامل محلية عارضة لا يقع

Digitized by Birzeit University Library

اللوم فيها كلها على العرب . ثم ان من المشكوك فيه أن يكون هذا الانقلاب قد حدث بالمرة ، أو على الأقل أن يكون قد اتخذ الشكل الذي اتخـذه ، أو بلغ من الأهمية ما بلغ ، لولا الظلامة العامة الواقعة بالعرب من الصهيونية وامتزاج هـذه الظلامة بتلك العوامل المحلية العارضة .

ولم يقتصر العرب على تجنب كل ما من شأنه احراج الأمم المتحدة في أثنـاء الحرب ، بل انهم ساهموا بنصيب جوهري ، وان كان صغيراً ، في سبيل احراز النصر فيها . فقد لعب الجيش العربي الأردني دوراً هاماً في الحملتين السورية والعراقية سنة ١٩٤١ ، وكان سيلعب أيضاً دوراً في حملات شمال افريقيا لو قدر لها أن تطول قليلا . واشتركت قوة الدفاع السودانية وجلها من العرب السودانيين ، في فتح شمـال افريقيا ، وقامت بمهام في ليبيا . وتولى الجيش المصري عملا هاماً في خطوط المواصلات ، وفي الدفاع عن منطقة قنـال السويس ، وانخرط المتوطعون العرب من فلسطين في سلك وحدات فلسطينية ، وخدموا داخل فلسطين وخارجها. والتحق كثير من السوريين واللبنانيين بقطع التجنيد المحلية ، وقد كان يلتحق كثيرون غيرهم بالقوى البريطانية لولا الاتفاقات البريطانية الفرنسية التي عقدت بشأن دولتي المشرق . وقدم العرب السنوسنيون خدمات جليلة كعصابات وجنود اضافيين في الحملات الليبية . ولا يجوز نسيان الجنود ، من لبناني و سوري ، الذين انضموا الى قوى الولايات المتحدة . فاذا ادعت الصهيونية فضلا في محاربة اليهود في الجيوش البريطانية والأميركية والروسية وغيرها ، بصفتهم مواطنين في البلاد التي اختاروها موطناً لهم ، استطاع العرب أن يدعوا مثلهم بفضل محـاربة مواطنيهم في الجيوش الأجنبية .

Digitized by Birzeit University Library

وقد قدم العرب معونة جوهرية في نواح أخرى أيضاً . فمصير الحملات في الشرق الأوسط كان يعتمد الى حد كبير على أمور التموين والمواصلات ، ولذلك كان من الاهمية بمكان أن وضعت اقتصاديات أقطار الشرق الاوسط بكاملها تحت تصرف السلطات العسكرية المطلق ، وتعاونت الحكومات العربية تعاوناً تاماً مع مركز التموين في الشرق الاوسط ، بتقييد تموين المدنيين ومحاولة جعل الشرق الاوسط كافياً نفسه ، وحول نظام المواصلات تحويلا رئيسياً لخدمة الحاجات العسكرية ، وانهمكت معامل الشرق الاوسط لتلبية المطالب العسكرية ، وتمكنت القوى المسلحة من استخدام أعداد كبيرة من العمال الماهرين وغيرهم بأجور منخفضة .

ولا حاجة بنا الى تقليد الخطط الصهيونية فنقلل من أهمية المجهود الحربي الذي قام به اليهود . ولكن يمكن ايراد اشارة عابرة الى القول انه في حين أنهم ساهموا مساهمة ايجابية في مجهود الأمم المتحدة الحربي ، قد عرقلوه أيضاً بطرق كثيرة . أولها ان خطر الارهاب اليهودي في فلسطين قد دعا الى الاحتفاظ بعدد كبير من الجنود فيها ، ممن كان الأنفع استخدامهم في مكان آخر . وقد أصبح هذا الخطر في بعض المناسبات حقيقة واقعة . ففي السنوات الأخيرة من الحرب وقعت حوادث تخريب واغتيال كثيرة ، ولا يكاد يكون من الضروري ان نذكر مقتل اللورد موين (وان لم يدع أحد بأن الشعب اليهودي بكامله مسؤول عن قتله ، أكثر من أن الشعب العربي بكامله مسؤول عن استيلاء رشيد عالي على الحكم) . وثانيها أنه على الرغم من الرغبة الملحة التي أعربت الحكومة البريطانية عنها عدة مرات في عقد هدنة سياسية بشأن فلسطين طيلة الحرب ، وقبول العرب بالمهادنة ، ظل الصهيونيون

Digitized by Birzeit University Library

يهيجون داخل فلسطين وخارجها طيلة الحرب ، وكان لهذا أهمية خاصة في الولايات المتحدة ، حيث أثارت حملة اتهام مقصودة موجهة باستمرار ضد الحكومة البريطانية أقل ما فيها أنها لم تساهم في توحيد الأمم المتحدة .

١٢ — هجة المدنية العليا — عرضها

« يحق للامة ذات القابلية الفائقة للتقدم الاجتماعي والاقتصادي والثقافي ، أن يكون لها ميدان فسيح لتحقيق هذه القابلية . حتى لو كان يحتل هذا الميدان شعب أقام ، أو يمكنه أن يقيم ، مدنية من مستوى أدنى ، فان للامة المتقدمة عليه في المدنية حق مشاركته ذلك الميدان على الأقل إن لم يكن انتزاعه من يده .

« هذه الحجة تستند الى الحق . وثمة حجة تستند الى النفع يمكن أن تلحق بها . تفصيلها أن العالم الآن ، وهو يجتاز مرحلة يزداد فيها عدد السكان ويتقدم فيها العلم التطبيقي ، لا يسعه اغفال المناطق القليلة الباقية في حاجة الى التحسين . بل ينبغي ضم هذه المناطق ضمن النظام العالمي الاقتصادي الاجتماعي ، لتتمكن من المساهمة في التقدم البشري مساهمة تامة . فاذا كانت الشعوب التي تحتلها عاجزة عن تحسينها على الوجه اللائق ، فلو غضضنا النظر عن مسألة الحق ، فانه لا شك في الفائدة التي يجنيها العالم ، إذا أفسح مجال للقيام بذلك لشعوب أخرى أقدر منها على هذا التحسن .

« وهاتان الحجتان كلتاهما تنطبقان على فلسطين . فالأمة اليهودية ذات قابلية وممكنات عظيمة . وقد أثبتت ذلك في التشتيت وفي فلسطين . وفي الجيلين الأخيرين ، أظهرت قدرتها على تحسين فلسطين وخلق قيم جديدة فيها ، بفضل ما

Digitized by Birzeit University Library

لديها من التعليم والمقدرة ، وبفضل العمل الجدي والحماسة ، والسيطرة على موارد كبيرة من رؤوس الاموال يستحيل بدونها التحسين الاقتصادي في هذا العصر. ومن الناحية الثانية أظهر العرب ، لا في الجيلين الأخيرين وحدهما ، بل طيلة القرون الخمسة الماضية ، انهم عاجزون عن تحسين الأراضي الواسعة التي يسكنونها ، تحسيناً منشؤه إبداعهم واقدامهم . فهم متأخرون جاهلون ، ولا يحثون الخطا قدماً . وهم بسبب المرض ونقص التغذية عاجزون عن العمل بجد وثبات ، كما أن مواردهم الرأسمالية لا يؤبه بها .

«زد على هذا أن العالم العربي هو أحد هذه المناطق المحتاجة الى التحسين. فله امكانيات زراعية عظيمة ويمكن أن يكون سوقاً كبيرة للبضائع المصنوعة . وقد اقترح الدكتور لوذرميلك ، مستنداً الى تحقيقاته ، أنه إذا نفذت مشاريع الري الملائمة تمكنت فلسطين والبلاد المجاورة لها من اعاشة عدة ملايين من المهاجرين ، وفي الوقت ذاته يرتفع مستوى معيشة سكانها الحاليين ارتفاعاً كبيراً . ولا يسع العالم أن يترك هذه الامكانيات دون استغلال بعد الآن .

« كل هـــذا يثبت أن لليهود الحق في أن يسمح لهم بالاستمرار في عملهم الانشائي في فلسطين، وأن هذا السماح مفيد للعالم . وليس سوى إبداعهم واقدامهم والسير في نهجهم، وسيلة لنقل فلسطين ، بل الشرق الأوسط كله ، من الركود الى تيار التقدم » .

Digitized by Birzeit University Library

١٣ — حجة المزنية العليا — مناقشتها

ان تطور هـذه الحجة يبين موهبة الصهيونيين في التعبير عن أفـكارهم وأهدافهم بصورة تلاقي قبولا لدى العقلية الأنكلوسكسونية .

ومن المحتم الذي لا مفر منه ، في الغالب ، أن الإنكليزي أو الأمريكي الذي يقرأ بياناً من هذا الطراز ويستعيد في ذاكرته تاريخ شعبه يجنح الى ادراك الاستعمار اليهودي لفلسطين ومقاومة العرب له وذلك على ضوء اســـتعمار البيض لأمريكا وأستراليا ومقاومة الهنود الحمر والسكان الأصليين لها .

وقد تزداد هذه الغواية في نفسه ، كما يحدث في أغلب الأحيان ، إذا كان خياله يزين أن العرب نفر من الرحل المتأخرين الذين ينتقلون الى فلسطين عرضاً ولذلك يمكن ترحيلهم عنها أو حصرهم في مناطق معينة فيها بسهولة حيث يمكن الاحتفاظ بأزيائهم وعاداتهم الخاصة بهم ، الأمر الذي يبعث السرور في نفوس السياح والزوار . وفي هذه الظروف فانه سيميل الى التفكير بان مناصرة حقوق العرب ليست أكثر من عاطفة وضعت في غير موضعها . وبتلك النزعة ، نزعة الرغبة في الإنصاف الذي هو أحد مخاطر الفكر السكسوني كما أنه أحد فضائله . يستطيع إدانة الصهيونيـــة إذا ما كان في مقدوره أن يدين ماضي أمته .

ومهما يكن من أمر فالعرب يرفضون رفضاً باتاً كافة الأسس التي تقوم عليها هذه الحجة. فهم ليسوا قبيلة بدوية تبعثرت في البلاد خلال تجوالها على غير هدى،

Digitized by Birzeit University Library

لكنهم السكان الأصليون لهذه البلاد ، وحقهم فيها يقوم على تملكهم لها تملكاً عريقاً في قدمه ولم ينازعهم فيه منازع إلا مؤخراً .

ليس في وسع العرب أن يسلموا بان الحق في تملكهم لها يعتمد بأي وجه من الوجوه على النفع الاقتصادي الذي يجنونه منها ، وهم لا يستطيعون أن يفهموا أي مبدأ يمكن أن يحكم به على ذلك النفع ، وهم لا يعرفون أية محكمة ذات اختصاص تستطيع الفصل في امرهم .

وهم لا يدركون لماذا ينبغي أن يطبق هذا المبدأ عليهم وحدهم كأنهم هم وحدهم دون سواهم من بين أمم العالم قد ارتكبوا جرم التفريط بتراثهم في الارض الذي منحهم إياها الله . .

حتى ولو فرضنا (وهذا الفرض لا يقبل به العرب) أن العرب قد حولوا فلسطين الى صحراء وعجزوا عن عمرانها ، وأن اليهود وحدهم امتلكوا سر تحويل الصحراء الى جنة فيحاء ، فان العرب ينكرون أن هذه الدعوى بحد ذاتها يجوز أن تؤلف حجة للاستعمار اليهودي .

ان اعتراض العرب على هذه الحجة هو اعتراض مبدئي ، وأن الاستفسار عما إذا كانت التأكيدات التي تضمنتها هذه الحجة صحيحة أم لا ، خارج عن هذا الصدد ، ومع ذلك فان هذه التأكيدات قد ذاعت على مدى واسع كأنها قد قبلت بوجه عام . ولذلك نرى أن المستحسن وضعها تحت المجهر . ويمكن تلخيصها تحت أبواب ثلاثة : —

(١) أن في فلسطين امكانيات اقتصادية واسعة تنتظر التحسين والعمران

Digitized by Birzeit University Library

(٢) أن اليهود شعب تقدمي قادر على استثمار هذه الامكانيات

(٣) أن العرب شعب متأخر غير تقدمي قد جعل من فلسطين صحراء في الماضي ولا يستطيع استثمار امكانياتها

وسنعالج كلاً من هذه التأكيدات على حدة .

١٤ — التقدم اليهودي

إذا اتجهت الانظار الى ما حققه اليهود في فلسطين أو بعبارة أصح ، الى مظاهر ما حققوه فقط ، لم يكن بد من أن يظهر جهدهم في فلسطين كبيراً ، ولا يسع المسافر الذي يفكر تفكيراً سطحياً إلا أن يعجب بما يرى من آثار ذلك الجهد . لكن إذا وقف المسافر يتفحص ما وراء المظهر ، وتساءل عن كلفة ذلك ، وهل لذلك البناء من الضمانة والاستقرار الحقيقيين ما يبدو على ظاهره ، خامره بعض الارتياب.

ولا بد أن يلفت انتباهه ، مثلا ، الى أن الزراعة والصناعة اليهوديتين قد أنشئتا بمعونة رؤوس أموال كبيرة جيء بها من الخارج للاستثمار . ويقدر مجموع الاموال المستثمرة في المشاريع اليهودية في فلسطين بمائة وخمسة وعشرين مليون جنيه فلسطيني تقريباً ، وهذا يعني أنه قد استثمر خمسمائة جنيه لكل نسمة من السكان القادرين على العمل . وللسائل أن يسأل عما إذا كان بالامكان صيانة التقدم الذي جرى حتى الآن ، إذا انقطع سيل الاموال المتدفق من الخارج . ونجيب على هذا السؤال بأن المهارة الفنية والعلمية أيضاً ، وهي لا تقل أهمية عن الاموال ، قد كانت تستورد جاهزة من الخارج . والخبراء والفنيون الذين تدربوا في أوربا ، وهاجروا الى فلسطين في هذا الجيل ، قد حملتهم اليها ريح لا يتكرر

Digitized by Birzeit University Library

هبوبها ، وساعدت موقتاً على انتاج مقدار من البضائع والخدمات أكثر مما يمكن انتاجه حين يضطر سكان فلسطين الى الاعتماد على ما لديهم أنفسهم من الخبرة الفنية . (ونقول بهذا الصدد أن هذه الملاحظة تنطبق على جميع نواحي الحياة اليهودية ، لا على ناحيتها الاقتصادية وحدها . فمن المشكوك فيه مثلا ، أن تستطيع الجامعة العبرية الاحتفاظ بمستواها الحالى في البحث والتحقيق العلمي ، حين لا يتوفر لها اليهود الالمان بمواهبهم العقلية وتدريبهم الفكري) .

حتى لو كان لليهود الفضل فيما حققوه ، فهو ، حين يدقق فيه النظر ، يبدو دون ما هو عليه في المظهر . ويكفي أن نشير بايجاز إلى جانبين من عملهم : المستعمرات الزراعية ، والصناعات الجديدة .

فالزراعة اليهودية في فلسطين قد بدأت تؤازرها عوامل لم تتوفر للزراعة العربية . فهي على العموم ، تستخدم أراضي أفضل بكثير من الاراضي التي يتصرف بها العرب ، ذلك أن معظم الاراضي التي يملكها اليهود تقع في السهول الخصيبة . ومعدل مساحة ملكية الاراضي لعائلة المزارع اليهودي أكبر من معدلها لدى العرب . والاموال المستثمرة في الاراضي اليهودية أيضاً أكبر جداً مما هي لدى العرب (فان القيمة الرأسمالية لمزرعة عربية متوسطة تبلغ نحو سبعين جنيهاً فلسطينياً ، في حين أن قيمة المزرعة التي تقام وفق أصول الزراعة الاوروبية المختلطة تبلغ أربعمائة جنيه) . وباستطاعة المزارع اليهودي أن يأخذ من وكالاته القومية قروضاً بفائدة منخفضة أو دون فائدة . ومع ذلك فان ميزانيات المزارع اليهودية لا تأتي بربح أكثر من ربح المزارع العربية ذلك أن نفقات الانتاج وأسعار المنتجات لدى اليهود ليست في صالح المزارع اليهودية كما هي في صالح

Digitized by Birzeit University Library

المزارع العربية . فالديون الزراعية اليهودية ، وخاصة ديون زراع الحمضيات أكثر منها عند العرب . زد على ذلك أن معظم المزارع الاشتراكية كانت ، حتى حلول ظروف الحرب الاستثنائية ، تدار بخسارة . وينطبق على الصناعة اليهودية مثل هذه الاعتبارات . فقد ابتدأت في ظروف أفضل من الظروف التي أتيحت للصناعة العربية . ومع ذلك ظلت — حتى جاءتها الحرب بنجاح عابر موقت — تمتاز بأن دوران رأس المال فيها بطيء غير عادي ، وبانخفاض نسبة القيمة التي يضيفها صنع المواد الى تكاليفها . وبتكاليف أعلى بكثير من تكاليف العمل في أي قطر من الاقطار الصناعية الكبرى . ثم أن البضائع التي تنتجها كانت ، باستثناء بعضها ، من نوع رديء وذات ثمن باهظ . وحتى ذلك القدر من النجاح الذي أحرزته ما كان يتيسر لها لولا الحماية التي نالتها والمعونة المالية التي قدمتها الصناديق القومية اليهودية .

وبالاجمال ، لا يمكن اعتبار التطور الاقتصادي اليهودي في فلسطين تطوراً سليماً مستقراً. فمن الناحية الاقتصادية الصرفة يكاد لا يوجد ثمة مبرر لإنشاء الاكثرية العظمى من صناعات اليهود ومستعمراتهم الزراعية . وقد جاء انشاءها في جوهره ، لاسباب سياسية . فحالما أقر الصهيونيون ، كجانب جوهري من خطتهم السياسية ، مبدأ تنظيم الهجرة على أساس قدرة الاستيعاب الاقتصادية وحدها ، أصبحت الضرورة تقضي عليهم بأن يخلقوا قوة الاستيعاب هذه أو ما يشبهها ليضمنوا بها أوسع هجرة ممكنة ، فكان لزاماً عليهم انشاء المستعمرات والمعامل كقاعدة يبنون عليها مطالبتهم بجداول الهجرة الواسعة .

Digitized by Birzeit University Library

٢٥ — التقدم العربي

كان تقدم العرب خلال الثلاثين سنة الماضية اقل لفتاً للانظار من تقدم اليهود، ولعله كان اسلم واصح . وقد لا يكون عند العرب من اماكن يعرضونها على الناس للفرجة ما يضارع ما عند الصهيونيين منها، وقد لا يتوفر لهم عرض بضاعتهم عرضاً مفيداً على الوجه الذي اتقنته الوكالة الصهيونية، ولكن الملاحظ المدقق الذي يجوب هذه البلاد يجد في الجانب العربي منها اموراً كثيرة تستحق الثناء والاعجاب. فانه يلاحظ ان مزارع الحمضيات العربية اكثر اتساعاً من مزارع اليهود ، وانها تدار ادارة لا تقل نجاحاً عن مزارعهم، وان بساتين الزيتون في سفوح الجبال الممهدة تنال عناية فائقة . وان معامل عصرية تنشأ هنا وهناك لتحل محل الصناعات التقليدية ، وان للعرب مصارف عربية ووكالات مالية ناجحة حسنة التنظيم . ويلاحظ ايضاً ان في كل مدينة مدارس اهلية تنشأ تلبية للاقبال العام على التعليم ، ومنظمات ثقافية واجتماعية تؤلف ، وكتباً وصحفاً تنشر ، ويجد جمعيات نسوية ونقابات للعمال وانواعاً اخرى من الجمعيات ، وبالاجمال يكتشف ان كل مظهر من مظاهر المجتمع العربي آخذ في التطور .

قد يستنتج الملاحظ ، وقد لا يستنتج ، ان العرب قد بلغوا مستوى اليهود في تنظيم حياتهم الاقتصادية والاجتماعية، ولكنه لا يجد مفراً من الاعتراف بامرين: اولهما ان العرب بصورة عامة يقفون على نفس مستوى المدنية الذي يقف عليه اليهود . ويتضح له ان العلاقة بين اليهود والعرب ليست كعلاقة المستعمرين والهنود الحمر الذين كانوا كل منهم على مستوى من المدنية خاص به ، بل يرى ان العرب واليهود فريقين يسيران في طريق واحد ، وان احدهما بدأ السير

Digitized by Birzeit University Library

بعد الآخر بقليل . وليس الفرق بينهما في المستوى وانما في الزمن فقط . والأمر الثاني الذي لا بد من الاعتراف به ، هو ان الفرق في الزمن قد اصبح الآن اقل مما كان في الماضي . فانه وان كان مستوى نجاح العرب الاقتصادي ، في بعض نواحيه ، قد قصر عن مجاراة مستوى اليهود الاقتصادي ، نجد تقدم العرب في الخمس والعشرين سنة الماضية اسرع دون ريب . فقد بدأ العرب ، وليس لهم ما لليهود من موارد مالية اجنبية تكاد لا تحد ، ومهارة وخبرة فنيتين ،وكان عليهم ان يجمعوا رؤوس الاموال ببطء ، وان يتعلموا دقائق الصناعة العصرية والأصول المالية من اولها . ونجم عن ذلك ان كانت المراحل الاولى في تطورهم بطيئة تعتورها المصاعب . ومما يجعل التقدم العربي ادعى إلى الاعجاب ، انه قد جاء دون مساعدة تذكر من قبل الحكومة المنتدبة . وفي الواقع ان العرب بفلسطين ليستطيعون ان يدعوا لأنفسهم كل الفضل تقريباً في التقدم الذي احرزوه في الجيل الحاضر . والدليل على ذلك ان التقدم الذي تم في البلدان العربية الأخرى ، كان عظيما مثله ، بل واعظم منه في بعض النواحي . ولا يستطيع المسافر في فلسطين ان يكون حكما صحيح الحكم على ما يراه ، ما لم يزر الاقطار العربية الأخرى ايضاً . فانه يجد في مصر صناعة عصرية متعددة الجوانب ، ومشاريع كبيرة للري ، وحياة ادبية نشيطة ، وحركة نسوية ، واهتماماً متزايداً بالمشاكل الاجتماعية ، ويجد في العراق مشاريع للري والتحسين الزراعي ، والصحة العامة ونظاماً للتعليم ينطوي على وعي تام لحاجات امة في دور التكوين ، على الرغم من انه لا يزال في مراحله الأولى . وفي سوريا معامل نسيج جديدة ، وجهد حازم يبذل لتكوين مجتمع زراعي مستقر ونظام للتعليم سيأخذ الآن ، وقد تحررت البلاد

Digitized by Birzeit University Library

من حكم الانتداب في التطور السريع . في لبنان ، يعيش القرويون في مستوى اقتصادي واجتماعي قد يعلو على مثيله في أي قطر من أقطار الشرق الأوسط ، كما أن فيه نشاطاً عقلياً وحيوية فكرية ، ويعود الفضل الأكبر في ذلك الى هجرتهم الى العالم الجديد . وشرق الأردن أيضاً يبذل أقصى جهده لمواجهة مشاكل المجتمع الزراعي العربي ، وقد نمت عمان في العشرين سنة الماضية من قرية شركسية الى مدينة يبلغ عدد سكانها خمسة وثلاثين ألفاً ، وهي باعتبار ظروفها لا تقل عن تل أبيب اثارة للاعجاب .

١٦ — امكانيات فلسطين الاقتصادية

لقد قدرت امكانيات فلسطين الزراعية والصناعية بين وقت وآخر تقديرات كانت حدساً مطلقاً . فوضع الدكتور لودرميلك وزملاؤه مشاريع لري مساحة اضافية من الأراضي تزيد على ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ دونم ، وتقديم ما لا يكاد يحد من القوة الكهربائية للصناعة ، وبذا يمكن هجرة عدة ملايين من المستعمرين الجدد ، على أن تبلغ نفقات جميع المشاريع نحو خمسين مليون جنيه فلسطيني .

ومن الخطر اعطاء بيان قاطع عما يجب ترك الفصل فيه الى الخبراء الفنيين والأخصائيين . ولكن لا ضرر في أن يقال أن هذه المشاريع لا تنطبق على النتائج التي انتهى اليها عدد كبير من الأبحاث والتحقيقات الفنية ، وأنها تتجاهل عدة عوامل اقتصادية ذات صلة بها . فلا نزال نذكر أنه كان من رأي اللجنة الملكية، التي اعتمدت على البيانات التي قدمتها اليها الحكومة والهيئات الخصوصية ، أن البلاد لا تستطيع أن تعول عدداً من السكان الزراعيين يزيد على عدد سكانها

Digitized by Birzeit University Library

الآن ، ما لم يطرأ تغير كبير على طرق الفلاحة فيها ، وأنه لا بد لهذا التغيير من أن يكون شديد البطء يستغرق عدة سنوات. ويمكن أيضاً أن يقال أن التحقيقات التمهيدية التي جرت فيما يتصل بامكان استخدام الأردن للري على مقياس كبير لم تعط نتائج مشجعة، بل أظهرت أن المساحة الاضافية التي يمكن اصلاحها للفلاحة بهذه الطريقة قد لا تكفي لاستيطان ما يزيد على عشرين ألف شخص ، وان زاد على ذلك ، بلغ أكبر تقدير سخي ممكن نحو خمسين ألفاً . أما النقب فان امكان فلاحة القسم الأكبر منه تتوقف على اكتشاف موارد مياه كافية ، وقد كانت الأبحاث التي أجريت حتى الآن في ذلك السبيل غير مجدية . ثم أنه وان كانت الزراعة الكثيفة ممكنة في السهول والوديان فان الجزء الأكبر من فلسطين جبلي لا يلائم الزراعة الكثيفة ، وتستغل مواد مياهه على قلتها استغلالا لا يترك مجالا للمزيد ، وفيها الآن ازدحام بالسكان خطير .

ثم ان ايجاد الأسواق للحاصلات مسألة هامة . فقد تجعل الاعتبارات الاقتصادية الزراعية المختلطة ضرورية في أراضي الري ، وتحتاج حاصلات هذه الزراعة الى أسواق خارجية . ولن يسهل ايجاد هذه الأسواق ، ولا ينتظر بنوع خاص أن تتسع صناعة الحمضيات التي أخذت فلسطين منذ الآن تعتمد عليها الى حد جد خطير .

وكذلك امكانيات فلسطين الصناعية تحدها عوامل شتى . أولها ندرة المواد الأولية . فالمعادن الصرفة والمخلوطة والكبريت والمواد المعدنية الأخرى والخشب والقطن والحرير وغير ذلك من المواد الخام ، تكاد تكون معدومة في البلاد . كما أن البترول والكهرباء ومواد الوقود الأخرى عالية الثمن ، وأجور العمال مرتفعة .

Digitized by Birzeit University Library

وأهم من كل هذا ضيق مجال الأسواق الخارجية حتى في المستقبل . فجميع البضائع الفلسطينية ، باستثناء عدد محدود منهـا ، لا تستطيع منافسة منتوجات الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى في الأسواق العالمية ، وليست أسواق الشرق الأوسط مضمونة لها، بالنظر الى سرعة التطور الصناعي في مصر وغيرها من الأقطار العربية والى ازدياد الشعور العربي بالخطر الصهيوني .

يضاف الى هذا أن امكانيات فلسطين الاقتصادية يجب أن تقاس بمقياس احتياجات سكانها في المستقبل . وسيوضح في نبذة تالية أن معـــدل ما للفلاح العربي من الأرض الآن هي دون نصف ما يحتاج اليه منها لبقاءه على قيد الحياة فقط . يحتمل أيضاً أن يزداد السكان العرب ازدياداً يظل سريعاً لعدة عشرات من السنين ، بحيث أن عددهم البالغ ٠٠و٢٠٠و١ نسمة الآن ، سيصبح نحو مليوني نسمة في سنة ١٩٧٠ . وفي هذه الظروف لا تكون أية زيادة يمكن احداثها في منتجات البلاد ، كافية لأكثر من بقاء السكان المستمر عددهم في ازدياد في مستوى معيشتهم الحالي المنخفض .

١٧ — حجج انتفاع العرب

كثيراً ما تبدو الحجج المختلفة التي تم تحليلها فيما سبق قوية عجيبة ، حين تجمع معاً وتضم اليها حجة اخرى هي ان مجيء اليهود الى فلسطين نافع للعرب . وهذه الحجة تؤكد ان « الاستيطان اليهودي قد افاد العرب وسيظل يفيدهم ، فائدة ايجابية » . وهذه الفائدة ترى في جميع نواحي الحياة. ففي الناحيةالاقتصادية جاءوا برؤوس اموال ، فامكن بذلك حدوث تحسين زراعي وتطور صناعي ،

Digitized by Birzeit University Library

وارتفاع مستوى المعيشة ، ولو لا ذلك لاستحال حدوثها . وقد زادوا انتاج البلاد ورفاهيتها زيادة فائقة ، وظهر هذا في الزيادة الطبيعية في سكانها العرب التي لا تضارعها زيادة . وفي الناحية الاجتماعية استفاد العرب من التحسين الذي طرأ على الصحة والتعليم وغيرهما من الخدمات الاجتماعية ، مما نجم عن قدرة اليهود على دفع الضرائب لايجاد خدمات اجتماعية تقوم بها الحكومة ، ويعود الفضل في هذا كله الى اليهود وان كان بطريق غير مباشرة . وقد استفاد العرب ايضاً من الاقتداء باليهود في انتهاج سبيل الحياة الاوروبية ، وهم آخذون في تقليد بعض المنظمات الاجتماعية كنقابات العمال وجمعيات التعاون ، واقتباس بعض العادات الغربية في حياتهم الخاصة والاجتماعية . وفي الناحية الثقافية فيها ينقل اليهود مدنية الغرب الى الشرق ويجعلون من انفسهم جسراً يصل بينهما ، وسيضاعفون عملهم في هذا السبيل في المستقبل . وفي الناحية السياسية ، لا امل للعمال والمزارعين العرب في التحرر من اصفادهم ، الا بالتحالف مع طبقة العمال اليهود المنظمين المستنيرين . وهذه الفوائد ليست مقصورة على عرب فلسطين وحدهم ، بل تنطبق على جميع البلدان العربية الى درجة تزداد يوماً بعد يوم . وفي الواقع ان فلسطين اليهودية مكتوب لها ان تكون مركز التقدم ومبعث النور في الشرق الاوسط بكامله .

والجواب الاساسي على هذه الحجة هو ما اجيب به على جميع الحجج التي تعتمد على نتائج الاستيطان الصهيوني ، وهو ان لا علاقة بين الامرين . فانه ، حتى لو كان بيد الصهيونيين المفتاح الوحيد لتقدم العرب ورفاهيتهم ، لما كان له ان يطغي على حق العرب في تقرير ما يشاءون بشأن الهجرة اليهودية . بل يبقى

Digitized by Birzeit University Library

لهم ان يعتبروا ان الفوائد الناجمة عن الهجرة الصهيونية غير كافية لاقناعهم بالتخلي عن حقهم في الحياة المطمئنة في وطنهم الخاص بهم ويظل العدل يمكّنهم من الاحتجاج على اي عمل يعمل لهم حتى ولو كان فيه الخير لهم، اذا جاء رغم ارادتهم.

ويمكن ايضاً ان نشير اشارة عابرة الى ان جميع تلك الفوائد ، التي جناهـا العرب حقيقية كانت او فرضية ، ليست سوى نتائج عرضية للصهيونية . فلا يمكن الادعاء بان الرغبة في مساعدة العرب هي احدى بواعث واهداف الصهيونيين الذين ، اذا استثنينا منهم العدد اليسير ، لن يكونوا اقل تمسكا باهداف صهيونيتهم حتى ولو انهم اقتنعوا بان مجيئهم الى فلسطين قد اضر بالعرب. فقد ظل الصهيونيون منذ ايام هرتسل الذي لم ترد في مذكراته اليومية عن زيارته لفلسطين اية اشارة الى العرب ، يعتبرون العرب قبل كل شيء ، عائقاً يجب ان يزال او يتجنب على اي وجه من الوجوه ، ولم يقوموا باية محاولة للنظر اليهم كجيران لا بد من كسب ودهم وحسن نيتهم . وليس في هذا من اثم ، ولـكن الافضل ، حين تستعمل هذه الحجة ، ان يوضح ان النفع للعرب لا يلعب الآن ، كما لم يلعب في الماضي ، إلا دوراً جد ضئيل في تفكير الصهيونيين وخططهم .

والعرب ، على الرغم من رفضهم هـذه الحجة مبدئياً ، يعتقدون ايضاً ان الفوائد المزعومة للاستيطان اليهودي، ان كان له فائدة، هي دون ما يظنه الناس بكثير . وسنناقش فيما يلي هذه الفوائد واحدة واحدة .

١٨ — فوائد الصهيونية الاقتصادية

يمكن تخفيض ادعاءات الصهيونيين في هذه الناحية الى ادعاءين : أولهما أن

Digitized by Birzeit University Library

مجيئهم قد رفع مستوى معيشة السكان العرب . وثانيهما أنهم ـ أي الصهيونيين ـ وحدهم يقدمون رؤوس الأموال اللازمة لتحسين الزراعة والصناعة العربية .

والجواب على ادعائهم الأول بسيط . وهو أنه إذا صح زعمهم لكان من المنتظر أن يجد الانسان مستوى معيشة العرب في فلسطين أعلى بكثير مما هو في البلدان العربية المحيطة بها ، وهذا ما أكده الصهيونيون المرة تلو المرة . لكن الأرقام التي يستشهدون بها لاثبات ادعائهم تشير عادة الى الأمور النقدية فقد اقتبس كتاب نشر مؤخراً بعنوان « التطور الاقتصادي في الشرق الأوسط » بعض الاحصاءات دل فيها على أن النقد الذي يكسبه العامل العربي في فلسطين هو ضعف ما يكسبه العامل في سوريا . ولكن القياس بمقياس العملة يعطي صورة خادعة ، ولا يمكن أن يؤدي الى نتيجة ما لم يؤخذ مقترناً مع نفقات المعيشة . فقد كانت نفقات المعيشة في فلسطين حتى نشوب الحرب سواء أقيست بمقياس كلفة المأكل أم المسكن أم الملبس أكثر مما كانت عليه في البلدان المحيطة بها . ولذلك لم يكن ثمة فرق محسوس بين الأجور الحقيقية التي تدفع لعرب فلسطين ومثيلاتها لدى عرب الأقطار الأخرى . وأقل فحص لدخل الفلاح أو العامل العربي ، مهما كان سطحياً ، لا بد أن يثبت دون لبس أو إبهام أنه منخفض جداً وأنه لا يميل الى الارتفاع ارتفاعاً ملموحاً وأنه لا يفي بحاجاته . وقد أثبت ذلك بحث استطلاعي في الاحوال الاجتماعية والاقتصادية ، جرى مؤخراً تحت رعاية دائرة الاحصاء في خمس قرى عربية .

ويمكن نقض الادعاء الثاني بالطريقة نفسها . ذلك أنه لو صح ، لكان يتوقع أن يوجد فرق ملموس بين نسبة الاموال المستثمرة في الزراعة والصناعة الى

Digitized by Birzeit University Library

عدد السكان العاملين في فلسطين وبين النسبة التي تقابلها في الاقطار العربية الاخرى . ولكن هذا غير صحيح ولا تتوفر الاحصاءات الموثوق بها للقيام بالمقارنة ، ولكن من الواضح أن مقدار رأس المال المستثمر في مزرعة عربية متوسطة يضارع مثيله في لبنان مثلا ، وان الاموال المستثمرة في الصناعة العربية في فلسطين لا تفوق مثيلتها في مصر وسوريا . ولو صح زعم الصهيونيون لكانت فلسطين الآن اكثر تقدماً ونجاحاً في الصناعات من جاراتها ، في حين انه ليس فيها ما يمكن ان يقارن بمجموعة الشركات التي انشأها بنك مصر مثلا في القطر المصري زد على ذلك انه حتى لو لعب رأس المال اليهودي في السابق دوراً صغيراً في تحسين صناعة الحمضيات العربية (وهو دور اقل مما يزعم بكثير) فهذا اعتبار لم يعد الآن ينطبق على الحالة . ففي سنوات الحرب اجتمع في فلسطين ومصر وغيرهما من بلدان الشرق الأوسط ، وفر وادخار بمقادير كبيرة ، وهذا قد يكفي لاي تطور صناعي يتوقع ان يجري في فلسطين العربية ، واذا دعت الحاجة الى اموال اجنبية فليست خزائن الصهيونية المصدر الوحيد لها ، إذ ان الشرق الاوسط قد اصبح ميداناً يزداد الاطمئنان اليه يوماً بعد يوم لاستثمار الاموال وتحقيق ارباحها فيه .

١٩ — السكان العرب

هناك اساس مزعوم للفائدة الاقتصادية ، كثيراً ما يشير اليه الصهيونيون . فهم يشيرون الى ازدياد السكان العرب ازدياداً غير طبيعي خلال مدة الانتداب ، فقد ازداد عددهم من نحو ٦٥٠٫٠٠٠ نسمة سنة ١٩٢٢ الى ما يقارب الـ ١٫٢٠٠٫٠٠٠

نسمة في نهاية سنة ١٩٤٥ ويدعون ان هذه الزيادة ناجمة عما اوجدته الصهيونية في البلاد من ازدهار ضاعف زيادة المواليد على الوفيات من جهة ، واجتذب المهاجرين من البلدان المحيطة بها من جهة اخرى .

وبديهي ان هذه الحجة باطلة من اساسها . فليس من الضروري ان تكون زيادة السكان علامة على زيادة الرفاهية ، بل قد تكون نتيجة لعدد كبير من العوامل الاخرى تعمل منفردة ومجتمعة . وهي ، وان كانت نتيجة للتطور الاقتصادي ، قد تبطل بدورها فعل ذلك التطور . مثال ذلك ما حدث في مصر في القرن الماضي من توسع كبير في الزراعة بفضل الري وغيره من الوسائل ، رافقه ازدياد مواز له في عدد السكان ، وكيف ان هذا الازدياد ابطل ، الى حد كبير ، اي اثر كان يحتمل ان يتركه ذلك التوسع في رفاهية الشعب . وعلى هذا الغرار يدعو ازدياد السكان ازدياداً خارقاً في فلسطين الى افتراض ان مستوى معيشة سواد الشعب فيها لم يرتفع كثيراً ، او لم يرتفع بالمرة ، ولا يثبت بوجه من الوجوه ازدياد الرفاهية في البلاد .

وهذه الحجة باطلة ايضاً من حيث الامر الواقع . فقد درست اسباب ازدياد السكان العرب واتضحت . فلم تحدث زيادة محسوسة في خصب المرأة العربية . وفي حين ارتفع معدل المواليد خلال بضع السنوات الاولى من مدة الانتداب ، بسبب التوقف عن التجنيد ، والزواج المبكر ، وعوامل اخرى ، فقد اخذ حوالي سنة ١٩٢٦ يميل الى الهبوط ، ولذلك ينبغي ان تعزى زيادة السكان ، بصورة اساسية ، الى هبوط معدل الوفيات عما كان عليه ، وان كانت فلسطين لا تزال تعتبر من البلدان التي معدل الوفيات فيها أعلى معدل في العالم. وهذا الهبوط بدوره

Digitized by Birzeit University Library

يمكن تفسيره بعوامل عدة : وهي التحسين في الادارة وتحسين نظام الصحة التامة وازدياد التعليم في القرى ، وازدياد العناية بالحوامل والاطفال ، والفضل في هذه التحسينات ، كما سيظهر فيما يلي ، يعود الى جهود العرب انفسهم والى حكومة الانتداب والارساليات الدينية اكثر جداً مما يعود الى منظمات الصحة الصهيونية.

اما زيادة السكان الناجمة عن الهجرة ، فلم يكن مقدارها كبيراً . فقد كان مجموع من سمح لهم بالهجرة الى فلسطين من غير اليهود ، من عرب وآخرين بين سنتي ١٩٢٠ و ١٩٤٥ زهاء ثلاثين الفاً . وينبغي ان يخصم من هذا الرقم مقدار كبير يمثل المهاجرين من فلسطين، ويحتمل ان يكون قد دخل البلاد بعض مهاجرين غير شرعيين ، ولكن عددهم لم يكن بالقدر الذي يؤثر تأثيراً هاماً في مجموع السكان .

٢٠ — فوائد الاستيطان الصهيوني الاجتماعية

يصور الصهيونيون عرب فلسطين كمجموعة من المتوحشين يصبحون اناساً متمدنين شيئاً فشيئاً بفضل معونة اليهود والسير على نهجهم . ولذلك فانهم كثيراً ما يؤكدون وينشرون الاعتقاد بان التحسين في احوال الصحة والمعيشة لدى العرب ، خلال مدة الثلاثين سنة الاخيرة ، يعود الى مستشفيات اليهود واطبائهم وتدابيرهم الصحية العامة .

فاذا صح هذا الزعم، فلن يستنتج منه سوى ان الحكومة قد اهملت واجباتها تجاه رفاهية السكان . ولكنه غير صحيح ، لان النظر الى الاحصاءات الصحية في فلسطين ، بأقل تدقيق ممكن ، يثبت ذلك . وفي الواقع ان تحسن حالة العرب

Digitized by Birzeit University Library

الصحية يعود كل الفضل فيه تقريباً الى جهود حكومة الانتداب والارساليات الاجنبية والعرب انفسهم . ففي سنة ١٩٤٤ ، مثلا ، زار المستشفيات ١٥٣و٣٥ عربياً في عيادات داخلية ، ومنهم ٨١٠و١٦ اشخاص او ٤٧ ٪ زاروا المستشفيات الحكومية او البلدية ، و ٤٧٩و١٤ او ٤و٤٠ ٪ زاروا مستشفيات الارساليات و ٢و٦ ٪ زاروا مستشفيات عربية و ٤و٦ ٪ زاروا مستشفيات يهودية . وهذه الارقام لا يصح ابداً اتخاذها مقياساً ، لان خمسة مستشفيات المانية وايطالية كانت مقفلة في تلك السنة . وقد يصح اتخاذ سنة ١٩٣٥ مقياساً للسنوات السابقة للاضطرابات والحرب ، ففيها عالجت مستشفيات الارساليات نحو ٦٣ ٪ من مرضى العرب ، ومستشفيات الحكومة ٣٦ ٪ منهم ، ولم يدخل المستشفيات اليهودية منهم سوى ١٩٦و٠ ٪ .

وثمة ادعاء يدفع به الصهيونيون دفعاً خاصاً ، فيقولون ان ما قاموا به لمكافحة الملاريا قد حسنت صحة السكان القرويين من العرب . وهنا ايضاً يدعي الصهيونيون لانفسهم جميع الفضل في عمل ساهم آخرون بما لا يقل عن سهمهم ان لم يزد . فقد كانت الحكومة حاملة عبء مكافحة الملاريا ، في المدن عن طريق البلديات ، وخارجها عن طريق تفتيش منظم واسع النطاق .

وقد توضع الحجة الصهيونية هذه بصيغة اخرى ، فيقال انه مهما كانت مساهمتهم المباشرة لتحسين حالة العرب ، فقد ساهموا على نطاق واسع بواسطة الضرائب التي دفعوها لتمويل الخدمات الاجتماعية التي تفيد العرب وحدهم دون سواهم . وقد جاء على الحكومة البريطانية وقت سلمت فيه بهذه الحجة . فوافق المستر رمزي مكدونالد ، في كتابه الى الدكتور وايزمن سنة ١٩٣١ ، على وجوب

Digitized by Birzeit University Library

اعتبار مساهمة اليهود في ايرادات الحكومة لدى تقرير عدد المهاجرين . وموقفه هذا يدعو الى الدهشة ، لان في هذه الحجة اربعة اخطاء فاضحة على الاقل .

اولها ان الادعاء غير صحيح في الواقع . فليس من الضروري ان يكون حامل عبء الضرائب من يدفعها فوراً ومباشرة ، بل من يدفعها في النهاية . فضريبة الاراضي التي تقع في النهاية على كاهل المزارعين ـ واكثريتهم العظمى من العرب ـ وكذلك ضريبة الاستيراد التي قد يدفعها المستوردون بادىء الامر، ولكنها تقع في النهاية على كاهل المستهلكين ـ ومعظمهم ايضاً من العرب ـ تشكلان مصدراً لنسبة كبيرة جداً من ايرادات حكومة فلسطين . اما اليهود فيعيش معظمهم في المدن، وقد كانوا، حتى فرض ضريبة الدخل في اثناء الحرب، بنجوة من الضرائب المباشرة .

وثانيها انه ، حتى لو اعتبرت مساهمة اليهود في الايرادات ، يرجح على هذه المساهمة مقدار الايرادات التي تحول من الخدمات الاجتماعية الى الامن العام ، ويدعو الى هذا التحويل وجود الصهيونيين ومطامحهم . فميزانية الحكومة لسنة ١٩٤٥ — ١٩٤٦ ، خصص منها ٣٧٨و٣٥٥و٥ جنيهاً فلسطينياً او ٢٦ ٪ من مجموعها للبوليس والسجون وقوة حدود شرق الاردن ، في حين ان خصص ٢و٣ ٪ منها للانفاق على المصالح الصحية و ٧و٣ ٪ على التعليم .

وثالثها انه لا صحة للقول بان الحكومة تقدم الخدمات الصحية وغيرها من الخدمات الاجتماعية الى العرب وحدهم ، بل انها تقدمها الى السكان جميعاً . فاذا اختار اليهود عدم الانتفاع بخدمات الحكومة وانشاء خدماتهم الخاصة بهم ، لم يعد يحق لهم التذمر من ذلك . ثم ان اليهود يستعملون خدمات الحكومة في الواقع

Digitized by Birzeit University Library

اكثر مما يعترفون . فان ٥و٢٢ ٪ من مجموع اليهود الذين ادخلوا الى المستشفيات سنة ١٩٤٤ ، عولجوا في المستشفيات الحكومية والبلدية .

واخـيراً ، لو صح ان ايرادات الحكومة من اليهود تستخدم لتحسين احوال المعيشة لدى العرب ، لما كان في ذلك خلاف لقواعد الانصاف والديمقراطية . فالضرائب لا تجبى من اليهود ، كيهود ، بل كافراد من السكان ذوي سعة ، والخدمات لا تقدم للعرب ، كعرب ، بل كافراد من السكان اقل سعة منهم . ولاجدال في ان بذل الحكومة اهم جهودها لتقريب الشقة بين جانبين من السكان مستوى معيشة احدهما دون مستوى معيشة الآخر يطابق مبادىء الديمقراطية الاجتماعية الحديثة .

٢١ — فوائد الاستيطان الصهيوني الثقافية

يفتخر الصهيونيون بالنجاح الذي احرزوه في نقل شيء ، عـلى الاقل ، من ثقافة اوروبا الى وطنهم القومي في فلسطين ، وانهم كسوها حلة من اللغة العبرية التي تناولها التجديد حتى انهم ليتحدثون احياناً بالفوائد الثقافية التي نالها العرب بفضل مجيء اليهود الى فلسطين ، مشيرين بذلك الى انهم طلائع المدنية الاوروبية في الشرق الاوسط الذي لولاهم لظل غارقاً في ديجور الظلام .

وفي الحق انهم لا يقومون بهذا العمل ، وليسوا قادرين عـلى القيام به (إلا ضمن نطاق ضيق) . حتى لو استطاعوه وعملوه فما هو بالامر الذي لا يستغني عنه العرب . اما انهم لا يعملونه فواضح لكل من يدرس عـدد طلاب المدارس في فلسطين ، لأنه يرى انه لا يكاد يؤم المـدارس اليهودية اي طلاب من العرب ،

Digitized by Birzeit University Library

وان ليس في الجامعة العبرية بالقدس سوى حفنة منهم . ويمكن اثبات هذا أيضاً بقلة عدد العرب الذين يقرأون صحف اليهود وكتبهم ، ويحضرون حفـــلاتهم الموسيقية ، ويشاهدون معارضهم الفنية ، او يشتركون في اي جانب من جوانب النشاط الثقافي المتعددة في الوطن القومي .

وفي الواقع انه لا مناص من ان يظل اثر حياة اليهود الثقافية في فلسطين قليلا لا يؤبه به في البلدان المحيطة بها ما دامت وسيلتها اللغة العبرية . وليس كل ما في الامر ان العرب الذين يعرفون شـيئاً من العبرية عددهم ضئيل ويحتمل ان يظل كذلك ، بل الاهم من ذلك ، ان الحاجة الى التعبير عن نتاج الفكر والخيال الاوروبيين بواسطة العبرية ـ وهي لغة بعثت بعثاً مصطنعاً بغية خلق امة ، ولا تزال غير وافية بالمرام لشتى الاغراض ـ تجعل ثقافة الوطن القومي ذات طابع محلي ومنطوية على نفسها ، وتعوق التطور الفكري وتعرقل سير التعبير . ثم ان الوطن القومي لم ينتج بعد ثقافة حية سليمة خاصة به . والثقافة الغربية التي يفتخر بها اليوم قد نقلت من اوروبا الوسطى وجل الذين يحتفظون بها مهاجرون من الجيل الاول وخاصة المهاجرون الالمان الذين استوطنوا فلسطين هرباً من الاضطهاد اكثر من استيطانهم اياها حباً لصهيون . والايام كفيلة بان توضح هل تستطيع الاجيال الجديدة من اليهود الفلسطينيين صيانة واغناء ما ورثهم اياة آباؤهم . قد يستطيعون ذلك ، ولكن ثمة اعتبارات تدعو الى الشك في بعض الامور . منها ، هل ترى تعود ، في اي وقت في المستقبل ، ظروف كالتي مكنت يهود اوروبا الوسطى من هضم ثقافة القارة الاوروبية بكاملها واحالتها الى جزء من كيانها ، وهل يقبل اليهود على مدنية اوروبا ، في حب وشوق مرة ثانية ، إذا حدث ان اتيحت لهم هذه الفرصة ؟ لا بد لكل

Digitized by Birzeit University Library

مطلع على الصهيونية ان يلاحظ مدى العمق والوعي في تحول الصهيونيين عن العرب ، واعتراف ان اليهود حاولوا ان يصيروا اوروبيين وخابوا في المحاولة ، وان عليهم لذلك ان لا يعودوا اليها ثانية .

حتى لو صح ان على اليهود في فلسطين ان يكونوا طلائع ثقافة اوروبية رفيعة في الشرق الاوسط ، لما استطاعوا ان يقدموا الى العالم العربي خدمة لا غنى له عنها. فالعرب لا يحتاجون وسيطاً بينهم وبين الغرب ، لانهم على اتصال مباشر بالمدنية الغربية، لا في فلسطين وحدها ، بل في بلدانهم الاخرى التي ليس فيها صهيونيون وقد كان لهم هذا الاتصال المباشر قبل اوائل الهجرة الصهيونية بزمن طويل ، واستمر حتى الآن . اما بعث العرب الثقافي الحديث فله تاريخ يبدأ منذ قرن من الزمان ، ويستحق التقدير ، وقد سار شوطاً بعيداً في سبيل تحقيق مهمته الاولى الا وهي اقتباس تراث الغرب وتقاليده وتحويلها الى جزء من كيانه ، وقد بلغ في سيره مرحلة يستطيع ان يتقدم بعدها دون معونة من الخارج وان يقرر ما يأخذ من الغرب وما يترك . وليس مركز هذه الحركة فلسطين (كما قد يتوقع لو صح ادعاء الصهيونيين) ، بل مصر ولبنان ، وما التقدم الثقافي في فلسطين العربية سوى جانب من هذه الحركة العربية العامة .

٢٢ — فوائد الاستيطان الصهيوني السياسية

يعترف الصهيونيون عادة بان مجيئهم الى فلسطين قد ينطوي على تضحية سياسية من جانب العرب ، ولكنهم يصرون على أن الفوائد الاقتصادية التي يجيئون بها ترجح على تلك التضحية . ومع ذلك فهناك اتجاه في التفكير الصهيوني

Digitized by Birzeit University Library

الى الاعتقاد بان الصهيونية قد تكون ذات فائدة سياسية لسواد الشعب العربي . ويعتبر هذا الرأي ان الشعب العربي تغرر به الطبقة الحاكمة له التي تحول الى الصهيونيين مجرى الغضب والسخط المنتشرين ، اللذين كان ينبغي ان يوجها ضد تلك الطبقة ذاتها . لذلك كان من واجبات حركة العمال الصهيونيين ، كما هو من مصلحة هذه الحركة ، ان تنشىء وتنظم حركة للعمال العرب ، وتتعاون معها في سبيل تحرير الشعب العربي من سيطرة السادة الاقطاعيين .

وقد تختلف الآراء في صحة هذه الحجة من حيث المبدأ ، وبشأن أولوية الولاء القومي على الولاء الطبقي، ومن ثم في قيمة الخدمات التي يقدمها الصهيونيون الى الأمة العربية إذا عملوا على ايقاظ الوعي الطبقي في العمال العرب . ولكن لا يختلف اثنان في ان حركة العمال الصهيونيين لم تنهج سياسة تنطوي على التعاون ، ولا يبدو عليها امارة نهجها هذه السياسة . فقد ضغط الهستدروت ، اكثر من اية هيئة اخرى ، على اصحاب العمل اليهود ، لحملهم على ان لا يستخدموا إلا عمالا من اليهود واصروا على مبدأ التمييز في مستوى الأجور بين العمال اليهود والعمال العرب ، وحاولوا بصورة عامة تحقيق مبدأ اقامة كيان اقتصادي لليهود ، لا يساهم فيه ولا يجني ثماره احد غيرهم . وبعبارة اخرى ، نرى في حركة العمال اليهود ان المقصد القومي من المجيء بالمهاجرين على مقياس كبير وانشاء وطن قومي خاص باليهود ، قد تضارب مع مبدأ التضامن الطبقي ، وفاز عليه .

صحيح ان هناك حركة عمال عربية ملحقة بالهستدروت ، ولكنها صغيرة لا تضم اكثر من ألف وخمسمائة عضو ، وليس لها اهمية إلا كجزء من نظام الدعاية الصهيونية . اما حركة العمال العربية الصحيحة فقد نمت دون طلب المعونة او

Digitized by Birzeit University Library

احرازها من الصهيونيين . وهي تتمثل في مجموعتين من نقابات وجمعيات العمال العربية ، وفي حركة التعاون الآخذة بالنمو ، وفي جماعات وصحف سياسية يسارية. ولا تقل هـذه المنظمات عن الهستدروت رغبـة في تحسين مستوى المعيشة للطبقة العاملة وتحسين احوال وظروف العمل لهـا ، ولكنها متحدة مع سائر العناصر الاخرى في الامة العربية في مناوأة لا هوادة فيهـا ضد الصهيونية التي تعتبرها خطراً يهدد الامة العربية بكاملها كما يهدد مصالح العمال والفلاحين العرب الحيوية.

٢٣ — هل يناوىء العرب الصهيونية مفأ ؟

يتجه جانب من تفكير الصهيونية الى الادعاء بان الامر لا يقتصر على استفادة العرب من مجيء اليهود ، بل ان الشعب العربي بكامله متأكد من ذلك ولا يناوئ الصهيونية . وتعزى مناوأة العرب للصهيونية ، وفقاً لهذا الزعم ، الى شيء واحد ، هو التدابير التي تحوكها طبقة (الافندية) ملاكي الارض الاقطاعيين . وهي لا تقوم على قاعدة صحيحة من المبادئ القومية، وانما على المصلحة الشخصية. وترتعد فرائص هذه الطبقة اذ تخشى ان يستحيل عليها الاحتفاظ بسيطرتها على المزارعين ، حينما يدخل الصهيونيون الى فلسطين مستوى أعلى للحياة وافكاراً غربية تقدمية . اما المزارعون فمن كان منهم على جانب من الفهم والتعليم فقد رحب بمجيء الصهيونيين ، في حين ان من يناوئها منهم انما يفعل ذلك بدافع الجهل او الخوف . ولذلك كانت المناوأة القومية العربية خرافة ، لا يحتاج القضاء عليها الى اكثر من اتباع طريقة الحزم ضد المهيجين السياسيين من جانب، وتنوير عامة المزارعين من جانب آخر .

Digitized by Birzeit University Library

يستند هذا الاتجاه في الحجة الى فهم خاطئ بالمرة لنظام العرب الاجتماعي في فلسطين . فهي ، شأنها شأن لبنان ، خلو من النظام الاقطاعي ، على خلاف الحال في مصر والعراق . وقد كان فيها ، في اخريات العهد العثماني ، عدد جد قليل من كبار ملاكي الاراضي ، ولكن معظمهم قد باع اراضيه الى الصهيونيين، ومن بقي منهم لا يعتبر ، على وجه عام ، نشيطاً في حركة المناوأة ضد الصهيونية. وفلسطين العربية بلاد ذات ملكيات صغيرة ، ومشاريع اقتصادية صغيرة نسبياً ، وليس فيها عائلات اقطاعية كبيرة او رؤوس اموال ضخمة . وليست العائلات التي يشار اليها بعبارة (العائلات الاقطاعية) في الحقيقة سوى عائلات بعض افرادها وجهاء قرويون يملكون اراضي تتضاءل مساحتها امام ما يملكه امثالهم في انجلترا او اميركا ، ويفلحونها بانفسهم ، في حين ان البعض الآخر من افراد هذه العائلات لا يملكون شيئاً من الارض بل يعتمدون في معيشتهم على تجارة او حرفة او مهنة او عمل حكومي. وليس سبيلهم في الحياة ولا مستوى معيشتهم سبيل الارستقراطية الفنية او مستواها ، كما لا يفصلهم عن عامة الشعب هوة كالهوة التي كانت تفصل الارستقراطية والمزارعين في اوروبا .

وكذلك ليس هناك شيء يدعى طبقة الافندية كطبقة تتميز في طابعها ومصالحها عن سواد الشعب . وقد تطلق كلمة (افندي) تجوزاً على جميع المتعلمين وانصاف المتعلمين من افراد الشعب كما تطلق على كل من اصاب منهم حظاً او بعض الحظ من المدنية الغربية . ولكن هؤلاء لا يؤلفون طبقة منفصلة . وينتمي قسم كبير منهم ، ان لم يكن معظمهم ، الى عائلات متوسطة الحال او دون ذلك . ومع هذا فهم لا يقطعون صلاتهم بعائلاتهم وفي بلاد كفلسطين حيث نهضة التعليم

Digitized by Birzeit University Library

حديثة ، وتشرف الارساليات الدينية على قسم كبير منه ، ويقيم جميع السكان وزناً كبيراً له ، تعتبر طبقة المتعلمين او (الافندية) صورة مصغرة اصدق في تصويرها للسكان مما تكون في اي بلد تختلف ظروفها عن هذه البلاد .

ثم انه لا صحة للقول ان مناوأة العرب للصهيونية قد اثارها الافندية . فلا بد لكل من درس تاريخ السياسة العربية في فلسطين في الثلاثين سنة الاخيرة أن يعجب بمقدار واستمرار ضغط الرأي العام وحثه الزعماء المعروفين والمنظمات القومية على مواصلة العمل . كما لا بد له من ان يعجب كيف ان هذا الرأي العام لا يقل قوة عن مثيله في الغرب حيث تتوفر الوسائل المعروفة للتعبير : من احزاب سياسية وصحافة . ولنضرب على ذلك مثلين : اولهما ان اللجنة العربية العليا شكلت سنة ١٩٣٦ كنتيجة لظهور لجان محلية في المدن والقرى ظهوراً تلقائياً في طول البلاد وعرضها . وثانيهما ان ثورة سني ١٩٣٦ — ١٩٣٩ لم يقم بها المتعلمون في المدن ، بل عصابات من القرويين في الجبال وفي القرى التي كانت تقدم لها المعونة والزاد والمأوى .

واقصى ما يمكن ان يقال ، بحق ، ان طبقة المتعلمين في المدن هي التي اعطت الحركة الوطنية قيادتها الصريحة وكل ما لديها من تنظيم وبرامج واشعرت سواد الشعب بالاخطار التي ما كان ليشعر بها ، لولا ذلك ، إلا بعد فوات الوقت. ولكن من المحقق انه ليس في هذا العمل جرم او تجاوز لما هو مشروع . أليست مهمة الطبقة المتعلمة ، في اي مجتمع سليم البنية ، ان تعرب بوضوح عن شعور الشعب ، وتحذره من الأخطار ، وتوجهه نحو غايات قد لا يدركها دون معونة ، ولكنه يطمح ويتوق اليها حالما ينار له السبيل ؟ ثم إذا كانت نسبة كبيرة من

Digitized by Birzeit University Library

الزعماء والمتعلمين تنتمي الى عدد صغير من العائلات ، لما كان في هـذا ما يدعو الى الدهشة او يستوجب التعنيف . فان من الشروط الأساسية في سـلامة بنية المجتمع ، ديمقراطياً كان او غير ذلك، أن يكون فيه عدد من العائلات التي يوجد فيها الشعور بواجب الخدمة العامة والمسؤولية القومية على مستوى أرفع من المعتاد .

وأحياناً تستخدم هذه الحجة على وجه اكثر دهاء ومراوغة . فيقال دعنا نفترض أن الفلاحين العرب يناوئون الصهيونية الآن . فسبب ذلك أنهم فقراء مظلومون ليس لهم مثل إيجابية في شؤون الاقتصاد والاجتماع . وهذا بدوره يعود الى تقصير الدولة المنتدبة في تنفيذ برنامج انشائي ايجابي . لتشرع الحكومة مشاريع كبيرة للتعليم ، والاصلاح الاجتماعي ، والتحسين الاقتصادي في القرى ، فتتغير نفسية الشعب العربي تغييراً تاماً في الناحية السياسية، ويتعاون العرب واليهود، عن طيبة خاطر، على رفع مستوى معيشة سواد الشعب ـ وهذا واجبهم الحقيقي ـ ويجعلون من واجبهم المشترك ستاراً يسدلونه على خلافاتهم السياسية العقيمة . هذه الحجة قد تستند الى أحد افتراضين . أولها الاعتقاد بأن مخاوف العرب من الصهيونية ليست حقيقية ، وأنها في جوهرها ناشئة عن الجهل ، وأنه إذا أنيرت عقول الفلاحين وحرروا من فقرهم الطاحن ، لتبينوا فوائد الاستيطان الصهيوني وزالت مخاوفهم . أما عماد بحثنا نحن فهو أن أخطار الصهيونية حقيقية لا وهمية ، ولذلك لا يحتمل أن يقلل تنوير الأذهان من مخاوف الفلاحين العرب ، بل يزيدها ويضاعفها . ومما يجدر الانتباه اليه ، دون شك ، أن خيرة المتعلمين من العرب واكثرهم وعياً سياسياً وشعوراً بمسؤوليتهم القومية هم أشدهم مناوأة للصهيونية . وهذه حقيقة لا يمكن إغفالها إلا باغفال الصفوة المختارة بكاملها

Digitized by Birzeit University Library

(كما يميل الصهيونيون إلى إغفالها) على اعتبارها عصابة فاسدة قوامها السادة الاقطاعيون الذين لا يتوقون إلا إلى الاحتفاظ بسيادتهم .

وقد تستند هذه الحجة إلى افتراض ثان ، مؤداه أنه كلما ازداد رخاء الناس ورفاهيتهم ، قل اهتمامهم بالمسائل السياسية والقومية ، وزاد اهتمامهم بالمسائل الاقتصادية ، وأن الرجل العادي ذا العلم والرخاء لا تهمه الشؤون السياسية ، وأن القومية مرض تصاب به المعد الخاوية . وهذا القول أيضاً أبعد ما يكون عن الحق . فالاهتمام بالسياسة يزداد بازدياد الرخاء وزيادة توفر وقت الفراغ وتحسين شؤون التعليم مما يجعل الشعب اكثر شعوراً بمسؤولياته القومية وبأهمية النضال القومي .

٢٤ — لماذا يبيع العرب الاراضي للصهيونيين ؟

لعل لقائل ان يقول: « اذا كان العرب يناوئون الاستيطان الصهيوني حقيقة، فلماذا باعوا هذا المقدار الكبير من اراضيهم الى المنظمات الصهيونية ؟ » والجواب على هذا السؤال لا يكون وافياً بالمرام الا اذا اخذنا بعين الاعتبار اصناف الاشخاص الذين باعوا الارض واسباب بيعهم اياها .

فاليهود يعترفون بأنهم يملكون الآن ما يزيد على ١،٧٦٠،٠٠٠ دونم ، منها :

(١) ٦٥٠،٠٠٠ دونم اشتريت قبل سنة ١٩١٤ . ولا يصح لوم العرب على بيعهم هذه المساحة لأنهم لم يكونوا ، وقت بيعها ، على شيء من العلم بغايات الصهيونية السياسية البعيدة المدى ، ولا بما ينطوي عليه هذا البيع من نتائج اجتماعية .

Digitized by Birzeit University Library

(٢) ونحو ١،١٠٠،٠٠٠ دونم بيعت الى اليهود منذ سنة ١٩٢٠. واكثر من نصف هذه المساحة باعه ملاكون غير فلسطينيين يسكنون خارج هذه البلاد. اذ كان عدد صغير من العائلات اللبنانية والسورية قد نال السيطرة بطرق متنوعة على مساحات واسعة من الارض في اخريات العهد العثماني. فلما فصلت فلسطين عن سورية بعد سنة ١٩١٨، قطعت صلة هؤلاء الملاكين باراضيهم واصبح يصعب عليهم فلاحتها.

وقد كان عدد مالكي الارض هؤلاء من غير الفلسطينيين، صغيراً، وكان ينقصهم الشعور الوطني، فوقع الفلاحون الفلسطينيون ضحية لاعمالهم المخالفة لهذا الشعور. وفي هذه الحالة ايضاً، لا يجوز ان يلام عرب فلسطين على هذه الاعمال.

(٣) هذان الصنفان معاً يمثلان نحو ٧٠ ٪ من الاراضي التي يملكها اليهود. والباقي، وهو ٣٠ ٪، باعه عرب فلسطينيون، وليست هناك وسيلة تبرر عمل هؤلاء البائعين. ولكن لا بد من القول ان ما يزيد على نصف هذه الـ ٣٠ ٪ قد باعه مالكو الاراضي بسبب العسر المالي، وفي بعض الحالات بسبب الجشع. وقد كان عدد هؤلاء المالكين صغيراً، ولا يجوز ان تدان الامة العربية جميعها بسبب ما عملوه.

(٤) اما المساحة التي باعها الفلاحون فلا تبلغ، مهما بلغت، ١٥ ٪ من الاراضي التي يملكها اليهود. ولا وسيلة لتبرئة ساحة الفلاحين ايضاً من هذه الاعمال، وكل ما يمكن عمله ايجاد تفسير لها.

فالفلاح العربي متعلق بارضه، ولكن دخله، كما اثبتت لجنة جونسون وكروسبي سنة ١٩٣٠، لا يكفي نصف نفقة معيشته، (فالايراد نحو ١٣ جنيهاً

Digitized by Birzeit University Library

ونصف ، ونفقة المعيشة خمسة وعشرون جنيهاً) ، وديونه (ومعدلها ٢٧ جنيهاً فلسطينياً) ضعف دخله السنوي . فلا يصعب ، والحالة هذه ، تصور ضائقته المالية . وثمة ظروف ترغمه على بيع ارضه . ولـكنه يندر ان يبيعها الى اليهود مباشرة : فهو اما ان يبيعها لدائنه المرابي ، واما الى سمسار مستخدم لدى اليهود ، وهذا بدوره يبيعها اليهم .

ولا بد من القاء قسم كبير من تبعة بيع الاراضي الناجم عن العسر المالي على عاتق الحـكومة التي لم تتخذ التدابير الـكافية لحماية المزارع او تسهيل القروض الزراعية او مساعدة الفلاح ، بوجه عام ، على استغلال ارضه استغلالا حكيما سهلا .

اما عدد الفلاحين الذين باعوا الاراضي بدافع الجشع ، دون ضغط العسر المالي ، فقليل نسبياً ، ولا يجوز ان يدان الفلاحون العرب جميعهم بسبب ما عمله هؤلاء . ولا يرى العرب شيئاً يشفع لخيانتهم . ولـكن ما من امة رسخت فيها الوطنية رسوخاً لا تستميل معه مغريات الثراء الـكبير نسبة صغيرة من ابنائها .

٢٥ — اخطار الصهيونية

قد تصاغ حجة انتفاع العرب بالصهيونية في قالب معدل ، على النحو التالي : « حتى لو لم يكن مجيء الصهيونيين الى فلسطين ذا نفع ايجابي كبير للعرب ، لما امكن اتخاذ ذلك حجة على الصهيونية ، إذ أن غايتها حل المشكلة اليهودية ، لا المشكلة العربية . وينبغي أن يقضى بشأنها حسب الفوائد التي تقدمها الى اليهود . أما فيما يتصل بخـير العرب ، فأقصى ما يعقل طلبه من الصهيونيين أن لا يلحقوا بهم ضرراً . وهذا شرط في استطاعة اليهود القول أنهم حققوه . فلم يتضرر أي

Digitized by Birzeit University Library

عربي بسبب مجيئهم الى فلسطين ، ولن يكون انشاء دولة يهودية خطراً على العالم العربي » .

ولا حاجة بنا هنا الى تكرار ذكر المبدأ الذي أوضحناه اكثر من مرة فيما مضى وهو أن المسألة الصهيونية لا يمكن الفصل فيها نهائياً باعتبار نتائجها ، حسنة كانت أو سيئة . حتى ولو سلمنا بسلامة المنطق في الحجة الصهيونية، لظل العرب يرفضون الاعتراف بأن الصهيونية ليست خطراً عليهم أفراداً وأمة ، وظلوا يرون أن استيطان الصهيونيين في فلسطين خلال الثلاثين سنة الاخيرة قد سبب لهم ، منذ الآن ، نتائج سيئة في جميع نواحي الحياة ، وهي نتائج ترجح رجحاناً كبيراً على أية فوائد عارضة قد جنوها ، إن جنوا أية فوائد ، أخذت تظهر للعيان ظهوراً تاماً . واذا استمرت الهجرة الصهيونية يحتمل أن تزداد الأخطار والشرور ، لا أن تقل . وفيما يلي محاولات لتفسير حجج العرب بهذا الشأن .

٢٦ – اخطار الصهيونية – الاخطار الاقتصادية في فلسطين

يمكن اجمال النتائج السيئة للصهيونية في الناحية الاقتصادية ، بالقول أن على العرب المساهمة في نفقات المشاريع الاقتصادية الصهيونية وفي مجازفاتها ، ولكنهم محرومون من فوائدها اللهم إلا ما جاء منها بصورة جد عارضة وضمن نطاق ضيق جداً .

ولقد ساهم العرب بنصيبهم في طرق شتى فانشئت المستعمرات الزراعية الصهيونية في أراض كانت من قبل عربية ، حتى إذا انتقلت الى أيدي اليهود ،

Digitized by Birzeit University Library

خسرها العرب الى الأبد بل لم تعد في الواقع جزءاً من فلسطين العربية. وثمة أمر يضارع هذا أهمية وهو أن جميع السكان قد تضرروا من محاولة اقامة صناعة يهودية لا ترتكز على أساس اقتصادي صحيح ، بل في ظل أسوار عالية من التعرفة التي تفرض على الجمارك والمكوس . وقد نجم عن فرض الضرائب الواقية على البضائع المستوردة ، وما صحبه من ارتفاع أسعار البضائع اليهودية ، ان زادت تكاليف المعيشة عند جميع السكان . ففي السنة السابقة للحرب مباشرة كانت أسعار بيع الحاجيات بالمفرق في فلسطين نحو ضعف ما كانت عليه في سوريا ولبنان ، ونشأ عن ذلك انخفاض في الأجور الحقيقية . فقد أثبتت لجنة الأجور أن أجور العرب الحقيقية انخفضت بمقدار ٢٥ في المائة ما بين سنتي ١٩٣٤ و ١٩٣٩ ، في حين أن أجور اليهود الحقيقية لم تنخفض سوى ١٦ في المائة .

أضف الى ذلك أن اعتماد كيان فلسطين الاقتصادي بكامله على استمرار تدفق الأموال اليها من جانب ، وعلى نوع وحيد هام من الصادرات ، هو الحمضيات ، من جانب آخر ، يجعل هذا الكيان بكامله خلواً من الاستقرار مما يسبب أزمات البطالة بين حين وآخر . وقد حدثت أزمتان من هذا القبيل في تاريخ فلسطين المعاصر لم تكونا جزءاً من أزمتين عالميتين ، بل كانتا خاصتين بفلسطين تحملان طابع ظروفها . فقد وقعت الأزمة الأولى سنة ١٩٢٥ ، حين بلغت البطالة اليهودية ما لا يقل عن أربعين في المائة من مجموع السكان اليهود . وكانت البطالة لدى العرب بنسبة مماثلة. وكانت الأزمة الثانية سنة ١٩٣٦، حين بلغ العاطلون عن العمل في سبع مدن فقط ، ٢١ في المائة من العرب و ١٢ في المائة من اليهود . ويبدو أن من المحتمل أن تحدث أزمة مماثلة مرة أخرى ، حين

Digitized by Birzeit University Library

ينتهي عهد الرخاء الذي جاءت به الحرب ، وحينئذ تصبح بطالة العرب التي كانت قليلة خلال بضع السنوات الأخيرة لحاجة الجيش الى العمال ولاسباب أخرى ، ذات نسبة تنذر بالخطر .

والعرب ، وان كانوا يتأثرون باضطراب الكيان الاقتصادي اليهودي في فلسطين ، تأثراً مباشراً أو غير مباشر ، لا يتوقعون أن يصيبوا من الفوائد التي قد يأتي بها هذا الكيان إذا قدر له أن يستقر ، سوى نصيب ضئيل يجيء عفواً . فاليهود قوم ذوو كيان منطو على نفسه منعزل عن غيره ، شأنه في الناحية الاقتصادية كشأنه في الناحية الروحية . ويمكننا أن نضرب عدة أمثلة عل هذا . ولا تكاد توجد حاجة الى الاشارة الى المادة المشهورة في اتفاقات الايجار التي عقدها الصندوق القومي ، التي تنص على « أن يتعهد المستأجر بالقيام بجميع أعمال فلاحة الارض باستخدام عمال يهود فقط » ، وتنص على العقوبات المترتبة على عدم مراعاة ذلك التعهد . ثم أن من النادر استخدام العمال العرب في المشاريع اليهودية وهذا النادر يزداد ندرة يوماً بعد يوم .

وللاعتبارات القومية كل الاثر في توجيه الجهد الاقتصادي اليهودي . وهو يظهر على أبين صورة في الخطة التي يسير عليها اليهود في شراء الاراضي وانشاء المستعمرات . فمن الجلي أن العوامل الاقتصادية لاتلعب سوى دور ثانوي في تقرير الموقع الذي ينبغي شراء الاراضي فيه وموقع انشاء المستعمرات . وان الدور الاول في ذلك إنما تلعبه الرغبة في تقوية مركز اليهود السياسي ، وخاصة في عزل فلسطين عن البلاد العربية المحيطة بها ، وفي تسهيل الهجرة المشروعة . وهكذا تكثر الاراضي المبتاعة على طول الساحل والحدود اللبنانية ، وتضرب

Digitized by Birzeit University Library

الاسافين من الشرق الى الغرب لفصل مختلف الاقسام العربية بعضها عن بعض ، وتحاط المدن العربية الرئيسية بنطاق من الاراضي التي يملكها اليهود .

وبالاختصار لا يراد أن يكون للعرب مركز في الكيان الاقتصادي الفلسطيني الجديد إلا كمستهلكين للبضائع الصهيونية، ولا شك في أن الصهيونيين يستطيعون أن يقدموا أسباباً قومية وسياسية لاستهدافهم إقامة كيان اقتصادي قومي خاص بهم ، ولكن سياستهم تنطوي على خطر كبير يتهدد مصالح العرب ، مهما كانت البواعث الحافزة انتهاجهم هذه السياسة .

٢٧ — اخطار الصهيونية — مجاعة الاراضي

ان ثمة خطراً اقتصادياً للصهيونية ذا أهمية تقضي بان توجه اليه عناية خاصة. ذلك هو خطر ازدحام السكان في القرى ونقص الارض عن حاجتهم بسبب انتقال الاراضي العربية الى أيدي اليهود . فالفلاحون العرب يجدون أراضيهم تنقص عن حاجتهم وسد أودهم نقصاً يدعو الى الشفقة .

وهذا النقص في الارض يؤدي بدوره الى نتيجتين سيئتين هما :

(١) أن نسبة كبيرة من القرويين العرب قد حرمت من أراضيهم بالمرة ، فأخذت تنشأ عن ذلك طبقة كبيرة من الفلاحين العرب الذين لا لا يملكون أرضاً .

(٢) أن لدى باقي القرويين من الاراضي أقل بكثير مما يحتاجونه اليه للقيام بأودهم .

Digitized by Birzeit University Library

يبلغ مجموع مساحة أراضي فلسطين ٢٦ مليون و ٣٠٠ ألف دونم ، أما مساحة ما يصلح منها للزراعة فتقدر تقديرات تختلف اختلافاً بيناً . ولذلك كانت هذه المسألة موضع جدل كبير. واليهود يعنون بزيادة هذا الرقم، ولذلك تراهم يزيدون التقدير ، في حين أن أرقام الحكومة تبدو أقرب الى العقل والتصديق وأبعد عن الهوى والميل، ولذلك نعتمدعليها في البحث . ففي سنة ١٩٣٥ قدرت الحكومة مجموع الاراضي الصالحة للزراعة في فلسطين ب ٨و٧٦٠و٥٠٠ دونم ، وارتفع هذا الرقم في تقدير تال الى ٩و٢٠٠و٠٠٠ دونم ، وسنتخذ الرقم الاخير ، وان كنا لا نعترف بصحته ، عماداً للبحث ونظهر للعيان أنه ، حتى لو كان صحيحاً ، فان صورة الحالة التي يصورها على جانب واف من القتام .

فالأرقام الرسمية تظهر أن اليهود يملكون ١و٥٠٥و٨٠٠ دونم منها ١و١٧٣و٢٧٨ دونماً تقع في المنطقة الصالحة للزراعة وهذا الرقم لا يشمل جميع الاراضي التي يملكونها ، فالوكالة اليهودية تعطي رقماً آخر هو ١و٧٦٥و٠٠٠ دونم وحيث أنه يهمها أن تجعل الظاهر دون الواقع ، فيمكن اعتبار هذا الرقم الحد الادنى لمساحة ما يملكونه ، وقد تبلغ هذه المساحة مليوني دونم . ولكننا سنتخذ الرقم الذي تعطيه الحكومة ، كما سبق القول ، أساساً للبحث ، على الرغم من عدم القبول بصحته ، ونبين ما بلغته مسألة الاراضي من شدة الخطورة حتى لو اتخذ هذا الرقم أساساً للبحث .

يملك اليهود نحو ١٣ في المائة من مجموع مساحة الاراضي الصالحة للزراعة . ولكن هذا لا يعطي صورة صحيحة لقيمتها ، لان اراضيهم تقع في السهول حيث التربة غنية والماء قريب المنال والظروف مؤاتية للفلاحة مؤآتاة فائقة . واذا

Digitized by Birzeit University Library

قدرت قيمة أراضي اليهود حسب الاصناف التي أقرتهـا الحكومة ، تبعاً لنوع الزراعة وخصب التربة ، بلغت أكثر من ٢٤ في المائة من مجوع مساحة الاراضي الصالحة للزراعة .

اما الأراضي العربية ومعظمها في المنطقة الجبلية ومنطقة بئر السبع الشبيهة بالصحراوية فتبلغ مساحتها مجردة من اي اعتبار ٨٣ في المائة من مجموع الاراضي الصالحة للزراعة ، واذا قدرت قيمتها بالنظر الى اعتبار خصبها ونوع زراعتها ، لم تبلغ ٧٤ في المائة .

واذا قدر الحد الأعلى لعدد السكان الذين يمكن ان يعيشوا على الاراضي التي يملكها العرب ، باعتبار اصنافها ومساحة القطعة اللازمة لإعالة العـائلة من كل من هذه الاصناف (وقد سارت لجنة التقسيم على هذا الاعتبار) لكان هذاالعدد ٢٧٠و٣٤٣ شخصاً فقط ، في حين ان العدد الواقعي للسكان الذين يعيشون عليها الآن يبلغ ٩٠٠و٨٧٦ نسمة . وهذا يعني ان الارض لا تكفي إلا لـ ٤٣ في المائة من السكان .

واذا اخذنا فلسطين ، لواء لواء ، وحسبت اراضيها بهذه الطريقة ، تبين ان اراضي لواء الجليل لا تكفي إلا ٤٦ في المائة من سكانه القرويين العرب، واراضي لواء حيفـا لا تكفي سوى ٢٧ في المائة منهم ، ولواء السامرة ٣٩ في المائة ، ولواء القدس ٣٢ في المائة ، ولواء اللد ٧٠ في المائة ، ولواء غزة ٦٦ في المائة ، وقضاء بئر السبع ٩٤ في المائة. وليس هناك لواء واحد خال من ازدحام السكان. اما الأراضي التي يملكها اليهود فتكفي مائة في المائة من السكان القرويين اليهود .

Digitized by Birzeit University Library

وقد تأكد نقص الأراضي ، في تقارير عدد من اللجان ، منها تقرير جونسون وكروسبي وتقرير هوب سمبسون ، وتقرير لجنة التقسيم . وقد اثر نقص الأراضي في السكان القرويين العرب بطريقتين :

اما النتيجة الأولى لنقص الأراضي فهي : ان عـدداً كبيراً من العرب قد اصبح بلا ارض ، إما لأن اليهود قد اجلوهم بالفعل عن ارض كانوا يملكونها سابقاً ، واما لأن اراضي اليهود ، التي قد يمكن ان تسد حاجات هؤلاء العرب في ظروف اخرى ، لا يتيسر لهم استعمالها الآن .

وقد وجد السير جون هوب سمبسون ، سنة ١٩٣٠ ، ان ٤و٢٩ في المائة من مجموع سكان القرى العرب كانوا بلا ارض واذا حسبنا الأراضي التي بيعت منذ تلك السنة ، وزيادة السكان في هذه المدة ، اصبح ٣٣ في المائة من مجموع سكان القرى بلا ارض . ومعنى ذلك ان ثمـة ٢٦٢٫٠٠٠ فلاح عربي ليس لهم أرض ، ويعيشون كعمال مستأجرين ، او يضطرون الى النزوح من قراهم الى المدن .

وكنتيجة لوجود هذه الطبقة من الفلاحين الذين لا يملكون ارضاً ، يتغـير كيان العرب الاجتماعي ، فتنقص نسبة سكان القرى وتزداد نسبة سكان المدن . ففي سنة ١٩٣٠ ، كان القرويون ٦٩و٨ في المائة من مجموع السكان العرب ، فأصبحوا سنة ١٩٤٣ ، ٦٥ في المائة فقط .

النتيجة الثانية لنقص الاراضي هي انخفاض مستوى المعيشة. فقد دل تقرير لجنة جونسون وكروسبي على ان نفقة معيشة عائـلة قروية هي ٣١ جنيهاً فلسطينياً (مع الفائدة المدفوعة على الديون) ، في حين ان دخلها يتراوح بين عشرة جنيهات

Digitized by Birzeit University Library

وسبعة عشر جنيهاً . ومن المحتمل ان تكون هذه الأرقام قد اصابها بعض التغيير في اثناء الحرب ، بسبب ما اصاب الأسعار من التغيير ، ولكن الصورة العـــامة للحالة تظل باقية على حالها .

ولا يمكن اقامة الدليل على امـكان حل مشكلة نقص الأراضي لدى العرب باتخاذ اساليب الزراعة الكثيفة . فهناك ، كما بينا من قبل ، عقبات كأداء تعترض سبيل الأخذ بهذه الأساليب في معظم انحاء البلاد — فمن نقص في الأسواق ، الى نقص في المياه ، الى عدم ملائمة الأرض للزراعة الكثيفة ، الى غير ذلك. ثم ان اي تحسين يمكن اجراؤه بطريق هذه الزراعة لن يفلح في أكثر من ان يحفظ ، للجيل المقبل من الفلاحين العرب ، مستوى المعيشة المنخفض الحالي ذاته . وليس من شيء يمكنه ان يضع حداً للاتجاه الحالي نحو انتقـــال الاراضي ويحول دون سوء ازدياد الحالة عما هي عليه الآن ، إلا منع استمرار انتقال الاراضي منعاً تاماً قاطعـــاً .

٢٨ — اخطار الصهيونية الاجتماعية

ان السير الطبيعي لعرب فلسطين في سبيل التطور الاجتماعي ، شأنه شأن سيرهم في سبيل التطور الاقتصادي ، يعوقه ويحبطه هجرة المهاجرين الصهيونيين الى فلسطين . وفي مهمة بعث العرب بعثاً جديداً من المشاق ما يستنفذ الجهـاد في اي حال من الأحوال . ولكن المشاق تزداد إذا توالى اختلال التوازن الاجتماعي ، بسبب موجات متلاحقة من المهاجرين الجدد الذين يجيئون الى البلاد بمسالك جديدة للحياة والفكر ، ويبذلون جهداً قليلا لهضم ما يجدونه فيها وجعـــله جزءاً من كيانهم .

Digitized by Birzeit University Library

ثم ان دنو الخطر الصهيوني يحول انتباه خيرة ابناء الأمة واكثرهم شعوراً بالمسؤولية عن المسائل الاجتماعية. وحين تقف الأمة ، كما تقف الأمة العربيةاليوم، حيال خطر انهيار كيانها الاجتماعي التقليدي وضرورة اعادة انشائه من اساسه ، لا تقوى على بذل الجهد اللازم لذلك إلا إذا توفر لها نصيب من خلو البال من المشاغل الخارجية وبعض الضمان لبقائها على قيد الحياة . فليس لأحد ان يحلم ، مثلا ، ان تشرع بريطانيا في القيام بمشاريع كبيرة لتجديد كيانها الاجتماعي ، في ذات اللحظة التي وقعت فيها معركة دنكرك . والأمة العربية في فلسطين ظلت في ازمة كهذه منـــذ صدور وعد بلفور . ولم يكن لديها من الجهد إلا ما يقتضيه النضال . ولم تتمكن من وضع الخطط للمستقبل ، لأن وجود مستقبل لها في فلسطين كان نفسه محوطاً بالشكوك . ولم تتمكن في اي حال من اثارة المسائل الاجتماعية ، لأن تلك الاثارة قد تهدد وحدتها القومية بالخطر . وتعتبر إزالة الخطر الصهيوني شرطاً اساسياً لبذل الجهد الـكافي لبعث المجتمع العربي .

٢٩ — اخطار الصهيونية الثقافية والروحية

لا بد ان يكون قد اتضح ، مما اسلفنا من البحث ، ان جميع الأفـكار التي ينطوى عليها بحثنا تعتمد بكاملها على بضعة آراء تتعلق بماهية القومية العربية . واول هذه الآراء ان القومية العربية لا تزال حركة لم تتخذ شكلا مستقراً ، ولا تزال تقارع مشاكل أساسية خطيرة تتصل بمظهر المدنية العربية . وثانيها أن تلك المشاكل ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمشكلة العلاقة التى يجب انشاؤها بين الأمة العربية والغرب . وثالثها أن الجيل الحاضر ذو أهمية فريدة في حل هذه المشكلة .

Digitized by Birzeit University Library

ويعترض العرب على الصهيونية اعتراضاً هو من أشد اعتراضاتهم عليها وأعمقها أثراً ألا وهو أن الصهيونية تزيد في هذه المشكلة تعقيداً بدلا من حلها حلا مرضياً وهو ، على ما فيه من بعض الابهام والغموض ، يتملك مشاعر الناس ضمن نطاق أوسع بكثير من حلقة المتعلمين .

ووجود الصهيونيين ومطامحهم في فلسطين عاملان من العوامل الثقافية والروحية لغايات سياسية . واذا أخذت هذه الصورة أنها صحيحة بوجه عام ، استحال على العرب أن يدنوا من القيم المعنوية الغربية باحترام ودون تعصب أو أن يتقبلوا ما لديه برحابة صدر . وعندئذ يسهل البلوغ الى حالة يعتبر عندها أي اتصال بالغرب لوناً من ألوان الخيانة السياسية ، ويكون للظلامات السياسية المشروعة أثر في فرض وضع ثقافي زائف . وقد جاء وقت على بعض البلدان العربية بدت فيه قريبة من بلوغ هذه الحالة .

وليس هذا أسوأ ما في الأمر . فقد أثبت تاريخ أوروبا خلال بضع سنوات الاخيرة أن من السهل أن يؤدي أي نوع من التوتر السياسي أو الاجتماعي إلى اللاسامية ، واللاسامية بدورها تدخل على الحياة السياسية عنصر الشعور بالسخط والكراهية المرة . ولم يكن العرب في أي وقت مضى ضد اليهود بالمعنى المعروف في أوروبا حتى اليوم ، بعد كل ما حدث في فلسطين ، إذ لا يزال بالامكان التمييز بين الصهيونيين واليهود . ولكن إذا استمر العدوان الصهيوني ، فثمة خطر اصابة العرب بسموم كراهية اليهود ، وهذه السموم تزيد (كما زادت في أوروبا) وطأة أية علل يعانيها تفكير العرب ومجتمعهم .

Digitized by Birzeit University Library

٣٠ — اخطار الصهيونية السياسية

كانت فلسطين قبل سنة ١٩١٧ ، قسماً من الامبراطورية العثمانية ، وكان مركزها في الامبراطورية مساوياً لمركز الأقسام الاخرى. فلما انتهت الحرب العالمية الاولى ، خضعت فلسطين وباقي أقاليم الهلال الخصيب ، لحكم الانتداب. ولكن في حين أن سوريا ولبنان والعراق قد حررت نفسها من هذا الانتداب ، واوشك شرق الاردن ان يحقق استقلاله ، ظلت فلسطين وحدها خاضعة للانتداب . وهي لم تخط خطوة واحدة نحو الحكم الذاتي طيلة السنوات الخمس والعشرين الماضية . والسبب الرئيسي في ذلك هو ، ولا ريب ، وجود الصهيونيين في فلسطين ومطالبتهم بها .

والحرمان المطلق من الحكم الذاتي هو في ذاته شر ، ويرفض على اساس المبدأ . وهو شر مزدوج بالنظر الى النتائج التي تنجم عنه . واخطر هـذه النتائج انه يضرب اسفيناً بين فلسطين والبلاد العربية الاخرى ، لان الحدود والحواجز الجمركية تعوق حرية انتقال الاشخاص ونقل البضائع بين فلسطين والبلاد المجاورة، وبذلك تشوش حركة التجارة وتضعف الوحدة الاقتصادية التقليدية لبلاد الهلال الخصيب . فقد نشأ ، وراء الحواجز المصطنعة انظمة في التشريع والادارة والمالية والتعليم تختلف ، قليلا او كثيراً ، عن انظمة البلاد العربية الاخرى . واخذت تحول الفروق التي بدأت مصطنعة الى فروق طبيعية . وهذا الامر قد اصبح ذا اهمية جديدة منذ انشئت الجامعة العربية لتوثيق الصلات بين البلدان العربية . وعرب فلسطين ممثلون شكلياً في مجلس الجامعة، ولكنهم لا يستطيعون ان يساهموا

Digitized by Birzeit University Library

في اعمال الجامعة ، مساهمة تامة ، ولا ينفذوا قراراتها ، لانهم لا يملكون السيطرة على الحكم في بلادهم ، ولذلك لا يستطيعون ان يحتلوا المكان اللائق بهم في المجموعة العربية الموحدة التي تحاول الجامعة ايجادها .

وما هذا سوى مثال يوضح النتائج السيئة الناجمة عن حرمان عرب فلسطين من الحكم الذاتي ، ذلك الجهاز القيم لتوجيه السياسة القومية ، خصوصاً في وقت تتطور فيه الامة وتتغير. وحكومة فلسطين حكومة اجنبية لا يمكنها الشعور بالمسؤولية القومية على نحو ما تشعر به حكومة من اهل البلاد ، وهي لا تفهم دخائل نفس الشعب ، ولا تعطف على حاجاته ، حتى تتمكن من اتخاذ خطة حكيمة نافعة تحقق بها مصالحه . ولذلك لم تكن جهود الحكومة حسنة التوجيه ، حتى في حالة استهدافها خير السكان ورفاهيتهم ، ثم انها لم تتمكن، في وقت من الاوقات، من جعل خير الجمهور ورفاهيته هدفها الاول ، بل كان الضغط الصهيوني والرغبة في اجتناب التحيز ، يحيدان بها عن سواء السبيل في كل موضع . وهذا يظهر في كل جانب من اعمالها — في رفضها تعيين العرب في مناصب الحكم ذات المسؤولية ، وفي تخلفها عن انشاء جهاز صالح للحكم الذاتي المحلي ، وحتى في الاحتفاظ بنظام الحكم المحلي الموروث عن العهد العثماني، وفي رفضها مؤخراً استمرار التقليد الذي يقضي بتعيين شخص عربي رئيساً لبلدية القدس ، وفي تطبيقها سياسة بشأن تعرفة الجمارك والمكوس لحماية الصناعة اليهودية على حساب المستهلكين ، وفي تخلفها عن تقديم التسهيلات الوافية فيما يتصل بشؤون التعليم والخدمات الاجتماعية والتسليف الزراعي .

وليست هذه كل النتائج السيئة التي يعقبها هذا الحرمان من الحكم الذاتي .

Digitized by Birzeit University Library

فانه قد وضع العراقيل في سبيل الافراد ذوي الكفاية والروح العامة ، الذين لو كانوا في بلاد اسعد حظاً (ومن بينها البلاد العربية الاخرى) لوجدوا مجالا لكفاياتهم ومنفذاً الى ميدان الخدمة العامة ، ولكنهم في فلسطين حرموا الفرصة لحمل المسؤولية ولتحقيق آرائهم ومثلهم في الخير العام .

وربما كان اقوى اثر لنظام الحكم الحالي هو اضعاف الروح المعنوية ، وهذا ناشىء عن انعدام الرابطة المعنوية بين الحاكم والمحكومين ، وعدم تمتعه بولائهم وقبولهم ورضاهم . فالحكومة ليست حكومتهم ، وهم لايعتبرونها قائمة لخيرهم او يحق لها عليهم الطاعة ، ولذلك كانت فكرة الولاء السياسي ذاتها مهددة بخطر الضياع .

وقد بدأت هذه النتائج السيئة جميعها تظهر تحت ظل الانتداب . حتى لو اقيمت دولة يهودية ، لظهرت هذه النتائج بشكل مبالغ فيه ، إذ يعزل عرب فلسطين عزلا تاماً عن عرب البلدان الاخرى ، ويرغمون على السير في سبيل يختلف عن سبيل هاتيك البلدان اختلافاً كلياً . ولا يكون لهم سوى نصيب صغير في الحكم ، ولا يتوقعون ان يحسب لمصالحهم حساب ، بل يجعلون في مركز الاقلية بمعناها السيىء الرامي الى جعلهم جماعة منعزلة منقطعة عن غيرها ، ولا يتمكنون في اي وقت من الفرار من هذا الوضع لانهم لن يندمجوا في الاكثرية اليهودية او يصبحوا جزءاً من كيانها .

٣١ — اخطار الصهيونية على العالم العربي

لو كانت الشرور والاخطار التي عددناها فيما سبق مقصورة على فلسطين ،

Digitized by Birzeit University Library

لكان فيها ما يسوء بقدر واف ، ولكنها لا تهدد فلسطين وحدها بل البلدان المحيطة بها ، وخاصة بلدان الهلال الخصيب .

ولسنا نغالي اذا قلنا ان الخطر محدق ومباشر . فقد كان مطلب الصهيونيين وادعاؤهم منذ البدء ، امتلاك ما يزيد كثيراً على فلسطين بحدودها الحالية ، إذ ارادوا السيطرة على شرق الأردن ايضاً ، وربما المناطق الجنوبية من سوريا ولبنان، كما انهم لم يعترفوا ، في اي وقت مضى ، بفصل شرق الأردن عن فلسطين ، او بقرار حصر سياسة الوطن القومي في فلسطين وحدها ، ولم يرضوا بذلك ولعلهم لم يروا من الحكمة السياسية ان يطالبوا مطالبة صريحة بشرق الأردن في حين ان سيطرتهم على فلسطين لا تزال في قلق . ومع ذلك فقد تجلى شعورهم الحقيقي نحو ذلك القطر . في الأثر الذي تركه فيهم الوعد الذي اعطاه المستر بيفن مؤخراً بشأن استقلاله .

حتى لو لم يكن للصهيونيين في السابق مطامع في البلدان المحيطة بفلسطين فان المنطق الذي قامت عليه حركتهم ، سيؤدي بهم ، إن عاجلا او آجلا ، الى التوسع والعدوان . وذلك لأسباب سياسية واقتصادية على السواء . فمن الناحية السياسية يحتمل ان تجرهم الحاجة الى معالجة شؤون الأقلية العربية عندهم — وهي لن تقبل بحكمهم عن طيبة خاطر — الى معاداة البلدان العربية المحيطة بهم بسبب محاولتهم منع المساعدة الخارجية الى هذه الأقلية . وليس هذا القول مجرد حدس وتخمين بل هو واضح لكل من انعم النظر في الخطة التي ينهجها اليهود في شراء الأراضي على طول حدود فلسطين ، او راقب مساعي الوكالة اليهودية

Digitized by Birzeit University Library

لاقامة صلات ودية مع الحكومات او القوى الاخرى التي لها مصلحة في مناوأة القومية العربية او يعتقد ان لها مثل هذه المصلحة .

اما من الناحية الاقتصادية ، فثمة الرغبة في تأمين الاسواق والحاجة الى تهيئة الوسائل لازدياد السكان ، وكلتاهما تؤدي الى التوسع . ويتضح انه لا وسيلة لتهيئة الوسائل لعدد السكان الذي يأمل فيه الصهيونيون سوى تحويل فلسطين الى بلد صناعي . وان هذا التحويل لا يمكن إلا إذا ضمنت الاسواق للبضائع الصهيونية في بلدان الشرق الاوسط . وبالنظر الى فقدان المواد الاولية وارتفاع اجور العمال وعوامل اخرى لا يحتمل ان تتمكن الصناعة الفلسطينية من تزويد بلدان الشرق الاوسط ببضائع تضارع رخص اسعار بضائع مصر او سوريا مثلا او تشبه في جودة صنعها بضائع الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ولذلك لا يضمن وجود الاسواق الخارجية إلا باستعمال الضغط السياسي .

يضاف الى ذلك انه يسهل تصور ظروف تنتهج فيها الدولة اليهودية سياسة للهجرة على مقياس كبير يتعدى قدرة فلسطين على الاستيعاب الاقتصادي. وحينئذ يكون لزاماً على تلك الدولة ان تحاول التوسع واقرار الزائد من سكانها في البلدان المحيطة بها او ان تنقل سكانها العرب الى احدى البلدان العربية الاخرى . وهذا ايضاً ليس مجرد حدس وتخمين بل يتضح لدى اعتبار مطالبة الصهيونيين بفتح ابواب شرق الاردن للاستيطان اليهودي ولدى النظر في مختلف المشاريع التي اقترحت خلال بضعة الاعوام الاخيرة لنقل العرب الفلسطينيين الى شمالي العراق.

Digitized by Birzeit University Library

٣٢ — أهمية فلسطين للعالم العربي

قد تكون آخر حجة من حجج الصهيونيين قولهم : أنه ، حتى لو كانت الصهيونية ضارة بعرب فلسطين ، ففلسطين جزء صغير جداً من العالم العربي قليل الاهمية له . فمساحتها ليست سوى جزء من المساحات الشاسعة التي يتصرف بها العرب . كما أنها ليست مركزاً للثقافة العربية ولم تكن كذلك في أي وقت مضى. واذا قورن حرمانها الاستقلال باعتراف باستقلال سبع دول عربية كان أمراً تافهاً .

وقد أجبنا على هـــذا الادعاء ، بصورة جزئية ، حين أوضحنا أن أخطار الصهيونية تمتد بعيداً وراء فلسطين الى الشرق الاوسط بأ كمله . وهذا يصح حتى لو لم تكن فلسطين قطراً عربياً ، وكانت في أي موقع من الشرق الأوسط . ولكن هذا ليس كل ما في الأمر . ولذلك يجاب عن الادعاء الصهيوني ، إجابة أوفى وأدق ، بالقول أن فلسطين جزء لا يتجزأ من العالم العربي ، وهي فوق ذلك ذات أهمية خاصة له .

فهي جزء لا يتجزأ من العالم العربي . أي أن ما يصيبها ويؤثر بها يصيب العالم العربي بكامله ويؤثر عليه ، وأن نضالها يثير عطفه الفوري العميق ، وأن استقلال العرب ووحدتهم لا يتمان ما دامت فلسطين مستثناة ، وأن هذا كله لا يتوقف ، في قليل أو كثير ، على حجم فلسطين أو أهميتها باي شكل من الأشكال . ولكن ، بالاضافة الى هذا ، تتمتع فلسطين بأهمية خاصة في العـالم العربي . فهي بلاد مقدسة لدى المسلمين بقدر لا يقل عن قدسيتها لدى المسيحيين واليهود، وهي

Digitized by Birzeit University Library

لذلك تحتل مكانة رفيعة في ثقافة العرب التقليدية التي تتمركز حول الاسلام . ومن جهة أخرى ، يعطيها موقعها الجغرافي أهمية استراتيجية خاصة ، ذلك أنها في موقع يعطيها السيطرة على طرق المواصلات التي تسير من الغرب الى الشرق وتصل أوروبا بآسيا براً وجواً ، والسيطرة على الطرق التي تسير من البلدان العربية الآسيوية الى مصر لا تقل أهمية عن تلك السيطرة . وفيها قاعدة من خير القواعد البحرية في شرق البحر الأبيض المتوسط ، كما ينتهي فيها أحد خطي أنابيب البترول الممدودين من كركوك . ولا يصح استقلال العرب ، كما يكون اتحادهم (خصوصاً إذا شمل مصر) موضع سخرية ، ما لم تبق فلسطين عربية .

يضاف الى هذه الاعتبارات، التي ظلت ذات أهمية عظيمة في جميع الأوقات، اعتبار آخر ذو أهمية خاصة في العصر الحاضر : هو أن العالم العربي يقع بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي ، وقد كان مركز الحياة فيه يتراوح بينهما على مر القرون. ولكن السيادة الآن للبحر الأبيض المتوسط. فأصبح واجب العرب الاول التفاهم مع الغرب ، وأصبح العالم العربي بأجمعه يتجه ، بكل ما أوتي من قوة ، نحو البلاد الواقعة على سواحل هذا البحر ، ولا يستطيع العيش بدونها ، ولذلك فان أية سياسة تهدد بانتزاع أي جزء من بلادهم الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط وتسليمها الى أيد أجنبية ، أو الى أيد يحتمل أن تكون معادية لهم تعتبر سياسة ذات أخطار عليهم .

٣٣ — الصهيونية واستقرار الشرق الاوسط

حين تفهم الاخطار الاصلية في الصهيونية ، فهماً تاماً ، وتدرك أهمية فلسطين

Digitized by Birzeit University Library

للعالم العربي ، يتضح السبب في اعتبار العرب أن مستقبلهم جميعاً مرتبطاً بالمسألة الصهيونية ارتباطاً تاماً وثيقاً . فجميع العرب المفكرين يعتقدون اعتقاداً راسخاً أن القضاء النهـائي عن الخطر الصهيوني هو أول شرط لتكوين مجموعة عربية مستقرة مطمئنة مرتبطة بنفسها وبالعالم برباط السلام .

ويمكن وصف الخطر الصهيوني بالقول أنه ما دام قائمـاً يتهدد العـالم للعربي فان أي جرح أو مرض يصيبه قد يقضي عليه . ففي جسم كل أمة مواضع اجهاد أو ضعف ، وفيه اضطرابات داخلية وظلامات إذا عولجت معالجة حكيمة سريعة لم يكن منها ضرر . ولكن إذا زادت أو اشتدت فقد تؤثر في الجسم كله ، ويكون بينه وبين العالم الخارجي سوء تفاهم تسهل إزالته في جو يسوده الهدوء والثقة ، ولكنه يبقى ويسوء مع مرور الوقت إذا فقدت الثقة وحلت محلهـا الريبة . واليوم يكثر في العالم العربي هذا الضعف والتوتر . وما دامت الظلامة الـكبرى من الصهيونية قائمة ، استحال علاج هذا الضعف والتوتر وشفاء العالم العربي منهما . ويمكن تفصيل هذه الحقيقة وايضاحها بالطريقتين التاليتين : —

فمن جهة نجد ، في العصر الحاضر الذي تكثر فيه المشاكل المعلقة بين العرب وبريطانيا العظمى أو الدول الغربية الاخرى أن أيـة تشجيع يناله العدوان الصهيوني من بريطانيا العظمى أو أية دولة غربية أخرى يثـير استنكاراً وتذمراً مراً . وقد يتفاعل مع الشعور بظلامة محلية فيولد انفجاراً . وقد اتضح هذا في بضع السنوات الاخيرة . فحركة رشيد عالي في العراق سنة ١٩٤١ ومختلف الازمات التي أصابت العلاقات بين سوريا ولبنان من جانب فرنسا من جانب آخر منـذ سنة ١٩٤١ والاضطرابات التي حدثت في مصر وطرابلس مؤخراً هذه كلها

Digitized by Birzeit University Library

ربما كانت تحدث على شكل من الاشكال حتى لو لم تحركها المشكلة الفلسطينية . ولكن لا شك في أنه لولا الظلامة من الصهيونية لما كان لاي منها المرارة التي كانت لها في الواقع ، ولما اتخذت الشكل ذاته الذي اتخذته .

ومن جهة أخرى ، نجد في الصهيونية حركة لا تستطيع تحقيق أهدافها ، أو صيانة ما أحرزته ، بقوتها هي وحدها ، بل ترغم دائماً ، في حالتي تحقيق أهدافها وصيانة ما أحرزته على السواء ، على البحث عن حلفاء لها ضد العرب . ستحاول الصهيونية، بل أنها منذ الآن حاولت، التحالف مع أية قوة خارجية لها مطامع في العالم العربي . وأخطر من ذلك أنها ستبحث أيضاً عن حلفاء لها ضمن العالم العربي بين جماعات الاقليات من عنصرية وطائفية وغيرها لم توفق بعد الى الاتفاق مع الاكثرية . وقد تواصل الصهيونية بهذه الطريقة العمل الهدام الذي بدأته الدول الكبرى في القرن التاسع عشر للتغرير بالاقليات بإيهامها أن هناك حلا غير الاتفاق مع الاكثرية، فتحول بهذا دون تكوين أمة عربية يسودها الانسجام، وتبذر بذور النزاع المدني والفوضى فيها .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الثالث

مقترحات العرب لحل المشكلة

١ — خلاصة عن معارضة العرب للصهيونية

حينما تقع حجج الصهيونية الرئيسية تحت المجهر تبدو الأسباب التي تحمل العرب على رفض مشروع تأسيس دولة يهودية في فلسطين جليه واضحة . ويمكن اجمالها فيما يلي :

(١) ان معارضتها بادىء ذي بدء لهي معارضة أولية . انهم سكان فلسطين الأصليون ولا يزالون يؤلفون أغلبية السكان فيها . وبهذه الطريقة يدعون بأن من حقهم تقرير الأمور كالهاجرة مثلا وسياسة الأراضي وجميع المسائل التي تؤثر في مصير الشعب ووطنه . لقد قاوموا وسيقاومون حتى النهاية أية محاولة ترمي الى فرض الهجرة والاستعمار الصهيوني عليهم دون موافقتهم وضد معرفتهم ومشيئتهم .

وبعبارة أخرى ، فان العرب ليعتمدون في موقفهم على المبادىء الديمقراطية . ومن اللازم أن تقوم ماهية الحكومة وسياستها على موافقة المحكومين . واذا ما نجم خلاف في الرأي فان ارادة الأغلبية يجب أن تسود . وانهم ليجدون شيئاً غير منطقي في سياسة الصهيونيين الذين يطلبون أن تصبح فلسطين دولة ديمقراطية حرة ثم يسرعون فيضيفون إلا أن هذه الدولة الديمقراطية الحرة يجب

Digitized by Birzeit University Library

أن لا تؤلف بطبيعة الحال حتى يصبح اليهود الأكثرية . وان العرب ليرون أنه إذا كانت مبادىء الديمقراطية نافذة فيجب أن يعمل بها هنا وفي هذه الآونة لا في المستقبل المفروض . واذا كان الصهيونيون يؤمنون بهذه المبادىء حقاً ، فيجب أن يحاولوا ادراك غايتها باتباع الأساليب الديمقراطية ، وذلك بمحاولتهم اقناع الأغلبية وضمان موافقتها ، لا بالاعتماد على الدول الأجنبية كيما ترغم الأغلبية على الخضوع والاستسلام .

(٢) حتى ولو كانت نتائج الهجرة اليهودية غير سيئة فان العرب لا يزالون يقاومون أية محاولة لفرضها عليهم دون أخذ موافقتهم عليها . ومهما يكن من أمر فانهم ليعتقدون بأنها عبء ثقيل وذات نتائج وخيمة العواقب — هذه النتائج التي ذر قرنها وستزداد سوءاً باستمرار المهاجرة .

(١) ان وجود الصهيونيين وضغطهم قد حالا دون سير عرب فلسطين في ركب اخوانهم سكان البلاد العربية المجاورة ومضيهم في طريق الحكم الذاتي واشتراكهم في عضوية المجتمع العالمي . لقد كان شأن فلسطين قبل حرب سنة ١٩١٤ شأن الأصقاع الأخرى من الهلال الخصيب عضواً ممثلا تمثيلا تاماً في المملكة العثمانية . وبعد سنة ١٩١٨ خضعت كسائر تلك الأقطار للانتداب . ولكن في حين أن الدول التي كانت تحت الانتداب قد نالت استقلالاً تاماً أو هي على وشك الاستقلال ، فان فلسطين لا تزال تحت الانتداب ولا تزال محرومة من جميع المؤسسات التمثيلية ، وليس لسكانها صوت في المجالس العالمية ، ولا هم يساهمون في الحكم أو في المناصب الادارية

Digitized by Birzeit University Library

العليا في وطنهم والسبب في ذلك كما صرح بوضوح المستر تشرتشل في رسالته للوفد العربي سنة ١٩٢٢ ، اي قبل ٢٤ سنة ، ليس لأن الفلسطينيين اقل مقدرة على حكم انفسهم بانفسهم من العرب وغيرهم، بل يعود ذلك الى وجود الصهيونيين والى الالتزامات التي قطعتها بريطانيا العظمى لهم .

(ب) لقد نص الكتاب الابيض الصادر سنة ١٩٢٢ على انه ليست هنالك مسألة تجعل فلسطين فاقدة لسمتها العربية . ولكن هذا في الواقع ما هو جار . فلقد شطرت فلسطين من الوحدات الطبيعية التى تنتمي اليها — اي سوريا الجغرافية ، والهلال الخصب ، وعرب اسيا — بحدود اصطناعية سياسية . وقد اصبح لها تشريع خاص منفرد وادارة خاصة وتعليم خاص كما قيـــدت حرية مرور الاشخاص والبضائع بينها وبين الاقطار العربية الأخرى . وان ادارتها لتتبع سياسة لا في المسائل السياسية الرئيسية فحسب ، بل في المسائل المالية والتجارية والزراعية، هي في غالب الاحيان ليست في مصلحة السكان العرب في فلسطين . وكل هذا سيؤدي حتما الى اضعاف مسحة فلسطين العربية . و بوجه خاص ، فان هذا مرفوض في زمن كوقتنا هذا اصبح فيه شعور الامة العربية المشترك منتعشاً ، وحين تجري محاولة لتعزيز عرى الاتحاد بين الاقطار العربية بواسطة جامعة الدول العربية . وهنا ايضاً تجد ان ليس ثمة من سبب يدعو الى اتباع الخطة التي انتهجتها الحـكومة سوى وجود الصهيونيين واهدافهم .

Digitized by Birzeit University Library

(ج) لم ينكر على العرب وصولهم الى الحكم الذاتي والاتحاد بهيئة الامة العربية فحسب ، لكنهم مهددون بخطر صيرورتهم أقلية خاضعة لارادة الأغلبية الأجنبية الغريبة . وكمبدأ ، فانهم لا يستطيعون أبداً قبول ذلك كما لا يرضى بذلك اي شخص اصيل متوطن في اية بلاد اذا وضع في ظروف مشابهة لهذه الظروف . وبغض النظر عن مسألة المبدأ ، فان الروح والطرق المفزعة التي تجنح اليها الوطنية اليهودية لا تجعل هنالك اساساً للامل بان الاقلية في دولة يهودية ستلاقي معاملة مرضية . وجدل الصهيونيين القائم على انهم انفسهم قاسوا من الآلام ، كاقلية ، كثيراً وان من المحتمل ان تقاسي الأقلية اليهودية الآلام عينها ليس حجة مقنعة ، وليس من السخرية ان يقال ان العكس من ذلك هو أمر معقول سواء بسواء .

(د) من المحتمل ان ينجم عن استمرار الهجرة اليهودية الى فلسطين ، سواء أقيمت الدولة اليهودية أم لم تقم صعوبات اقتصادية لعرب فلسطين، ان يكون نموالسكان العرب. وحيازة الصهيونيين لجزء جسيم من أراضي السهول الخصبة مما يزيد المشكلة صعوبة وذلك في اكتظاظ الأراضي الجبلية القاحلة بالسكان حيث يحتشد القرويون العرب هناك . وتحسب هذه المشكلة أشد القضايا خطورة ، ذلك ان الصهيونيين يرفضون استخدام العمال العرب في أراضيهم . ان اعتماد جميع اقتصاديات فلسطين على صناعة الحمضيات من ناحية ، وتدفق الأموال الاميريكية من ناحية اخرى ، من المحتمل ان يسببا كساداً

Digitized by Birzeit University Library

وتشريداً . زد على هذا ان مقدرة اليهود الفنية العظيمة والموارد التي يستقون منها اموالهم قد تؤدي الى حالة، مهما كانت فيها الموارد التجارية والصناعية التي تمتلكها فلسطين، تجعل هذه الموارد في ايدي اليهود، ويصبح الشعب العربي في مدنه وريفه طبقة فقيرة تعيش بكدها .

(هـ) ان التقدم الاجتماعي الحقيقي للعرب الذي يسير بخطى واسعة الى الأمام قد التوى ، وسيزداد التواءاً، من جراء ضغط الطائفة اليهودية التي لا تبدو في حياتها وتكوينها الاجتماعي غريبة عما ألفه العرب فحسب ، بل انها لكذلك في بعض اتجاهاتها الشاذة وذلك ان العدوى قد سرت اليها من الأمراض الاجتماعية التي أصابت المجتمع الاوروبي في هذا العصر ، وغيرها من الأوبئة الخاصة باليهود . وقد ازداد هذا الالتواء من جراء تدفق الامواج العارمة من المهاجرين الجدد وكل منهـا يطلب ان يندمج حال وصوله وبهذا يصبح من المستحيل على الطائفة اليهودية ان تستقر وتفقد ميزاتها الشاذة .

(و) يعتبر وجود الصهيونيين وادعاءاتهم عقبة كأداء في أعمق حدود الثقافة والروح تحول دون قيام العرب بانجازهم واجباتهم الملحة في هذا العصر ، وهي فهم المدنية الغربية واتخاذ الموقف المقنع ازاءها . لقد اصبحت الصهيونية في اعين العرب رمزاً لأشد ما يمقتون من المدنية الغربية ويرتابون به ، وذلك العجب والكبرياء واحتقار الضعف والمادية وازدراء التقاليد وفقدان مقاييس الفكر والسلوك الحقيقية . وما دام العرب يواجهون خطر تسلط الصهيونية حليفة

Digitized by Birzeit University Library

الاستعمار الغربي ، فان من الصعب عليهم ان لم نقل من المستحيل ان يؤسسوا علاقات عادية قويمة مع العالم الغربي .

(٣) ليس ثمة فوائد يؤمل جنيها من الصهيونية والتعويض بها عن مساوئها واخطارها الظاهرة :

(أ) ان ازدهار فلسطين الاقتصادي واطراد تقدمها خلال الثلاثين سنة الماضية ليسا في الواقع إلا وهماً وخيالا . ويقابل زيادة الدخل المالي في الغالب ارتفاع في تكاليف المعيشة . زد على هذا ان التقدم الاقتصادي في فلسطين ، كيما يفهم حقيقياً صحيحاً ، يجب ان ينظر اليه كقسم من التقدم ذاته في الشرق الاوسط .

وبالقدر الذي كان هناك ازدهار اقتصادي كان هذا جزء من الازدهار العام الذي عم كافة الشرق الأوسط. وان عرب فلسطين لم يتقدموا في هذا المضمار اسرع او أبعد من البلدان العربية الاخرى.

(ب) وكذلك فان تقدم العرب الاجتماعي خلال الثلاثين سنة الماضية قد نجم في الغالب عن التقدم العمومي الذي عم العالم العربي باسره وعن الجهود التي قام بها العرب انفسهم . وليس هو اعظم من التقدم الذي اصابته الاقطار العربية الأخرى. ان المؤسسات الصحية اليهودية وغيرها من المؤسسات الاجتماعية اليهودية لم تعمل الا عرضاً و بدرجة محدودة على رفاهية العرب . وان اية مساعدة قامت بها تبرهن على تخلف الحكومة وتقصيرها في تقديم الخدمات الاجتماعية الكافية . وهذا التقصير يرجع في الغالب الى انفاق الاموال العامة على مصالح

Digitized by Birzeit University Library

الأمن ، من جراء القلق العام الناجم عن وجود الصهيونيين .

لقد نشأت لدى العرب من تلقاء انفسهم نماذج جديدة لمنظمات اجتماعية كالنقابات العمالية . وقد وجه الصهيونيون همهم المباشر الى تشويهها واستعمالها كأداة للاهداف السياسية .

(ج) وان اليهود بحكم الضرورة لا يستطيعون ان يساهموافي انعاش الثقافة العربية الا قليلا طالما ان حياتهم الثقافية التي يحيونها محصورة في « غيتو » اللغة العبرية غير المنظور . فالمدارس اليهودية مقصورة على اليهود دون سواهم . وان ادعاء اليهود بان مساهمتهم في الايرادات العامة قد مكنت من تأسيس المدارس العربية صحيح على مدى ضيق فقط . وان اية اعانات قد ساهموا فيها لا تفي بانفاق الاموال العامة على مصالح الأمن التي باتت ضرورية من جراء وجودهم وادعاءاتهم . ان تقدم عرب فلسطين في هذه الناحية ، كما هو الحال في نواحي الحياة الأخرى ، لم يكن باعظم ولا اسرع منه في البلاد العربية ولا نقول اكثر من ذلك .

(د) ومن الناحية السياسية ، فان وجود الصهيونيين ومطامحهم قد حالا دون تمتع العرب باستقلالهم كما تمتع به اخوانهم في الاقطار العربية الاخرى . وقد جعلوا من المستحيل الوصول الى علاقات مرضية مع بريطانيا العظمى كالعلاقات التي اقامتها العراق ومصر معها والتي يمكن اقامتها بسهولة في هذه البلاد في ظروف غير هذه الظروف ، كما انهم قد جلبوا معهم عنصراً من المرارة والعنف ادخلوه في الحياة

Digitized by Birzeit University Library

السياسية . وسينشأ في المستقبل خطر أعظم من جراء اخضاع العرب الى حكومة اجنبية وشعب غريب .

(٤) ان اخطار الصهيونية لا تنحصر في فلسطين وحدها ، بل انها تمتد بصورة كلية او جزئية الى سائر انحاء العالم العربي الأخرى .

(أ) وان مجرد مقاومة عرب فلسطين العنيفة للصهيونية تعتبر عاملا من العوامل الباعثة على التوتر في العالم . حتى ولو اقتنع عرب الاقطار المجاورة بان ليس ثمة شيء يخيفهم من الصهيونية ، فان حياتهم السياسية تظل قلقة ، وسينفرون الى العمل عطفاً منهم على عرب فلسطين .

(ب) وبحكم فعل الحوادث الطبيعية فان الدولة اليهودية في فلسطين ستصطرع حتماً مع الدول العربية المجاورة ، ولن ينجم هذا عن العداوة الفطرية بين العرب واليهود ، بل لأن اليهود ، وقد فرضوا انفسهم على فلسطين ضد ارادة العالم العربي ، سيشعرون بانهم غير آمنين وغير مرغوب فيهم في عالم يناصبهم العداء . ومن المحتمل ان ينجم ذلك بسبب ضغط السكان الموجودين ضمن حدود فلسطين الضيقة . وفي مثل هذه الظروف اما ان الدولة اليهودية تحاول التوسع واما ان تتحالف مع سائر قوى تمزيق العالم داخلا وخارجا .

(ج) ومن الناحية الاقتصادية فان نظرة الصهيونيين هي ان يجعلوا من فلسطين بلداً يهودياً صناعياً تحيط به وتسوده مجموعة من الاقطار العربية الزراعية . والخطر الجاثم في هذه النظرة واضح جداً للذين

Digitized by Birzeit University Library

درسوا الطريقة التي اتبعتها المانيا النازية حيث استعملت مركزها الصناعي بغية فرض سيادتها السياسية على الاقطار الزراعية في اوروبا الشرقية .

(د) وبالقدر الذي حاولت فيه الصهيونية ان تنفذ اهدافها ومآربها بالتحالف مع بعض الدول الغربية ، فقد اصبحت في اعين العرب محكاً لما يبيته الغرب للعالم العربي . وقد حال ذلك دون الوصول الى علاقات سياسية مرضية بين العرب والدول العظمى واضحت النتائج المتأتية عن ذلك ملموسة في جميع نواحي الحياة .

وهذه الاخطار واضحة لمدى ضيق وفي بعض الاشكال ، ولذلك فان العرب على اختلاف طبقاتهم في كل صقع من اصقاع العالم العربي يساهمون في مقاومة الصهيونية .

٢ — مطالب العرب : (١) الحكم الذاتي

ان ابرز مطالب العرب وأهمها تأليف دولة فلسطينية تحكم نفسها بنفسها حكما تاماً ، وانهاء الانتداب ، وعقد اتفاقيات اختيارية مع الدول التي لها مصالح بفلسطين ، وذلك في أقل ما يكون من التأخير وقد اقترح ذلك في الكتاب الابيض الصادر سنة ١٩٣٩ . غير انه لم ينفذ شيء من ذلك حتى الآن فيما يتعلق بتطبيق الاحكام التشريعية التي وردت في الكتاب الابيض المذكور .

وهذا المطلب قائم على أساس وطيد ، ذلك ان العرب يعتبرون ان الحكم الذاتي حق من حقوقهم ، مؤسس على امتلاكهم للبلاد ردحا طويلا من الزمن ،

Digitized by Birzeit University Library

وقد اقرته الوعود والتعهدات الخطيرة المقطوعة لهم . ورداً على حجة ما اذا كانت البلاد قد نضجت نضجاً يمكنها من الحكم الذاتي ، وان مشكلة العلاقات بين العرب واليهود يجعل من غير المستحسن تأليف مؤسسات تمثيلية ، يقولون ، اولا ، انهم ليسوا اقل اهلية لحكم انفسهم بانفسهم من اخوانهم في الاقطار العربية الاخرى ، وثانياً ، انه مع مضي الوقت يحتمل ان تصبح مشاكل البلاد الحالية اسوأ من ذي قبل ، الا اذا اتخذ حل جريء الآن . وبالاضافة الى الحجة المتعلقة بالمبدأ فان هنالك سبباً عملياً مستعجلا يقضي بتأليف مؤسسات الحكم الذاتي ، فما دام عرب فلسطين لا صوت لهم في تقرير مصيرهم السياسي ، يظل أي قرار يتعلق بالهجرة وبيوع الأراضي وانشاء وطن قومي ، مزعزعاً وعرضة للتغير او الالغاء .

لقد مضى على العرب ربع قرن تحت الانتداب ، وقد علمتهم التجارب والاختبارات خلال تلك الفترة كيف تغير الحكومة ذات قوة عالمية سياستها تغييراً تاماً وباسرع ما يمكن ، وما اكثر ما تغيرها . فان زيادة ضغط احدى الجهات ، او بعض التغيير الذي يحدث في أبعد أرجاء العالم ، قد يرغم الحكومة على ان تعيد النظر فيما اعلنت انه سياستها المقررة وان تعيد البحث في مسألة اعتبرتها مقفلة ، حتى ان تحطم او تعيد تفسير أهم العهود والمواثيق المقطوعة . وان تاريخ فلسطين خلال ربع القرن الماضي قد وضح هذه الحقيقة توضيحاً تاماً ، وان العرب لن يشعروا بالسلامة ما لم يصبح لهم حق السيطرة على مصيرهم السياسي .

أضف الى هذا ان الكتاب الابيض قد اشترط ان هجرة اليهود يجب ان تعتمد على « قبول » العرب ، وقد جاء في بيان مستر بيفن اشارة غامضة ان العرب قد استشيروا فيما يتعلق بالهجرة . بناء على ذلك سلم بالمبدأ القائل ان هجرة

Digitized by Birzeit University Library

اليهود هي مسألة يجب ان يؤخذ فيها على الاقل رأي العرب . ولـكن لما كانت المؤسسات التمثيلية مفقودة ، فليس هنالك طريقة تمـكن من تعريف وتحديد لفظي « قبول » و « استشارة » تحديداً دقيقاً . ففي هذه الظروف الحالية لا مناص من ان يكون ثمة شيء جائز او غير مرض لجميع الفرقاء في اية محاولة تجري لاستشارة العرب او الحصول على موافقتهم كما انه هنا ترى بذور سوء التفاهم والصراع الخطرة . وان من مصلحة كل من العرب والحـكومة المنتدبة ان تؤلف طرق معينة للتشاور والموافقة ، وهذا امر مستحيل الا اذا ظهرت الى عالم الوجود حكومة وطنية .

٣ — مطالب العرب : (٢) الهجرة

ريثما تؤلف الحـكومة الذاتية فان العرب ليطالبون بايقاف الهجرة اليهودية ايقافاً تاماً في الحال. وان مدة الخمس سنوات المعينة للهجرة التي نص عليها الكتاب الابيض قد انتهى اجلها كما ان الـ ٧٥٠٠٠ شهادة التي نص عليها قد وزعت كلها . وليس في نظر العرب ثمة سبب يدعو الى تعـديل اي نص من نصوص الـكتاب الابيض وعندما تتألف مؤسسات الحـكم الذاتي فان مسألة الهجرة ، شأنها شأن غيرها من المسائل العامة ، سيبت فيها ولا ريب ممثلو الشعب .

وهناك يعرض سؤالان : فقد يقال « ان العرب يعترضون على هجرة ذات مدى واسع في هذه الظروف ، فهل هذا يعني بحكم الضرورة انهم يقاومون جميع انواع المهاجرة ، او لا يرضون بهجرة مستمرة ذات مدى ضيق ، وهذا ما يحول دون مآس للافراد ومتاعب كثيرة ، ويسهل على الحـكومة ان تتخذ الاجراءات

Digitized by Birzeit University Library

الصارمة ضد الهجرة غير الشرعية ؟ » . فالجواب على ما تقدم ، من وجهة النظر العربية ، واضح . فالعرب ، كمبدأ ، يصرون على ان سياسة الهجرة يجب ان يفصل فيها الممثلون المنتخبون حسب الاصول من قبل سكان البلاد ، وان ادخال مهاجر واحد الى البلاد دون التداول بذلك واتخاذ قرار به يلاقي الاعتراض الذي يلاقيه ادخال مليون مهاجر . اضف الى هذا — وهو يساوي في الأهمية ما تقدم — ان ما يواجه العرب اليوم ليس رغبة عدد كبير من الافراد في ايجاد ملجأ لهم ، ولكنه حملة مكشوفة سافرة تهدف الى سيادة سياسية تقوم بها منظمة قومية واسعة الانتشار في العالم . وان من الاهمية بمكان في هذه الظروف ان لا يعمل شيء من شأنه ان يشجع هذه المنظمة على الاعتقاد بأنها اذا استعملت ضغطاً أشد فان في وسعها تأمين الحصول على امتيازات اكثر من العرب . ويجب ان يروا انه لن يكون لهم أمل أبداً في فرض ارادتهم على العرب .

وان العرب الشديدي الحماسة والذكاء لعلى علم من ان موقفهم قد يسبب المتاعب للافراد ، وانهم ليتأسفون على ذلك . ولكنهم مع هذا يؤمنون بأنهم ليقاتلون في حرب ستكون نتائجها حاسمة في تقرير مستقبل امتهم . وفي مثل هذا الصراع يتألم الافراد دوماً وأبداً . وهم يصرون على انه يجب ان لا ينحى باللائمة على العرب بسبب هذه الآلام بل على الساسة الصهيونيين . وان اول ضحايا الصهيونية السياسية من الافراد هم اليهود الذين قد يتمكنون في غير هذه الظروف من ان يجدوا لهم ملجأ امينا في العالم العربي كما وجدوه عندما طردوا من اسبانيا . وكذلك الشأن مع المدارس « الثقافية » و « الروحية » اليهودية المختلفة التي كان في وسعها ان تجد ، في غير هذه الظروف ، وطنها الثقافي في صهيون وتعيش بأمن

Digitized by Birzeit University Library

وطمأنينة مع جيرانها . وان العرب ليجرأون على ان يروا ايضاً ان امم العالم لو كانت تهتم اهتماماً عميقاً بآلام اليهود لكان بامكانها ان تتخذ الخطى السريعة الواسعة المدى لانعاشهم اكثر مما فعلت .

ثانياً — قد يسأل لو ان مؤسسات الحكم الذاتي قد الفت فهل يكون بالامكان ان يوافق العرب على هجرة اضافية ؟ ان هذا السؤال لا يمكن الاجابة عنه او البحث فيه بحثاً افتراضياً .

ان العرب ليرفضون ان يجعلوا مستقبلهم رهن اعلانهم بصورة حاسمة عما سيصنعونه بالهجرة عندما يصبحون احراراً في تقرير مصيرهم . وعندما يسمح لهم بان يحكموا انفسهم بانفسهم يكون لديهم وقت كاف لمعالجة المسألة على ضوء الاعتبارات والظروف السائدة آنذاك . وان اعظم ما يمكن ان يقال مقدماً هو ، انه اذا تألفت مؤسسات الحكم الذاتي واذا رغب المواطنون اليهود بفلسطين السماح بهجرة يهودية أخرى ، فيجب عليهم ان يتقدموا الى ذلك حسب الطريقة الديمقراطية باقناع الاكثرية بالضرورة الملحة على ذلك و بعدالة مطالبهم . وحينئذ لا يتمكنون من ان يضغطوا على لندن او واشنطون للضرب بمشيئة اغلبية سكان البلاد التي يعيشون فيها عرض الحائط . فاذا كانوا غير راغبين في ان ينهجوا هذا النهج الديموقراطي ، فعندئذ لا تكون مطالبتهم « بدولة ديموقراطية » سوى الانتهازية بعينها .

٤ — مطالب العرب : (٣) شراء الاراضي

يتلخص طلب العرب الثالث في أن انتقال الأراضي من أيدي العرب الى

Digitized by Birzeit University Library

المنظمات الصهيونية عن طريق البيع أو الإجارة أو أية طريقة أخرى مهما كانت يجب أن يحظر حظراً تاماً بتشريع يوضع من أجل هذه الغاية . وأن نظام انتقال الأراضي لسنة ١٩٤٠ ينص على حظره في بعض المنـــاطق وتقييده في بعضها وعلى استمراره حراً في بعضها الآخر .

وفي حين أن العرب قد رحبوا بهـذا النظام كخطوة نحو الاتجاه الصحيح ، فانهم ليعتبرونه غير ملائم وهم يعتقدون من ناحية أن الاعتبارات التي أدت الى حظر بيوع الأراضي في بعض المناطق ، ستؤدي إذا فهمت على حقيقتها فهمـاً صحيحاً ، الى الحظر فيها جميعها . ومن الناحية الثانية فانهم لا يعتقدون بان النظام قد طبق حسب الأصول. فهنالك بينات كثيرة تثبت أن النظام المذكور قد تملص منه على مدى واسع خلال السنوات الست الماضية ، وأن ذلك التملص يعزى من ناحية الى عدم صلاح الاجراءات التي اتخذتها الادارة في الاشراف على انتقـال الأراضي . ولذلك فان العرب يطلبون بادىء ذي بدء أن تسن أنظمة صارمة وأن تطبق هـــذه الأنظمة تطبيقاً دقيقاً شديداً . وسنعيد هنا تفسيرين قدما فيما يتعلق بالهجرة . فالأول أن مفكري العرب يتأكدون أن الصعوبات والمشقـات ستنال الأفراد من جراء حظر انتقـــال الأراضي ، ولكنهم لا يعتقدون أن ذلك يكون ذا وزن بالنظر لوجود خطة ترمي الى السيادة السياسية عن طريق اتخاذ شراء الأراضي كأداة . وأن أي درس لشراء الأراضي من قبل الصهيونيون في السنوات العشر الماضية ، ولا نعود بعجلة الزمان أكثر من ذلك ، يحمل على الاستنتاج أن الرغبة قد وجهته الى تسهيل الهجرة غير المشروعة وشطر عرب فلسطين من الأقطار المجاورة . ثانياً : لا يتحقق غرض

Digitized by Birzeit University Library

عنـدما نثير سؤالا حول ما إذا كانت الدولة الفلسطينية المستقلة ستسمح بانتقال الأراضي من العرب الى اليهود أم لا . وكل ما يمكن قوله في هذا الصدد أن البت في هذه المسألة يعود الى الشعب وفقاً للاجراءات الديمقراطية المتبعة عادة . ويمكننا أن نضيف الى هذين الاعتبارين اعتباراً ثالثاً ، وهو أن الجيل الناشىء من العرب المثقفين على الأقل يعتقد أنه ليس بكاف أن يحظر بيع الأراضي بواسطة التشريع وحده ، بل ان من الضروري أيضاً العمل على إزالة الأسباب التي تحفز المزارعين على بيع أراضيهم وهي الجهل ، والأساليب الزراعية السيئة التي تحول دون فلح الأرض فلاحة رابحة ، وعدم التسهيلات الملائمة للقروض الزراعية . وبناء على هذا يجب أن تقترن السياسة السلبية التي تحول دون بيع الأراضي ، ببرنامج ايجابي للتعليم الريفي ، وتحسين الأساليب الزراعية وتشجيع التعاون الزراعي ، واسعاف المدنيين ، وهذه هي أهداف « المشروع الانشائي » الذي ألفه مؤخراً نفر من العرب في فلسطين تدعمه المساعدات المالية التي قـدمتها بعض الحكومات العربية .

٥ — شكل الدولة الفلسطينية

لن نحقق غرضاً في رسمنا على الورق مشروع دستور الدولة الفلسطينية ذات الحكم الذاتي . يجب أن يكون هذا موضوع مباحثات ومداولات هيئة تشريعية. وعلى كل حال فيمكن ذكر بعض المبادىء العامة مقدماً :

أولاً : ستكون فلسطين « دولة عربية » ولا يعني هذا أن المواطنين غير العرب سيضطهدون أو يعاملون معاملة تمييز وتحيز عـلى أي وجه من الوجوه ، أو

Digitized by Birzeit University Library

أنهم سيشعرون بأنهم خارج جهاز الدولة التام . لكنه يعني أن الحكومة والاهلين سيسلمون بالحقيقة وهي أن أغلبية السكان من العرب وأن فلسطين جغرافياً هي جزء من العالم العربي ، وبناء على هذا تكون اللغة الاولى للدولة هي اللغة العربية، ويجب أن يكون في عداد أهداف الحكومة الرئيسية صيانة وتعزيز المسحة العربية التي تصطبغ بها البلاد وأن تتعاون تعاوناً وثيقاً مع الحكومات العربية الاخرى في مهمة رفع شأن الامة العربية الى مصاف مجموعة الامم .

ثانياً : يجب أن يبنى دستور الدولة على المبادىء الديمقراطية المتعلقة بمساواة في الحقوق التامة والفرص لجميع السكان بغض النظر عن الجنس أو الدين . وأن العرب ليؤمنون بأن ليس ثمة تناقض بين هذا المبدأ والمبدأ الذي ذكرناه سابقاً . وليس بالامر الفريد أن تأخذ الدولة مسحتها التي تصطبغ بها من المجموعة الوطنية التي تنتمي اليها أغلبية سكانها وفي الوقت نفسه تضم مجموعات أخرى تتمتع بكامل الحقوق والحرية التامة . أضف الى هذا أن عملية التمازج ستجري على توالي الايام ، في المظاهر الخارجية على أقل تعديل ، كما جرى ذلك فيما مضى قبل ظهور الصهيونية . وسيتعلم اليهود العربية وسيكيفون طرق حياتهم حسب محيط البلاد وسيقبلون بوضعهم كمواطنين . وهذا سيحدث لان الصبغة العربية للدولة الفلسطينية لن تفرض فرضاً بل انها ضرورة قضى بها وضع فلسطين الجغرافي . ومهما يكن الحكم في فلسطين فليس للبلاد إلا أن تحيى على أحد حالين : فاما أن تعيش معزولة وتتحمل الآلام الاقتصادية والروحية الناجمة عن عزلتها ، أو أن تصبح جزءاً من مجموعة الامم العربية . ومن الجلي الواضح أن الحال الاول مسلك مهلك إذا أخذ به .

Digitized by Birzeit University Library

ثالثـاً : يجب على العرب واليهود معاً أن يتحققوا من أنه يقتضي عليهم أن يعيشوا سوية باية طريقة ويتعلموا التعـــاون كمواطنين أنداد في دولة مشتركة. ولهذا السبب فان مفكري العرب لا يعتقدون أن دستور الدولة الفلسطينية يقتضي أن يكون مبنياً على الافتراض بوجود طائفتين منفصلة-احداهما عن الأخرى انفصالا تاماً ليتعذر وصله . ففي دولة لبنان المجاورة كانت خطة الحكومة والادارة قائمة خلال الخمس والعشرين سنة الماضية على مثل هذه الخطة إذ كانت الانتخابات وتوزيع الوزارات والتعيينات في جميع المناصب الادارية ، مهما كانت رفيعة أو وضيعة ، خاضعة لضرورة المحافظة على التوازن الدقيق بين الطوائف الدينية المختلفة. وكان من جراء ذلك أن اتسعت الشقة بين الطوائف وغمط حق الكفاءة الادارية. ولذلك يجب أن لا يسمح بظهور مثل هذا الوضع في فلسطين لأسباب ادارية ومن أجل سلامة الدولة السياسية واستقرارها . ويجب أن تكون التعيينات والترقيات على أساس الجدارة والأهلية لا على أي أساس آخر .

وفي بعض النواحي الحكومية والادارية قد يكون عدد اليهود أكثر من حصتهم في الوظائف وفي بعضها أقل . ولـكن ذلك لا يعني شيئاً في دولة سليمة وصحيحة .

ويجب أن نأمل أيضاً أن يؤدى الشعور بالمصلحة المشتركة ، ان عاجلا أو آجلا ، الى تأليف أحزاب سياسية جماعات تجتاز التقسيم الوطني . ففي الطوائف السليمة تكون الجماعات السياسية غير مؤسسة على المصالح الطائفية أو الاجتماعية أو التميزات ، بل على وجهات النظر المختلفة لرفاهة المجتمع باسره .

Digitized by Birzeit University Library

ومثل هذه الجماعات لن تتمكن من الظهور في فلسطين ما لم يصبح العرب واليهود على السواء ذوي مسؤولية لخير ورفاهية الجميع .

٦ — اليهود في الدولة الفلسطينية

لقد أوضحنا في الفقرات السالفة بانه لن يكون ثمة سؤال عن اليهود الذين دخلوا فلسطين وحصلوا على الجنسية الفلسطينية بالطرق الشرعية من أن يستثنوا من عضوية الدولة الفلسطينية أو من جنسية الدولة أو أن يرغموا على أن يكونوا في وضع « الأقلية » بالمعنى السيء لجماعة تقف بعيدة عن مجرى الحياة الرئيسي في الدولة وتعيش مع المجتمع باسره في أحوال من التسامح .

سيكون اليهود مواطنين في الدولة وتكون لهم جميع الحقوق التي يتمتع بها المواطنون .

وإذا أراد اليهود أن تكون لهم الحقوق التي يتمتع بها المواطنون فعليهم أيضاً أن يظهروا رغبتهم في تحمل التبعات والاضطلاع بالواجبات . وأن ما يطلبه العرب منهم هو أن يعترفوا بان ولاءهم السياسي الأول يجب أن يكون للحكومة الشرعية التي يعيشون في ظلالها وأن يقبلوا بالقوانين المعمول بها أو بدستور الدولة الذي يعين مجرى أعمالهم السياسية . ولا يتراءى للعرب أن هذا الطلب غير معقول لأنه لا يتسنى لدولة أن تكون موجودة إلا إذا قبل المواطنون كمجموعة بالدستور أو على أقل تعديل رضوا به وحصروا محاولاتهم في تغييره الى المجرى الذي وضعه الدستور وهي ضرورة لازمة للمبادىء الديمقراطية . وهنالك عامل آخر لا يقل في ضرورته عما تقدم وهو أن للدولة الحق في أن تدافع عن نفسها ضد المحاولات

Digitized by Birzeit University Library

المنظمة التي تسعى الى قلب دستورها بوسائل خارجة عن القانون . وان علاقة ما تقدم على وضع الوكالة اليهودية واضحة . فالمقدر الذي تظل فيه الوكالة هيئة تكرس نفسها لازدهار الشعب اليهودي وغيره وتظل فيه عنصراً ضرورياً لتعزيز مكانة الطائفة فان الحكومة الفلسطينية لا تتنازع معها بل تحاول جهدها أن تتعاون معها. غير أنه إذا ظلت الوكالة اليهودية حائزة على صبغتها كمؤسسة عالمية ويكون قطب رحاها خارج فلسطين وتعمل على قلب دستور فلسطين وفرض ارادتها بكل ما في وسعها من طاقة وقوة ، شرعية أو غير شرعية ، وبالاختصار إذا ظلت تنكر الولاء للدولة وتمنع الطائفة اليهودية في فلسطين من تقديم هذا الولاء ، فعندئذ يكون وجودها متضارباً مع أهداف الدولة الفلسطينية ومع وجودها هي ذاته .

ومع أن العرب يأملون أن يتمكن المواطنون اليهود في فلسطين على توالي الايام من انماء الشعور بالولاء للجنسية الفلسطينية ذلك الشعور الذي يستعيضون به عن رغبتهم الحالية في اقامة الدولة اليهودية ، فانهم ليعترفون بان ذلك يتطلب بعض الوقت وانه ستكون هنالك فترة انتقال يكون اليهود خلالها نهباً لولاءين ولمجموعتين من المصالح . وانهم ليعترفون أيضاً بان اليهود يودون أن يحتفظوا بمنظمتهم الطائفية وباحوالهم الشخصية ويشرفوا على مختلف المنظمات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية تلك المنظمات التي أقاموها ويفاخرون بها . وليس هنالك سؤال عن محاولة تقويض هذه المنظمة الطائفية اليهودية ، حتى ولو كان ذلك أمراً ممكناً ، وارغام اليهود على أن يفقدوا مميزاتهم . ان اكثر الطوائف نشاطاً ليست تلك الطرائف المتحدة الأصل بل التي تكون مزيجاً من عناصر متباينة .

وبناء على ذلك فليس ثمة سؤال عن التدخل في ممارسة الشريعة اليهودية

Digitized by Birzeit University Library

ولا عن ادارة الأموال اليهودية الدينية أو عن حق اليهود في تنظيم شؤونهم المتعلقة بالأحوال الشخصية وفقاً لشريعتهم التي تضطلع بها محاكمهم الخاصة. ويكاد يكون من البديهي أن نقول أن مبدأ السلطة الدينية يمتد في التاريخ العربي الى الأصل الذي يستند اليه وهو التعاليم الاسلامية . وهو مبدأ قد قبل به المجتمع كما انه لن يشرف اشرافاً غير معقول على أعمال النماء القومي ولا على مختلف الخدمات الاجتماعية اليهودية .

إن مفكري العرب ليقرون بقيمة انعاش الثقافة العبرية لليهود ولا يرغبون في أن يقوضوا أو يشوهوا نظام المدارس العبرية الذي أنشأته الطائفة اليهودية . فاذا ما رغب اليهود في صيانة مدارسهم الخاصة وتعليم لغتهم فيها، يكون لهم من الحقوق ما لغيرهم من الطوائف الأخرى . غير انه يجب أن توضح بعض الشروط لذلك ، وهي :—

أولا : ليس للطائفة اليهودية حق في الضغط على أفرادها بارسال أبنائهم الى مدارس الطائفة لا الى مدارس الدولة . والأمل معقود على أنه كلما تقدمت طرق التعليم في الدولة ستزداد نسبة أطفال اليهود الذين يذهبون اليها .

ثانياً : للحكومة الحق المخول لجميع الحكومات في أن تصدر الأنظمة العامة التي يقتضي على جميع المدارس أن تعمل بمقتضاها . ولها الحق أيضاً في التفتيش . ومن المحتمل أن تصر ، بوجه خاص ، على تعليم اللغة العربية كلغة ثانية في جميع المدارس . وهذه خطة قد بدأت تمليها المصلحة .

أما في الألوية المكتظة باليهود ، فانهم يتمتعون فيها بالحكم الذاتي البلدي ،

Digitized by Birzeit University Library

وتدير شؤونهم المحلية مجالس تنتخب انتخاباً ، يكون الموظفون المحليون في الحكومة على الغـــالب من اليهود . وستكون اللغة العبرية لغة رسمية في التشريع والادارة والتعليم .

٧ — السياسة الاجتماعية والاقتصادية للدولة الفلسطينية

لقد حاول الصهيونيون دائماً أن يظهروا أن الحركة العربية يديرها رجعيون من الناحية الاجتماعية ليس لهم من حافز يحفزهم سوى الكسب والاحتفاظ بمركزهم الاجتماعي . ليس هذا صحيحاً أبداً وانه اليوم لأقل صحة عن ذي قبل . فهنالك اهتمام جديد بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية بين عرب فلسطين شأنهم في ذلك شأن الأقطار المجاورة . وهو شعور جديد بالمسؤولية عن رفاهية المجموع وخـيره . وهـذا الشعور ولا شك أشد أثراً وأعمق جذوراً في نفوس النشىء حيث يعبرون عن هـــذا الشعور بميلهم الى الحركات اليسارية والانتماء الى منظمات الشؤون الاجتماعية . ولما كانت الحركة العربية تستمد قوتها دوماً وأبداً من الشباب ، فمن المنتظر ، إذا ما تألفت حكومة وطنية ، أن تسيطر عليها آراء الشباب وأفكارهم ، وأن تتبع سياسة تقدمية تستهدف رفع مستوى المعيشة ، وتزيد في رفاهية جميـع طبقات المجتمع .

إن من العبث أن نرسم هنا خطة مثـالية للسياسة الاجتماعية والاقتصادية ، ذلك انه لا يمكن لمثل هذه الخطة أن تثمر وتينع وتؤتي اكلها إلا عندما يعطي أهالي البلاد بعض المسؤولية في تحمل اعباء حكومتهم . غير أنه على كل حال يمكن وضع بعض المبادىء مقدماً . سيكون الهدف الذي تضعه الحـكومة نصب عينيهـا

Digitized by Birzeit University Library

لمثل هـذه الأمور انشاء مجتمع صحيح متوازن ومتجانس . ولذلك فستوجه معظم العناية في السنوات الأولى الى رفع مستوى معيشة العمال والمزارعين العرب الى مستوى يوازي نسبياً مستوى المعيشة عند اليهود ويكون ذلك بطرق لا يحصرها عد . منها ، على سبيل المثـال ، نشر التعليم بين جميع أفراد الشعب ، وتحسين الخدمات الاجتماعية ، وادخال الأساليب الزراعيـة الحديثة والآلات والأدوات الزراعية العصرية ، حيثما أمكن ذلك ، وتقديم القروض الزراعية الملائمة وتشجيع جمعيات التعاون ، ونقابات العمال ، وتحسين وسائل الاسكان . ولن يتيسر تنفيذ هذه المشاريع دون فرض ضرائب عالية على الأثرياء من أفراد المجتمع . وان الأثر الذي قد يحدثه هذا النهج هو أن يقال: « ان الضرائب فرضت على اليهود لتحسين حالة العرب » على انه مهما يكن من أمر فان هذا الادعاء لا أساس له من الحقيقة ، فان العرب قد رفضوا دائماً دعوى اليهود بانهم يدفعون للايرادات العامة اكثر مما يجب عليهم أن يدفعوه اليها . ومع ذلك فلو قبل هذا الافتراض فان الحجة القائمة عليه باطلة وفاسدة . انه شرط مؤكد لثبات واستقرار أية دولة ان لا تكون هنالك فروق عظيمة بين مختلف عناصرها . وان من الأهمية بمكان لفلسطين بصورة خاصة أن نقول أنه ما دامت هذه الفروق موجودة فلن يكون هنالك أمل في وجود التسامح الطبيعي الذي يعتمد عليه مستقبل السلام في فلسطين . أضف الى ذلك أن هذا الوضع سيكون مؤقتاً ، ذلك أن الاجراءات التي ستتخذها الحكومة والاتجاه الاقتصادي الطبيعي بين الفريقين سيسد في الحال هذه الفجوة .

فبينما تحاول الحكومة أن تضيق هذه الفجوة بين مستوى المعيشة عند الطائفتين، تحاول في الوقت نفسه أن تشجع التعـــاون بينهما في الحقل الزراعي والصناعي

Digitized by Birzeit University Library

والتجاري . أما ما يتعلق بالصناعة ، فستكون سياسة الحكومة العمل على تشجيع الصناعات التي يمكن أن تؤسس بفلسطين وتأتي بارباح اكثر مما تأتي به مثيلاتها في الشرق الأوسط لا أن تتبع السياسة المتجهة الآن التي تستهدف أن تسد البلاد حاجاتها بنفسها . وستكون التعرفة الجمركية على شكل تجعل من فلسطين جزءاً لا يتجزأ من النظام الاقتصادي العربي . أما فيما يتعلق بالزراعة ، فستشجع الحكومة أيضاً فلاحة الأراضي فلاحة تامة تعود بالنفع على المزارعين والمستهلكين معاً ، بغية التمكن من خلق مجتمع صحيح قح يعتمد على اعالة نفسه بنفسه ، كما أن الحكومة تعتمد في انعاش الأرض وفلاحتها على الطريقة التي تلائم طبيعة البلاد. ومن شأن هذه السياسة ، أن تكون لها ، ولا ريب ، مظاهر سلبية كما أن لها مظاهر ايجابية: وان نظام الصندوق القومي اليهودي ، الذي يقضي بان تظل الأراضي التابعة له وقفاً على اليهود ، ولا يمكن تأجيرها لغير اليهود ، وأن لا يستخدم فيها العرب قطعاً لهو نظام مخالف مخالفة تامة لفكرة الدولة الفلسطينية ولجميع مثل الديموقراطية العليا. هذا وان الحكومة لا تستطيع أن ترغم اليهود على استخدام العرب أو على بيع الأراضي لهم ، ولن تحاول ذلك . لكنها ستقر على أن يكون في وسعها فتح باب هذا المجال على مصراعيه .

ولا بد من ذكر نقطة أخرى في هذا الصدد ، وهي أن تقدم فلسطين الاقتصادي خلال الخمس وعشرين سنة الماضية ، قد انتعش من ناحية ، وانتكس من ناحية أخرى ، من جراء تدفق رؤوس الأموال اليهودية الطائلة من الخارج . وان العرب لعلى علم تام بالحاجة الى رؤوس الأموال الأجنبية لازدهار فلسطين ، لكنهم يعتقدون أن تدفق الأموال يجب أن ينظم وفقاً للاعتبارات العامة المتعلقة بالرفاهية الاقتصادية والسياسية .

Digitized by Birzeit University Library

فمن الناحية الاقتصادية لن يسمحوا بتكرار الحالة التي كانت سائدة خلال الفترات التي سبقت سنة ١٩٣٩ ، حيث كان تدفق رؤوس الأموال يتجاوز تجاوزاً كبيراً مقدرة البلاد على استيعابه استيعاباً منتجاً . فكان نتيجة ذلك رواج في العقارات وارتفاع في أسعار النقد مما أضفى على البلاد مظهراً زائفاً من مظاهر الازدهار . ومن الناحية السياسية ، فانهم ليشعرون بالمخاطر ، للدولة بوجه العموم ، ولكل من العرب واليهود على حد السواء ، من أن معظم رؤوس الأموال هي في أيدي اليهود ، وان قسماً عظيماً منها تشرف عليه المنظمات السياسية الكائنة مراكزها الرئيسية خارج البلاد .

٨ — المسيحيون العرب في الدولة الفلسطينية

يوجد في فلسطين زهاء مائة واربعون الف مسيحي عربي، يؤلفون ١٢ ½ في المائة من الناطقين بالضاد في هذه البلاد وان الصهيونيين وغيرهم ممن لا يبغون الخير للعرب ، ليتخذون من وجود هؤلاء المسيحيين ذريعة لحرمان العرب من الحكم الذاتي أو لاستبقاء الاشراف الأجنبي ، حتى وان البعض ممن لا يريدون سوءاً بالعرب قد يميلون الى التفكير بان هنالك حاجة قاسية لاعطاء الضمانات الخاصة أو انشاء نظام حكم خاص بالمسيحيين العرب في الدولة الفلسطينية .

إن هذه الفكرة تقوم على سوء ادراك لماهية الحركة العربية ، ذلك ان الوطنية العربية ليست في جوهرها وهدفها حركة دينية ، وان كانت تستمد بعض قوتها العاطفية من العوامل الدينية ، وان هدفها تأسيس مجتمع وطني متسامح حيث يعمل فيه العربي المسلم والعربي المسيحي ، كل منهما بحسب طريقته ويشتغلان معاً

Digitized by Birzeit University Library

يحدوهم في ذلك احترام متبادل ويكونان على قدم المساواة التامة حيث تخمد اختلافاتهم في العقائد والتقاليد بشعور تام مطرد نحو الوحدة القومية . ومثل هذا المجتمع قد وجد الى حد بعيد ، وقد ازدادت عرى هذه الأواصر توثيقاً ، من جراء الكفاح المشترك ضد الصهيونية . ففي جميع أطوار ذلك الكفاح ومظاهره كافح المسيحيون والمسلمون جنباً الى جنب بألفة وانسجام يحدوهم الى ذلك هدف واحد و برنامج واحد . فللمسيحيين مكانتهم في كل مؤسسة وطنية ، في اللجنة العربية العليا سابقاً والهيئة العربية العليا الآن وفي الوفود العديدة التي أمت لندن، وفي هيئات الدعاية المتعددة ، وفي المنظمات المحلية والحزبية. وقد ساندت مؤسسات المسيحيين الطائفية الحركة الوطنية بنفس الطريقة التي ساندتها المؤسسات الاسلامية .

واذا ما سأل سائل : « لماذا اتبع المسيحيون العرب هذه الطريقة وساروا على هذا النهج؟»، فالجواب بسيط . ذلك انهم ليقاومون الصهيونية كعرب و كمسيحيين، فهم ، كعرب ، يساهمون مساهمة تامة في معارضات الصهيونية التي شرحناها في الفصول السابقة . و كمسيحيين ، فهم لن يقبلوا اقتراح صيرورة اماكنهم المقدسة ايضاً تحت اشراف الحكومة اليهودية . وليس في مقدورهم ان يدركوا كيف ان حكومات الغرب المسيحية قد فكرت حتى ولو دقيقة واحدة ذلك بالتفكير . فهم يرون ان من الطبيعي ان تحكم البلاد المقدسة حكومة تمثل سكانها الذين يشتملون على اتباع الديانات الثلاث جميعاً ، ويحتمل ان يكونوا شديدي الاحساس بصفة البلاد المقدسة .

هنالك اعتبار آخر ذو أثر في موقفهم . فالمفكرون المسيحيون يرون انه ليس

Digitized by Birzeit University Library

لهم من بديل عن ذلك الانضواء في المجتمع العربي الوطني انضواء تاماً عن طيب خاطر ورغبة . وانه يستحيل عليهم ان يعيشوا كما عاشوا في السابق ، كطوائف منطوية على نفسها تلتصق بعالم غريب عنها ، وان لم يكن معادياً لها ، التصاقاً مزعزعاً . وانه ليستحيل عليهم ايضاً ، حتى ولو كان ذلك مرغوباً فيه ، ان يضعوا ثقتهم « بالحماية » الاجنبية . وان بعض الأقليات في بعض اصقاع أخرى من العالم العربي قد جربت « الحماية » وتعلمت ما تعني هذه « الحماية » . ذلك انه ما دامت السلطة الحامية على وفاق تام مع الأكثرية ، فربما لا يقع ضرر عظيم ، او على اقل تعديل ضرر ظاهر . ولكن اذا ما نشب صراع او قام توتر بين تلك السلطة و بين الأغلبية ، فعندئذ تغدو حالة الأقلية عديمة الجدوى وتكون نهباً لولائين او لارتباطين ، وترى الأغلبية ان الأقلية خطر على القضية الوطنية . هذا وان الأقلية تكون غير متأكدة من انها ستنال هذه « الحماية » حينما تكون في مسيس الحاجة اليها . ذلك ان الدولة الأجنبية اما ان تكون عاجزة عن الوفاء بوعودها او انها تجد في الصفقة التي تعقدها مع الاكثرية وفي تخليها عن حماية الأقلية ربحاً جزيلا .

وبناء على ذلك فالمسيحيون العرب لا يدعون بان لهم مركزاً خاصاً ، ولا يطلبون حماية ولا ضمان . وغاية ما يرغبون فيه العيش كمواطنين في الدولة الفلسطينية ، لهم جميع ما للمواطنين من حقوق وعليهم من تبعات، على ان يحتفظوا كما احتفظوا في الماضي والحال بمنظماتهم الطائفية واحوالهم الشخصية .

Digitized by Birzeit University Library

٩ — الاماكن المقدسة في الدولة الفلسطينية

في عداد الواجبات الاولية المترتبة على أية حكومة فلسطينية ، المحافظة على الصفة التقليدية للبلاد المقدسة ، وتأمين حرية وصول أتباع كافة الديانات الى الأماكن المقدسة . وان العرب ، مسلمهم ومسيحيهم ، متأكدون ولا ريب من ذلك ، وانهم ليعتقدون انه لو فحص تاريخ فلسطين خلال الألفي سنة الماضية ، لاتضح ان سجل العرب، كحراس على الأماكن المقدسة ، لا يقل شأناً عن سجلات الأمم الأخرى التي حكمت فلسطين ، وانهم ليشيرون انه اذا باتت الصفة التقليدية للبلاد المقدسة مهددة فان ذلك التهديد لن يصدر عن العرب .

ومع أن العرب يقرون بهذا الواجب الذي يتحتم على اية حكومة فلسطينية أن تضطلع به ، فانهم لا يقبلون بالنتائج التي غالباً ما يستنتجها الفرقاء ذوو الاختصاص . انهم لا يسلمون بان حماية الأماكن المقدسة لا يمكن تأمينها إلا بتدخل او إشراف دولة اجنبية او فريق من الأجانب . وعلى النقيض من ذلك ، فمن المحتمل ان تدخلاً او إشرافاً مثل هذا النوع سيجعل من قضية الأماكن المقدسة العوبة من ألاعيب السياسة الدولية وحجة للتدخل الفضولي في شؤون البلاد الداخلية ، منقصين بذلك من صفة فلسطين المقدسة المسالمة . وقد حدث هذا خلال حرب القرم وقد يحدث مرة أخرى . كما ان العرب لا يوافقون على ان ضرورة حماية الأماكن المقدسة قد تبرر تبريراً جزئياً حرمان سكان البلاد وأهليها من المساهمة في الحكومة أو من المناصب العالية في الادارة .

ويعتقد العرب ان في وسع الحكومة المؤلفة من أهل البلاد اصحاب الديانات

Digitized by Birzeit University Library

الثلاث والتي من واجبها القيام بهذا الواجب ، الاضطلاع بحماية الأماكن المقدسة وصيانة قدسية البلاد على احسن وجه . وليس ثمة سبب يقضي بضرورة التدخل الاجنبي او الاشراف الدولي من أجل الاضطلاع بهذا الواجب اضطلاعاً ملائماً . ومع ذلك فاذا كانت هيئة الأمم المتحدة ترى ان الضرورة تقضي بتقديم ضمانات خاصة ، فان العرب ، في حين انهم لا يزالون يصرون على ان هذه الضمانات غير ضرورية ولا طائل تحتها ، سيقدمونها عن طيبة خاطر . واذا قضت ضرورة حماية الأماكن المقدسة باتخاذ اية ترتيبات ادارية خاصة ، فيجب ان تكون ذات صبغة محلية ، وان المحافظة على بعض الاماكن المقدسة « الخاصة » ستترك كما كان شأنها في الماضي ، الى الهيئات او الطوائف الدينية المختلفة . غير انه يكون للحكومة الحق في التدخل اذا ما نشأ مثلا نزاع بين الطوائف المسيحية يؤدي الى تعكير صفو السلام و يقضي الى الاخلال بالأمن والنظام .

١٠ — فلسطين وهيئة الامم المتحدة

ستصبح الدولة الفلسطينية بطبيعة الحال عضواً في هيئة الأمم المتحدة ، شأنها في ذلك شأن الدول العربية الاخرى ، وستصر على ذلك كحق من حقوقها ، وفي الوقت نفسه ستصر على ان تحمل نصيبها من عبء تكوين مجتمع عالمي مكين يسوده السلام .

ان الأعباء الملقاة على عاتق الدولة الناضجة ذات التبعات عديدة ، لكن لا مندوحة من ان نذكر هنا احد هذه الاعباء . ان فلسطين ستلعب دوراً هاماً في أي نظام يستهدف السلامة العالمية ، وذلك بالنظر لموقعها الستراتيجي . ويعود للخبراء

Digitized by Birzeit University Library

الاخصائيين تعيين المظهر الدقيق الذي تتخذه مساهمة فلسطين للسلامة العالمية سواء أكان ذلك مثلا عن طريق تقديم فلسطين قواعد لتوضع تحت تصرف الأمم المتحدة اذا ما كلفت بذلك . واذا كان الأمر كما ذكر فما هي القواعد التي يحتاج اليها ، وما هي الطريق التي ستتبع في اشغال الأمم المتحدة لها ؟ هل يكون ذلك بالاجارة او باية طريقة أخرى ؟ غير ان ما يمكن قوله الآن بهذا الصدد هو ان فلسطين ستقبل عن طيبة خاطر أية مساهمة معقولة قد تكلف القيام بها .

ومع ان الفلسطينيين يرغبون رغبة صادقة في أن يأخذوا نصيبهم من العبء، فان لهم الحق في ان يوضحوا بعض الشروط التي يقبلون بموجبها وحدها دون سواها تقديم القواعد او قبول اية مقترحات ستراتيجية تقترحها هيئة الأمم المتحدة. وانهم لن يعقدوا إلا الامتيازات التي يرغب في عقدها الاعضاء الآخرون في هيئة الأمم المتحدة و بعبارة أخرى يجب ان يعترف بانهم على قدم المساواة مع الاعضاء الآخرين . أضف الى هذا انهم في الحين الذي يقبلون فيه عقد الامتيازات رغبة منهم في استتباب الأمن العالمي فانهم لن يقروا بان لأية دولة أو مجموعة من الدول الحق في أن تتدخل تدخلا فضولياً في شؤونهم الداخلية متذرعة بأن السلام العالمي يقضي بذلك . وأخيراً ، فانهم ليصرون على انه اذا اشغلت دولة واحدة القواعد إشغالا فعلياً ، فيجب ان يكون الإشراف النهائي منوطاً بهيئة دولية عالمية ، أن تكون لجنة اقليمية ، او مجلس الأمن التابع لهيئة الامم المتحدة ، وفيه تكون فلسطين والدول العربية الاخرى ممثلة تمثيلا حقيقياً .

Digitized by Birzeit University Library

١١ — فلسطين وجامعة الدول العربية

لقد اشتمل ميثاق جامعة الدول العربية الذي وقعه ممثلوا سبع حكومات عربية بالقاهرة في شهر ايار سنة ١٩٤٥ ، على ملحق خاص يتعلق بتمثيل فلسطين ، هذا نصه :—

« منذ نهاية الحرب العظمى الماضية سقطت عن البلاد العربية المنسلخة من الدولة العثمانية ، ومنهـا فلسطين ، ولاية تلك الدولة ، وأصبحت مستقلة بنفسها ، غير تابعـة لأية دولة أخرى ، وأعلنت معاهدة لوزان أن أمرها لأصحاب الشأن فيها . واذا لم تكن قد مكنت من تولي أمورها فان ميثاق العصبة في سنة ١٩١٩ لم يقرر النظام الذي وضعه لها إلا على أساس الاعتراف باســـتقلالها ، فوجودها واستقلالها الدولي من الناحية الشرعية أمر لا شك فيه ، كما انه لا شك في استقلال البـلاد العربية الأخرى ، واذا كانت المظاهر الخـارجية لذلك الاستقلال ظلت محجوبة لأسباب قاهرة ، فلا يسوغ أن يكون ذلك حائلا دون اشتراكها في اعمال مجلس الجامعة .

« ولذلك ترى الدول الموقعة عـلى ميثاق الجامعة العربية انه نظراً لظروف فلسطين الخاصة والى أن يتمتع هذا القطر بممارسة استقلاله فعلا يتولى مجلس الجامعة أمر اختيار مندوب عربي من فلسطين للاشتراك في أعماله . »

ويتضح من هذا الملحق أنه حالما تؤلف دولة فلسطينية مستقلة ، تصبح بطبيعة الحال عضواً في جامعة الدول العربيـة على قدم المساواة مع الأعضاء الآخرين . وستكون العضوية في جامعة الدول العربية من أهم العوامل الرئيسية في تقرير سياسة

Digitized by Birzeit University Library

الدولة ، كما ستكون سياستها الخارجية منطبقة تمـام الانطباق على سياسة الجامعة . وسيكون هدفها تأمين المركز اللائق بالعرب في المجتمع العالمي . وستهدف سياستها الجمركية توثيق الأواصر الاقتصادية بين فلسطين والبلاد العربية الأخرى ، وأن تعيد بقدر ما في وسعها من طاقة، الوحدة الاقتصادية العثمانية التي قوضتهـا بريطانيا العظمى وفرنسا بعـد سنة ١٩١٨ . وستوجه سياستها في التعليم الى المحافظة عـلى الثقافة العربية الفلسطينية واطراد ازدهارها كما ستكون على غرار المناهج المتبعة في الأقطار العربية الأخرى (باستثناء الفروق المحلية) .

وان الفوائد التي يجنيها عرب فلسطين من أخذهم بهذه السياسة ، لا تحتاج الى توكيد ، فليس ثمة شخص عرف البلاد العربية منذ سنة ١٩١٨ ، يحتاج الى أن تشرح له الآثار المثبطة للعزائم للعيش في دولة صغيرة مصطنعة مبتورة عن الوحدة التي تؤلف جزءاً طبيعياً منها . ومن الاهمية بمكان أن نعرج على ذكر الفوائد التي يجنيها اليهود من اتباع هذه السياسة سواء بسواء . ذلك أن من الصعوبة بمكان معرفة ما إذا كان في وسع صناعاتهم الناشئة أن تجد لها أسواقاً سوى أسواق العالم العربي ، وانهم لن يأملوا أن تكون لهم علاقات وصلات تجـارية ومرضية مع الاقطار العربية إلا إذا تدخل عرب فلسطين وحدهم في الامر دون سواهم ، وأبعد من هذا أثراً ، أن الطائفة اليهودية في فلسطين لن يتاح لها الفرار من العزلة الروحية المشلولة إلا إذا أصبحت فلسطين جزءاً من العالم العربي ذلك أن دولة يهودية في فلسطين ، معزولة عن العالم الذي يحيط بها ، لن تكون أقل من « غيتو » وان كانت تبدو عليه مظاهر السيادة والحكم .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الرابع

حلول متعاقبة

١ — مقدمة

ان المقترحات المبحوثة بايجاز في القسم السابق ، تشكل في نظر المفكرين والمعتدلين من العرب حلا معقولا ونهائياً لمعضلة فلسطين . وهم لا يستخفون بالصعوبات التي تعترض هذه المقترحات ولا بما يتطلبه ذلك من رصانة وصبر كافة الفرقاء الذين يعنيهم الامر. وبينما العرب لا يستطيعون التكهن عما اذا كان الفريق الآخر سيتذرع بالرصانة والصبر وحسن السياسة ، فانهم واثقون من جهتهم بانهم سيواجهون المشكلة بحكمة وتروٍ اذا ما أعطيت لهم التبعة لمواجهتها ، وانهم لن يدخروا وسعاً في سبيل ايجاد مجتمع نقي صحيح سياسي مع مواطنيهم اليهود ينال احترام سائر انحاء العالم . وسيستمرون في سعيهم هذا حتى ولو قابله اليهود بالشك وسوء الظن ، لانهم يعتذرون بان الطريق التي يسلكونها هي الطريق الوحيدة التي يمكن بها حل المشكلة .

والعرب يعتبرون مقترحاتهم معتدلة تسودها صفة المساواة ولكن هنالك وهماً عاماً يعتبر هذا الحل متطرفاً وحاوياً لأقصى ما يطالب به العرب ، اذ من الطبيعي ان يبعث تشبث العرب بهذا الحل في كل المناسبات وتصميمهم على الحصول عليه وهماً في اذهان الكثيرين بان الحل متطرف . وقد يزيد هذا الوهم ان هذا الحل لا يحمل في طياته تضحية جديدة من جانب العرب بل هو اصرار

Digitized by Birzeit University Library

على « بقاء القديم على قدمه » . هذه امور قد تطمس صفة المساواة والاعتدال التي تتحلى بها المقترحات العربية ، فيؤدي ذلك باللجنة الى محاولة ايجاد حل وسط بين ما يقترحه العرب وما يتطلبه اليهود من تأسيس دولة يهودية على اعتبار ان الحقيقة دائماً وسط بين طرفين وان كلا من موقف العرب واليهود موقف متطرف . ويمكن تلخيص ابرز صور الحلول بين هذين الحدين بما يأتي :

(١) المساواة ضمن « سوريا الكبرى » أو « الوحدة العربية » .

(٢) التقسيم .

(٣) تأليف حكومة وطنية يكون العرب فيها اكثرية لقاء موافقة العرب على استمرار هجرة يهودية محدودة .

(٤) بقاء شكل الحكومة على ما هو عليه مع السماح بشيء من الهجرة .

(٥) بقاء شكل الحكومة على ما هو عليه لكن دون أية هجرة اخرى .

و بالاضافة الى الحلول المتقدمة فهنالك اقتراحان قد يتوهم البعض بانهما يسهلان حل المشكلة ان لم يحلاها وهما :—

(١) وضع فلسطين تحت الوصاية الدولية .

(٢) اجراء المشاريع الضخمة للري والانشاء الاقتصادي ، على اعتقاد ان هذه المشاريع تزيد في مقدرة البلاد على الاستيعاب وتغير الجو السياسي من جهة اخرى .

فالعرب يرفضون جميع هذه المقترحات رفضاً يستند الى ما يؤمنون به من عقيدة ومبدأ . ويعتبرونها لا تشكل حلا نهائياً واضحاً للمشكلة، وفي الفصول التالية نبين الاسباب التي تدعو العرب الى رفض كل واحد منها .

Digitized by Birzeit University Library

٢ — المساواة ضمن الوحدة السورية او العربية

بين حين وآخر نرى فريقاً له اتصال وثيق بالجامعة العبرية يضع خططاً متباينة التفاصيل غير ان المبدأ الذي تستند اليه على وجه العموم واحد لا يتغير .

ويتلخص هذا المبدأ في ان ينال العرب واليهود مركزاً متساوياً في الوضع السياسي ان لم يكن في العدد ، وانشاء دولة ثنائية تصبح عضواً فعالا في الوحدة السورية او العربية او في الوحدة التي سيبت في امر انشائها . ليس من احد يرغب في نكران اخلاص ونزاهة اهداف هذه المشاريع ، لكن العرب يرفضونها رفضاً باتاً ليس لان اعتراضاتهم تقوم على مبدأ الصيغ التي تقدمها الصهيونية ، بل لانها في رأي العرب غير عملية ، وحتى لو كانت عملية فانها على جانب عظيم من الخطورة .

اما انها غير عملية فلتعذر قيام دولة ثنائية ما لم يسد مختلف الطوائف شعور عميق بالمصلحة المشتركة والولاء المشترك من شأنه ان يقرر الصراع السياسي القائم بين كلا الفريقين في الأوقات العصيبة والمسائل الهامة . فان لم يكن ذلك الشعور متوفراً عند تأسيس الدولة ، فان فعاليات الدولة ستستحيل الى نضال عنيف بين كلا الفريقين من أجل السيطرة ، وسيراقب كل منهما الفريق الآخر بسوء الظن والكره المتزايد ليتأكد من انه لن ينال اكثر من نصيبه ، وسيفصل في كافة الامور، سياسية كانت او ادارية ، بالاعتبارات الطائفية ، وتتسع الهوة بين الفريقين يوماً بعد يوم ويتعذر تفاهمهما ، ويكون شأنهما حينئذ شأن الجرح مهما كان طفيفاً لا بد من التهابه واتساعه حتى ينغل ويستحيل شفاؤه . وفي هذه

Digitized by Birzeit University Library

الظروف ليس امام الدولة سوى سلوك طريق واحد من طريقين : فاما ان يؤدي القلق الدائم الى حرب اهلية ويجر الدولة الى الفوضى التامة ، واما ان تطلب العون من القوى الخارجية لحفظ التوازن بين الفريقين ، وهذا يفتح امام كل من الفريقين باباً واسعاً للارتماء في احضان الدول الاجنبية وللدس ضد الفريق الآخر. وعندها يصبح انشاء مجتمع صحيح قائم على المصلحة المشتركة أمراً مستحيلا .

وحتى لو كانت هذه المشاريع عملية فهي في نظر العرب جد خطيرة . وعلة خطرها حقيقة اولية، ذلك ان واضعيها هم أقلية بين قومهم، فلو اعتبرناهم شرفاء فانهم عند تحقيق ما يطلبون من مساواة سيعملون بجهد لإنجاح الدولة الثنائية . ولكن من المؤكد انهم لن يجدوا بين اليهود سوى نفر من المؤيدين ، وستصرا كثرية ذلك المجتمع ، دون ادنى ريب ، على المطالبة بتأسيس دولة يهودية . فالحصول على المساواة وانشاء دولة ثنائية لن ترضي هذه الاكثرية ولكنها تقوي مركزها وتساعدها في نضالها للحصول على دولة يهودية . فليست المساواة اذن سوى خطوة في طريقها ومشجع على مضاعفة المساعي .

وفي وسعنا الاتيان بحجج كثيرة تأييداً لما تقدم ، وسنكتفي بذكر اثنتين على التخصيص : الاولى ، ان المساواة السياسية قد تعني عملياً سيطرة اليهود ، فاليهود في الوقت الحاضر افضل المجتمعين تنظيما واشد تأثيراً في الحياة السياسية للدول الغربية ، ولديهم من الموارد المالية ، وحذق الشؤون الاقتصادية ، اكثر مما لدى العرب . وبالرغم من ان العرب يتقدمون بسرعة فائقة في تنظيم حياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، فسيمضي وقت غير قصير قبل ان يبلغوا ما بلغه اليهود في هذين المضمارين . وقد يتمكن اليهود من السيطرة على الدولة الثنائية في طورها

Digitized by Birzeit University Library

الاول على الأقل ويستخدمونهـــا آلة للحصول على الدولة اليهودية التي يهدفون اليها .

والثانية ، ان من شأن ادخال هذه الدولة الى وحدة عربية ان يوسع مدى الخطر الصهيوني من فلسطين الى البلاد العربية بأسرها ، ويفتح العالم العربي بأسره نهائياً امام تغلغل الصهيونيين و بضائعهم ، ويهيء لهم فرصاً جديدة للدس بين العرب والعناصر المتذمرة وغير الموالية في كافة الاقطار العربية .

٣ — التقسيم

قد يبدو تقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية لأول وهلة حلا عمليـــاً للمشكلة ان لم يحقق جميع ما يطالب به كلا الفريقين ، فهو على الأقل يحقق بعض ما يطلبان . وقد يبدو للناظر السطحي حلا أقرب الى العدل من سواه . وقد يتوهم بانه يعطي كلا من العرب واليهود فرصة للتقدم الفسيح ويحد من سيطرة احدهما على الآخر ويحقق السلام الدائم الذي تصبو اليه فلسطين .

ولو كانت اعتراضات العرب على الصهيونية قائمة على الاعتبارات العملية أو على حساب الربح والخسارة لكان من الممكن أن يتبصروا على الأقل في المشاريع المقترحة لتقسيم فلسطين ويبينوا اعتراضاتهم العملية عليها . ولكن القضية العربية كما سبق واكدنا في القسم السابق هي قضية حق ومبدأ ، وكما أن الحق والمبدأ لا يجيزان أصلا جعل فلسطين دولة يهودية تحكمها اكثرية يهودية ، فهما أيضاً لا يجيزان انشاء هذه الدولة في قسم من فلسطين . فمـا دام العرب يعارضون الهجرة اليهودية المفروضة عليهم بالقوة والتي تستهدف جعلهم أقليـة في بلاد قطنوها منذ

Digitized by Birzeit University Library

فجر التاريخ مستندين الى ما لهم من الحق الطبيعي والى المبادىء الديموقراطية، فهذه المعارضة تبقى قائمة مهما كانت المساحة المتأثرة بالهجرة اليهودية ومهما كان عدد العرب المتضررين منها لأن الحق لا يتجزأ . ولو أقرّ العرب المبـدأ الصهيوني في قسم من فلسطين فليس ثمة سبب منطقي ليعارضوها في أقسام أخرى منها .

والى جانب المبدأ ، فكل مشروع تقسيم سيلاقي عند تطبيقه صعوبات عملية عديدة . ولن نفعل هنا سوى الإشارة الى هذه الاعتراضات ، لأنهـا مبحوثة بحثاً وافياً في تقرير لجنـة التقسيم لسنة ١٩٣٨ ، ذلك التقرير الرائع الذي أظهر بشكل قوى ونهائي ان فكرة التقسيم فـكرة مستحيلة التنفيذ لكثرة الصعوبات التي تعترضها . فبـلد صغير كفلسطين ليس في وسعه أن يتحمل وجود حكومتين مضطرتين الى اصطناع جميع مظاهر الاستقلال . والدولة العربية لا يمكنها مطلقاً سد حاجاتها المالية . و بالإضافة الى ذلك فحيـاة فلسطين الاقتصادية قد تضررت حتى الآن كثيراً من جراء السياسة التي فصلتها فصلا مصطنعاً عن الأقطار لمجاورة . فالتقييدات التي فرضت بعد الحرب العالمية الأولى على التجارة وحرية تنقل الأفراد وانشاء أنظمة منفصلة للنقد والادارة والمواصلات ، كل هذه العوامل الحقت أضرار كبـيرة بالتجارة وسببت جميع أنواع التشويش للافراد . وهذه الصعوبات بالاضافة الى صعوبات أخرى عديدة شبيهة بها ، لا يمكن حلها إلا إذا حددت صلاحيات كل من الدولتين الى حد يلغي صفة الاستقلال عنهما الغاء تاماً. ولكن هذا ينفي الغاية التي اقترح التقسيم من أجلها .

وأهم من هذا كله ما أبانه تقرير لجنة التقسيم من استحالة وضع حدود تجعل قيام ادارة معقولة للدولة اليهودية ممكناً وتضم اكثرية اليهود الى تلك الدولة، دون أن تضم في الوقت ذاته أقلية عربية كبيرة ومناطق يسكنها العرب .

Digitized by Birzeit University Library

ومن المستحيل تذليل هذه الصعوبة بتبـادل الأقليـات ، إذ انه الى جانب الصعوبة الكبرى المترتبة على محاولة نقل سكان يرفضون الانتقال طوعا واختياراً ويصرون على البقاء،فلن يمكن تبادل السكان إلا إذا كانت هنالك أقليتـان تحل احداهما محل الاخرى . ولكن هذا أمر غـير متحقق في حالة تقسيم فلسطين لان الاقلية العربية في الدولة اليهودية تزيد عن الاقلية اليهودية في الدولة العربيـــة زيادة كبرى .

ولهذه النقطة أهمية خاصة ذلك بان الدولة العربية ان تكون دولة خصبة الاراضي غنية الموارد قليلة السكان ، وانما تـكون دولة تتألف في الغالب من مناطق جبلية مكتظة بالسكان اكتظاظاً كبيراً وأرضهـا مستغلة استغلالا كلياً ، فمن الصعب ايجاد الارض اللازمة للعرب المنقولين .

ولقد كانت اللجنة الملـكية — وهي أول من اقترح التقسيم — عالمة بهذه الصعوبات العملية ، لكنها اعتقدت بان المزية التي ستجنى من التقسيم، وهي اعادة السلام الى الارض المقدسة ، ترجح في المـيزان على الصعوبات والمشاكل التي تعترض التقسيم . والعرب يعتقدون أن ما ظنته اللجنـة الملـكية مزية للتقسيم إن هو إلا وهم ، فليس في الواقع من حل يؤدـــي حتما الى القلق والصراع والحرب كالتقسيم . وقد لا يكون من المفيد التنبوء بما سيحصل في المستقبل، ولكن هنالك تنبوءات ربما كانت مخاطرات . فهنالك ثلاث نتائج محتملة تتبادر الى الذهن حالما يذكر التقسيم وهي :

أولا — لنفرض جدلا ان العالم العربي وأكثرية الشعب العربي في فلسطين وافقا على التقسيم فمن المستحيل أن يوافق العرب الذين تقع مساكنهم وقراهم

Digitized by Birzeit University Library

وأملاكهم في الدولة اليهودية على صيرورتهم أقلية دون ما كفاح . وانهم ، عاجلا أو آجلا ، وربما عاجلا، سيصطرعون مع اليهود ، ومن المحتم أن يخوض سائر عرب فلسطين والاقطار المجاورة غمرات هذا الصراع . وبكلمة موجزة ان المشكلة الفلسطينية كما تتمثل اليوم ستتكرر بشكل جديد في الدولة اليهودية. وهذا التكرر ، وان كان ضيق المدى ، خطره واثره مساويان لخطر وأثر المشكلة الفلسطينية بشكلها الحالي .

وثانياً — لن يرضي تأسيس دولة يهودية في قسم من فلسطين الاكثرية العظمى من الساسة الصهيونيين او سكان الدولة اليهودية . ومن المفيد تكرار ما أكدناه في الفصل السابق وهو ان الصهيونية السياسية تحمل في طياتها قوة دافعة لا يرضيها أمر دون تأسيس دولة يهودية في سائر فلسطين ، وقد لا يرضيها هذا ايضاً . فكل امتياز يناله الصهيونيون لا يشبع نهمهم بل يشجعهم على المطالبة باكثر من ذلك ويرسخ اقدامهم حتى يصبحوا اقدر في ضغطهم المتزايد للحصول على كل ما يشتهون . وقد تطرأ احوال تضطر الدولة اليهودية الى قبول اعداد كبيرة من المهاجرين الجدد الامر الذي يقضي الى التوسع على حساب جيرانها لايواء هؤلاء المهاجرين . وان وجد بين الصهيونيين في الدولة اليهودية عناصر معتدلة فان العناصر المتطرفة لا تلبث ان تجرفها وتطغى عليها .

ثالثاً — ان قيام دولة يهودية في قسم من فلسطين تكون ضعيفة ومحاطة بدول اجنبية ومعادية تحمل بعضها ان لم نقل كلها نوايا عدوانية ومطامع توسعية يغري هذه الدولة على التحالف مع كل عدو للعرب ، سواء أكان هذا العدو من العناصر المتذمرة داخل البلاد العربية ، او قوى خارجية لها في البلاد العربية

Digitized by Birzeit University Library

مآرب واطماع ، فتكون الدولة اليهودية في هذه الحالة جسراً يطؤه كل طامع في البلاد العربية ، و بؤرة لـكل حركة هدامة قد تحدث في هذه البلاد .

ان هذه أمور اكيدة الوقوع وليست مجرد حدس وتخمين ، وهي واضحة لكل من تتبع محاولات الوكالة اليهودية في السنوات الاخيرة في التفتيش عن جميع العناصر والقوى التي يمكنها التحالف معها واستخدامها في نضالها ضد القوميين من العرب .

٤ — حكومة وطنية مع هجرة محدودة

قد يقال ان من واجب العرب القبول بشيء من المساومة . فلقاء اعطائهم مؤسسات للحكم الذاتي ، عليهم ان يوافقوا على استمرار هجرة يهودية محدودة من حيث العدد ، فلا يسمح الا بدخول عدد متفق عليه ومن حيث الزمن فلا يسمح بالهجرة الا في فترة معينة . وقد يقال ان هذا الاقتراح يحقق المطالب المشروعة والاساسية لكل من الطرفين فهو من جهة يعطي العرب استقلالهم وينقذهم من خطر السيطرة الصهيونية وفي الوقت نفسه يعطي الوطن القومي اليهودي فرصة — وان تكن محدودة — للتوسع والنمو ، كما انه ينقذ كثيراً من العائلات اليهودية من شقاء الانفصال عن اقاربها .

قد لا يكون من الضروري مرة أخرى تكرار الاعتراضات المبنية على المبدأ التي يواجه بها العرب اقتراحاً كهذا . فلو كانت مطالبهم مبنية على تقدير للزايا أو تبرير المذهب الثقافي يغدو حق العرب موضعاً للمساومة والترضية . غير

Digitized by Birzeit University Library

ان دعواهم تقوم على الحق والمبدأ ، ولئن سلم بها اصلا فيجب التسليم بها على أساس قضية حق ومبدأ، لا على أساس مطالبتهم باعطاء شيء لا علاقة له بالقضية مطلقاً .

ومن الجهة الاخرى فان مسألة الهجرة أيضاً هي مسألة متعلقة بمبدأ . والعرب يبنون حقوقهم في هذه المسألة على اساس المبدأ القائل بان مسألة كالهجرة لها أبعد الأثر واعمقه في مستقبل البلاد وكيانها لا يجوز ان يقررها احد سوى حكومة وطنية تمثل سكان البلاد ويكون القرار فقط بالطرق الدستورية ، ولا يؤثر في موقفهم ان تكون الهجرة محدودة لانه ان صح المبدأ الذي يستندون اليه فانه يسري على أية هجرة ولو كانت ضئيلة العدد محدودة الزمن . فان زعم بان هذه المسألة مستعجلة لا يجوز البت فيها حتى تتم المفاوضات بشأنها او لأي سبب آخر ، اجاب العرب بان في هذا سبباً آخر يبرر طلبهم بانشاء حكومة مستقلة حالا و بلا ابطاء . وان زعم بان العرب سيطلب منهم قبول هذه الهجرة في اي حال ، كان الجواب انه لن يكون لكلمة « قبول » هذه اي معنى واضح الا اذا قامت في البلاد مؤسسات مسؤولة تمثل الشعب تمثيلا حقيقياً و يمنحها ولاءه وثقته .

و بالاضافة الى الحجج المبنية على الحق فهنالك اسباب عملية اخرى تؤيد موقف العرب . وسنذكر اثنين منها : اولا ، من المناسب ان نكرر ما ذكرناه في الفصول السابقة من ان الهجرة المحدودة لا ترضي الصهيونية ولا تحقق أياً من مطالبهم الاساسية . فلو كان هدفهم مجرد انقاذ عدد من اللاجئين او مجرد تخفيف الويلات عن بعض الافراد ، لكان في استمرار الهجرة المحدودة ارضاء جزئي لهم . هذا رغماً عن انه ليس هنالك ما يبرر توجيه الهجرة الى فلسطين لا الى سواها . لكن هدفهم هو الحصول على اكثرية في السكان وانشاء دولة ،

Digitized by Birzeit University Library

ولذا فان ادخال عدد محدود من المهاجرين لا يرضيهم بحال من الاحوال ولن يكون له اثر سوى تقوية مركزهم وتشجيعهم على المطالبة بما يريدون .

وهذا مثل آخر للاثر السيء الذي تركته الصهيونية السياسية في حياة اليهود انفسهم . فقبل اصدار وعد بلفور ، حين لم يكن العرب يخافون سيطرة اليهود السياسية ، كانت العلاقات بين العرب والمهاجرين اليهود ودية للغاية اما بعد ان لاح للعرب شبح السيطرة اليهودية ، فلن يرضوا بتقديم أية تضحية من شأنها أن تضعف مركزهم وتقوي مركز خصومهم . ولذلك فانهم لا يوافقون على اية هجرة مهما صغرت .

ثانياً — ان من الضروري الاشارة بان هذا الاقتراح مماثل لمـــا ورد في الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩ . فمن المعروف أن الكتاب الابيض اقترح انشاء حكومة وطنية على ان يدخل فلسطين خلال مدة معينة ٧٥،٠٠٠ مهاجر اضافي من اليهود . وها قد مرت سبع سنوات ولم تؤسس حكومة وطنية ، لا بل لم يذكر اسم الكتاب الابيض في احدث تصريح سياسي عن فلسطين . أما الـ ٧٥،٠٠٠ مهاجر فقد دخلوا ودخل سواهم .

لقد تعلم العرب من تجاربهم الطويلة ان قرارات الحكومة البريطانية عرضة للتغيير والانقلاب مهما كان القالب الذي تصاغ به قويا وشديداً ، وذلك بتغيير الوزارات او بتغير الاحوال . ولذلك فالعرب يخشون ان هم قبلوا بدخول مهاجرين جدد مقابل وعد بالحكم الذاتي ان تتكرر قصة الكتاب الابيض وبعد سبع سنوات اخرى لن يجدوا انفسهم اقرب الى الحكم الذاتي مما كانوا قبلا ، بل سيجدون انفسهم اقرب الى ان يصبحوا أقلية في بلادهم .

Digitized by Birzeit University Library

٥ — لا حكم ذاتي وهجرة محدودة

وهنالك تسوية اخرى مقترحة مؤداها بقاء فلسطين تحت الحكم البريطاني سواء بشكل الانتداب او الوصاية بالنيابة عن جمعية الامم على ان تبقى الهجرة اليهودية محدودة ومقيده ، وتستمر بموافقة العرب ان رضوا « ولكن لا لزوم لهذه الموافقة » . وهذا الحل وان لم يرض اياً من الفريقين فقد يزعم بانه على الاقل ينقذ كلا منهما من سيطرة الفريق الآخر .

وحل كهذا يصادف هوى وارتياحا لدى العقلية الانكلو سكسونية . فهو يتملق اعتقادهم العميق بان الحقيقة دائماً وسط بين طرفين وانها على اي حال ليست مما يسر و يفرح . وهو يشبه الملاحظة الشهيرة التي فاه بها لويد جورج مرة امام السر رونالد ستورس بانه ما دام كل من العرب واليهود يشكون من ستورس فستبقى الحكومة البريطانية راضية عنه . ولكن هذا الحل المزعوم لا يقبله العرب وهو مفعم بالمخاطر والمخاوف .

لا حاجة لتكرار اعتراضات العرب المبنية على المبدأ ، فقد كررت بما فيه الكفاية . وكل ما قيل بشأنها في الفصول السابقة ينطبق هنا انطباقاً اشد وأوفى. وهنالك اعتراضات اخرى من العرب على هذا الحل دون ان ينطبق على الحلول الاخرى . وتلك الاعتراضات ان الحلول المتقدمة ، مهما قيل فيها ، فانها تزعم ، على الاقل ، انها اعتراضات على التسوية النهائية للمشكلة . اما الاقتراح الحالي فانه لا يقترح اية تسوية نهائية . انه مظهر من مظاهر اليأس واعتراف بان المشكلة لا يمكن حلها . فهو لا يغير شيئاً في المشكلة كما تبدو اليوم ، ولكنه يفتح الباب لاضطرابات ولجان تحقيق ومقترحات وتبدلات سياسية لا يحصرها

Digitized by Birzeit University Library

عد . وهنالك اعتراض آخر اقوى واشد . فقد يزعم ان هذا الاقتراح يحتفظ على الاقل بالوضع الراهن ، ولكن هذا الزعم يتلاشى امام البحث والتحقيق . فكما ان اليس وجدت في احدى مراحل سيرها ان عليها الجري باقصى سرعتها لكي تبقى في مكانها لا لكي تتحرك من ذلك المكان ، فكذلك لا يمكن الاحتفاظ بالوضع الراهن في فلسطين بترك الامور على ما هي عليه ، فليس الاعتراض الوحيد على هذا الحل ان مجرد استمرار الهجرة مهما كانت قليلة هو تعديل «للوضع الراهن». ليس هذا فقط ، بل وأهم منه ان هذا الاقتراح يعني في الواقع حداً مهماً مكفهراً من القلق والتوتر والاضطراب عاش فيه سكان من عرب فلسطين ويهود منذ فجر الانتداب . ان فلسطين خلال الخمس والعشرين سنة لم تشاهد سوى الشكاوى المتتالية والشكاوى الفرعية والاضطرابات واعمال العنف واللجان والبيانات السياسية آخذ بعضها برقاب بعض .

ان سكان فلسطين خلال الخمس والعشرين سنة عاشوا تحت كابوس من الضغط المستمر والاخطار محدقة بهم من كل جانب وهم يجهلون ما يخفيه لهم المستقبل . ولهذا الضغط أثر في حياة السكان واتجاههم الفكري . ويزداد هذا الأثر سوءاً . وان لم تحل القضية حلا حاسماً فستبلغ البلاد وضعاً سيئاً — ان لم تكن قد بلغته — يستحيل معه تحمل كابوس هذا الضغط . ومتى وصلت الى ذلك الوضع فستلتهب ناراً وثورة ويلفها اليأس والظلمة ، وتنطلق العواطف المكبوتة المتحرقة للتعبير عما في النفوس . عند ذلك يزول آخر أمل للوصول الى حل معقول.

ويمكن شرح النقطة المتقدمة بطريقة اخرى اكثر وضوحاً وأهمية . فسنوات التوتر والاضطراب الخمس والعشرون جعلت من المستحيل ان يشعر اي فريق من

Digitized by Birzeit University Library

السكان بالولاء او المسؤولية السياسية تجاه الحكومة المنتدبة . حقاً لا تستطيع أية حكومة أجنبية في احسن الاحوال ان تكسب ولاء اي فريق . غير انه كان من المنتظر ان تحصل على الاقل على شيء من الولاء يؤمن سير الجهاز الحكومي . ولكن هذا لم يحدث قط . لقد ذكرت لجنة بيل سنة ١٩٣٧ ان في فلسطين « ثلاث حكومات هي الحكومة المنتدبة واللجنة العربية العليا والوكالة اليهودية » واضافت الى ذلك قولها ان حكومة فلسطين هي تلك الحكومة التي يشعر جميع السكان من عرب او يهود نحوها بولاء ضئيل . ومنذ الحوادث التي جرت بعد عام ١٩٣٧ ازدادت الحالة سوءاً . وكان من نتيجة ذلك ما لا يصعب اليوم تبينه. فسلطة الحكومة العادية تستند الى ما لديها من القوة ولدى كثير من السكان من دافع الاستمرار . اما شعار هذه الحكومة فهو تلك المراكز البوليسية البشعة التي تشوه كل مدينة وكل مكان شهير في فلسطين والتي قد تبقى بعد زوال هذه الحكومة كالقلاع الصليبية أثراً من اثار السيطرة الاجنبية ، ولكنها تختلف عن تلك القلاع بمنظرها القبيح الدال على سوء ذوق بانيها .

وليس من شأن هذه الأحوال ان تجعل قيام حكومة قديرة مستحيلا فحسب، بل كان لها ايضاً اثر معنوي سيء في نفوس الحاكمين والمحكومين على حد سواء . فالحاكمون يبتعدون عن الشعب و يتعالون عنه فيصبحون جاهلين باحواله ويقتنعون اثر سراب خادع يتوهمونه شبح عدم المحاباة . اما المحكومون فانهم يسرفون في سوء الظن ويفسرون كل تصرف من تصرفات الحكومة اسوأ تفسير اذ يعتبرونها العدو الواجب تجنبه ان لم يكن مقاومته .

.. ونتائج هذا كله واضحة كل الوضوح . فان يفضي هذا الوضع الى اضطراب

Digitized by Birzeit University Library

متواصل وهياج مستمر فحسب ، بل ان كل يوم يستمر فيه هذا الوضع تزداد الصعوبات ويتعذر ايجاد وضع مرض . ولئن اجتثت جذور الخنوع السياسي ، فما هي الازهار التي يؤمل تفتحها في المستقبل ؟

تمتاز جميع المقترحات التي تناولناها في الفصول السابقة بانها تشترط انشاء حكومات يمكنها ان تعول على ولاء بعض عناصر السكان على اقل تقدير . والمقترحات الحالية لا تنص على قيام حكومة من هذا الطراز بل انها تزيد قيامها صعوبة في اي ظرف من المستقبل .

٦ — لا حكم ذاتي ولا هجرة

لا ضرورة لبحث هذا الاقتراح مطولا اذ ان ما قيل في شجب الاقتراح السابق ينطبق عليه ايضاً ، ولكن اعتراض العرب عليه أخف وطأة بقليل من اعتراضهم على سابقه ، فهو يمتاز بايقاف الهجرة . وحتى هذه المزية ليست الا مزية ظاهرة قلقة ، اذ انه ما دامت حكومة البلاد في ايدي الاجانب فليس ما يضمن استمرار وقوف الهجرة . والفريق الذي لا تجري الامور في مصلحته سيجمع شجاعته ذات يوم ويقدم على اثارة القلق والاضطراب علماً منه بان الحكومة في الظروف قد تغير رأيها وتكيف موقفها لمصلحته . لهذا فالعرب يرفضون هذا الاقتراح ايضاً ولا يبدون اي حماس لتأييده .

٧ — الوصاية

يكثر الحديث في الوقت الحاضر عن الوصاية الدولية « التي تعتبر علاجا

Digitized by Birzeit University Library

سحريا جديداً للعالل التي تنتاب فلسطين . وما دامت الوصاية لم تعرف بعد تعريفاً دقيقاً ولم يعلم كيف سيجري تطبيقها عملياً ، فمن الصعب التحدث عنها . ولكن هنالك امراً يمكن قوله بكل تأكيد وهو ان وضع فلسطين تحت الوصاية الدولية لن يفعل شيئاً من شأنه ان يحل المشكلة . فستبقى المعضلة الكبرى في موضعها وهي : الى اي حد سيسمح باستمرار الهجرة اليهودية والى اي حد سيشجع اليهود في السيطرة على فلسطين ؟ ولا شك في ان نقل مسؤولية اتخاذ قرار بهذه المشكلة من الحكومة البريطانية الى منظمة الأمم المتحدة سيزيل عبئاً ثقيلا عن كاهل الحكومة البريطانية . غير انه قد يزيد في صعوبة حل المشكلة بجعلها اكثر عرضة للالاعيب والمؤامرات السياسية المختلفة .

وفيما عدا ما تقدم فليس بوسعنا الا التنبؤ عن معنى الوصاية . فان كان معناها استمرار حكم فلسطين بطريقة مماثلة لما تحكم به مقاطعات افريقيا الغربية وانكار الحكم الذاتي لسكانها ، فمن الطبيعي ان العرب يرفضونها رفضاً باتاً ، اذ قد بلوا هذا النوع من الحكم مدة كافيه وهو يتستر باسم الانتداب .

واذا قيل ان هذا ليس الهدف الذي توخاه اولئك الذين اقترحوا نظام الوصاية او قصدوه اجبنا بانه لم يكن كذلك هدف الذين اقترحوا نظام الانتداب ووضعوا المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم .

فاذا كان معنى « الوصاية » الوصاية المستمرة من اي نوع على سكان البلاد فعرب فلسطين يرفضونها ايضاً مهما فسر مدلولها بسخاء ومهما نال السكان نصيبهم من الحكم الفعلي في الادارة . ويضاف الان عامل جديد الى مطلبهم الاصلي كيما ينالوا عضوية كاملة غير منقوصة في المجتمع الدولي . ذلك ان جميع البلدان

Digitized by Birzeit University Library

العربية قد حصلت على استقلالها واصبحت اعضاء في منظمة الأمم المتحدة تلعب فيها دوراً هاماً ، وان عرب فلسطين لن يقبلوا مطلقاً ان يعتبروا هم وحدهم دون سائر الأمة العربية غير اكفاء للحكم الذاتي والاستقلال ، خصوصاً بعد ان اعترفت الدول العربية باستقلال فلسطين في ميثاق الجامعة العربية ، واعتبرت ان من حق فلسطين ارسال مندوبين عنها للاشتراك في اجتماعات مجلس الجامعة العربية.

اما اذا كانت « الوصاية » وسيلة مؤقتة يتوخى بها تسهيل الانتقال الى الاستقلال التام فقد يكون هنالك ما يقال لمصلحتها . ولكن حتى في هذه الحالة لا يمكن للعرب ان ينظروا فيها إلا اذا اعطيت الدول العربية نصيباً كاملا في مجلس الوصاية ، وكان من الامور الأكيدة التي لا شك فيها ان الوصي او الاوصياء لن يتبعوا سياسة تخالف اماني العرب القومية .

٨ — المشاريع الاقتصادية

هنالك حجة اخرى كثيراً ما يرجع اليها الدعاة الصهيونيون محاولين كسب « التقدميين » من قادة الفكر اليساريين في بريطانيا وامريكا . وتذهب هذه الحجة الى الزعم بان العرب قد يعارضون الهجرة اليهودية معارضة شديدة في الوقت الحاضر لعدم انسجام اهداف العرب السياسية مع اهداف الصهيونيين . لكن حدة معارضتهم تخف بل تزول تماماً اذا ما عمل العرب واليهود على انشاء مشاريع الري الضخمة والمشاريع الاقتصادية الانشائية الكبرى . فهذه المشاريع تستوعب النشاط الذي لديهم وترفع مستوى عيشهم . ومن شأن العمل المشترك ان يخلق بينهم شعوراً بالالفة والوحدة والمصلحة المشتركة .

Digitized by Birzeit University Library

ان مفكري العرب وسياسييهم ، بعد حقبة مرت على تباطؤهم في الأخذ بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية تباطؤاً كان في غير محله ، اخذوا الآن يشعرون بلزومها واهميتها . وهم راغبون كل الرغبة في ادخال المشاريع الكبرى التي من شأنها ان تزيد في انتاج البلاد ورفع مستوى المعيشة بين افراد الامة و يتقبلون أية مساعدة فنية كانت او مالية من دول الغرب في هذا السبيل . ولكن من الواضح الجلي ان الحاجة الى التقدم الاقتصادي والرغبة فيه لا علاقة لها مطلقاً بالقضية الصهيونية .

فمن السذاجة بل من الاهانة للعرب ان يزعم بانهم سيكفون عن مقاومة السيطرة الصهيونية تلك المقاومة المبنية في اساسها على المبدأ والحق والعقيدة لقاء نفع اقتصادي . فزعم كهذا يستند الى احد وهمين كاذبين : فاما ان يعتبر ان لكل انسان بل لكل امة ثمناً مادياً يمكن شراؤها به ، او انه يستند الى الوهم الشائع ومؤداه ان المشاكل الاقتصادية اقرب الى الواقع من المشاكل السياسية ، وان الأمم لا تهتم بالاستقلال والعزة القومية الا لانه ليس لديها الفرصة الكافية للاهتمام بالامور الاقتصادية واستهداف الترف والرفاهية .

ومن جهة اخرى من الخطأ التوهم بان الرضى السياسي يزداد مع زيادة الرخاء الاقتصادي . ونظرة الى التاريخ تظهر خطأ هذا الوهم . فالفترات المليئة بالاحداث السياسية الكبرى ليست تلك التي سادت فيها الازمات الاقتصادية ولكنها تلك التي سادها الرخاء . ومن المعروف انه متى شعر شعب بالاكتفاء الاقتصادي فان شكاواه السياسية تزيد حدة وتصبح عبئاً لا يمكنه الاستمرار في تحمله .

Digitized by Birzeit University Library

٩ — ما الذي وعد اليهود به ؟

قد يقول القارئ الانكليزي او الاميركي عند وصوله الى هذه النقطة من البحث بانه لو سلم بكل ما تقدم ووافق على الاعتراضات المقدمة على كل من الحلول السابقة ، فانه يتردد في قبول الحل العربي المقترح في القسم الثالث معتبراً ان هنالك اعتراضين هامين ضده .

فقد يتساءل قائلا اليس في انشاء دولة في فلسطين تحكمها اكثرية عربية خرق لتعهدات اعطيت للصهيونيين ووضع الذين قدموا فلسطين في موضع يشبه الجيتو الذين كانوا يعيشون به قبلا ؟ وتبديداً لهذا الشك نكتفي بارجاعه الى وعد بلفور وتفسيريه الرسميين الموجودين في الكتاب الابيض الصادر عام ١٩٢٢ والكتاب الابيض الصادر عام ١٩٣٩ . فهذا الوعد الذي لم يقبل به العرب يوماً لم ينص على انشاء دولة يهودية لكنه نص على انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . ولم يقل بشكل حازم بوجوب انشاء هذا الوطن القومي ولكنه قال بان حكومة جلالته « ستفعل كل ما في وسعها » لانشائه وقد ذكر الكتاب الابيض الصادر عام ١٩٢٢ بوضوح تام ان انشاء الوطن القومي لا يعني « فرض الدولة اليهودية على جميع سكان فلسطين ولكنه يعني تطور المجتمع اليهودي الحالي ... حتى يصبح مركزاً يشعر نحوه جميع اليهود ... بالاهتمام والفخر » ، واكد العرب ان حكومة جلالته « لم تفكر يوماً بجلاء السكان العرب ، او اختفاء اللغة والثقافة العربيتين من فلسطين او السيطرة عليهما » . واخيراً فقد بني الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩ على الافتراض بان الحكومة البريطانية قد عملت كل ما في وسعها

Digitized by Birzeit University Library

لانشاء وطن قومي لليهود وان سعيها قد انتهى الى النجاح في تأسيس وطن قومي كالذي حدده الكتاب الابيض لسنة ١٩٢٢ ، ولكن من المستحيل عليها عمل شيء جديد في هذا السبيل ، ولو امكن عمل شيء لكان ذلك مخالفاً للمصالح البريطانية الاساسية . وانه اذا كانت لليهود مطالب جديدة او رغبة في المحافظة على ما كسبوه فعليهم ان ينالوا موافقة العرب . وان الوسيلة لنيل هذه الموافقة هي انشاء مؤسسات للحكم الذاتي يشترك بها العرب واليهود بنسبة عدد السكان. ونرغب في ان نعيد الى ذهن القارئ الآن ما جاء في الكتاب الابيض الصادر عام ١٩٢٢ من ان تأسيس الوطن القومي لليهود في فلسطين هو حق لا علاقة له برضى العرب ، فقد يعترض بان هذا النص مناقض لما يطلبه العرب من انشاء دولة وطنية يكونون فيها اكثرية . وتأكيد كهذا يقوم على خطأ في المبدأ وفي فهم الواقع. ومن السذاجة والحمق التصور ان الحق الوحيد هو ذلك الذي لا يعتمد على موافقة الآخرين وحسن نيتهم ، وان الحياة في بلد بموافقة سكانه هي حياة مؤلمة وانها لذلك مهينة غير مقبولة أضف الى هذا أن من المستحيل تجاهل الحقيقة الواضحة وهي أنه مهما ملك اليهود من حقوق ، ومهما سلكوا من سبل ، ومهما صدر لهم من وعود ، فانهم لا يستطيعون الحياة في فلسطين بدون موافقة أكثرية سكانها .

وسواء أرضي اليهود أم لم يرضوا فانهم يعتمدون على حسن نية العرب ليس ذلك لان العرب هم اكثرية سكان فلسطين وفي وسعهم ان يهددوا بقاء الطائفة اليهودية ورفاهيتها ، بل هنالك سبب اخر اكثر اهمية يضاف الى ذلك ، وهو ان فلسطين قسم من العالم العربي، هذه حقائق جغرافية لا يمكن تجاهلها. أما لو كانت

Digitized by Birzeit University Library

فلسطين جزيرة نائية في المحيط الهادي فقد يكون في وسع اليهود (وحتى هذا أمر مشكوك فيه) ان يمضوا في خطتهم رغم ارادة سكان البلاد الاصليين . ولكن هذا العمل مستحيل ما دام العرب يحيطون فلسطين من كل جانب ، اولئك العرب اصحاب التقاليد والشعور الذين هم على اتم استعداد لاية تضحية متطرفة في سبيل اخوانهم عرب فلسطين المنهمكين الآن في انشاء وحدة لبلادهم . وسيشعر عرب فلسطين دائماً بان ولاءهم الاول هو نحو هذه الوحدة . وعلى حسن نية العرب يتوقف مستقبل مجهود اليهود .

وازاء هذه الحقائق يكون من العبث ان يتحدث المرء عن الاختيار بين الرضا والحق . ان الاختيار الحقيقي هو ما بين حسن النية والقوة . فان رغب اليهود في الحياة بفلسطين بسلام مع جيرانهم ، فان مستقبلهم لا خوف عليه ، ويصبح احلال السلام في فلسطين ممكناً . اما اذا ارادوا اتباع سياستهم في الهجرة والسيطرة بالقوة ، فلا يستغربوا اذا دافع العرب عن انفسهم بكل ما يملكون من وسائل .

١٠ — أيكون اليهود آمنين فى ظل الحكم العربى ؟

لا شك في ان اليهود سيزعمون ان من الخطر ان يضعوا انفسهم تحت حكم اكثرية عربية لا يثقون بوعودها ولا بضماناتها . فما الذي يضمن لهم ان يكونوا عرضة للتمييز والاضطهاد ؟

بالطبع لا يمكن اعطاء ضمان مطلق . وليس في العالم كله رجل واحد آمن يستطيع اذا ما رأى الاعمال الفظيعة التي جرت في السنين القليلة الماضية ان يجرأ على وضع ثقته في اي وعد مهما كان مقدساً او يضع ثقته في قوته الخاصة مهما

Digitized by Birzeit University Library

كانت عظيمة . وعقليات الشعوب تختلف بعضها عن بعض،والعرب يعتقدون انهم اقل الناس اضطهاداً لليهود . وهنالك حقيقتان تثبتان هذا القول . الاولى حسن المعاملة التي قابلوا بها اليهود . وهل في وسع يهودي مهما كان مغرضاً ان ينكر ان المعاملة التي لقيها اليهود من العرب تفضل ما لقوه من اي أمة اخرى وانهم وجدوا في العالم العربي مأوى لجأوا اليه كلما طردتهم البلاد وانكرتهم الأمم وان التاريخ العربي خال من أي اضطهاد لليهود ؟ وما كان صحيحاً في الماضي لا يزال صحيحاً حتى اليوم . والشواهد التي يقدمها اليهود لدحض هذه الحقيقة قتل عدد من اليهود في بغداد عام ١٩٤١ ، والحوادث التي جرت مؤخراً في طرابلس الغرب ، وكل هذه الشواهد لا تثبت ما يهدفون اليه . فحوادث بغداد جرت في الفترة الواقعة بين سقوط حكم رشيد عالي ودخول الجيش البريطاني تلك الفترة التي زال فيها النظام وهيمن الفوغاء . ولم يكن الباعث على كلا الاضطرابين المذكورين شعور ضد اليهود بل كان الباعث على ذلك المخاوف التي ثارت في نفوس العرب من الصهيونية . فان اثبتت هذه الحوادث شيئاً فلا تثبت سوى ان الصهيونية ترمي الى تشويه العلاقات الودية التقليدية بين العرب واليهود .

ثانياً — يجب ان يكون واضحاً ان العرب لا يريدون ان يضعوا اليهود في موقف الاقليـــة بالمعنى السيء لهذه الـكلمة ولا ان يرجعوهم الى (الجيتو) . فالمقترحات العربية لا تضع اليهود تحت حكم العرب وحدهم اذ ان العرب يعرضون على اليهود حقوقاً تامة في الرعوية الفلسطينية وفي الحقوق السياسية وفي الحـكومة. فلا يمكن وصفهم بانهم تحت الحـكم العربي اكثر مما يمكن وصف الكاثوليك في بريطانيا بانهم تحت الحـكم البروتستانتي . وبعد هذا كله علينا ان نؤكد ان

Digitized by Birzeit University Library

نتيجة هذه التجربة لا تتوقف فقط على موقف العرب من اليهود ولـكنها تتوقف على موقف اليهود من العرب . فالحوادث القاسية التي مر بها اليهود في تاريخهم المؤلم اثارت في نفوسهم شكا عميقاً بالعالم الخارجي فاصبحوا لا يثقون بوعوده ولا يؤمنون باخلاصه في ما يدعو اليه . والشك وسوء الظن لا بد منعكسان في نفس صاحبهما . فان افضيا به الى الابتعاد عن المسؤولية وعن الاعتراف بما للوطن من ولاء فهما يسببان التوتر ويقودان الى الاضطهاد . واصلاح هذا الأمر ليس بعائد على العرب وحدهم ما لم ينفض اليهود عنهم، رغم كل آلامهم الماضية، غبار الشك وسوء الظن . وما لم يظهروا رغبة في انجاح التجربة التي يدعوهم اليها العرب لانشاء مجتمع مشترك ، فلن يحول حسن ظن العرب وطيب نواياهم ، مهما عظمت، دون وقوع النازلة .

وما العرب واليهود وحدهم بمشتركين في هذا الأمر. فقد أظهر تاريخ الشرق الأدنى في القرن الأخير ان لا بد من وقوع مأساة اذا ما توهم عنصر من عناصر السكان بان في امكانه تحسين مركزه بالتحالف مع قوة اجنبية على حساب السكان الآخرين . وما لم يشعر جميع عناصر السكان انهم مرتبطون ارتباطاً لا تنفصم عراه في السراء والضراء وانهم لن يأملوا خيراً من التدخل الاجنبي فلا بد من وقوع الحروب الأهلية بينهم او لا بد على الأقل من ان يعيشوا في جو من القلق والتوتر. وهذه نقطة لها أهميتها، اذ ما دام اليهود يأملون بان يحصلوا بمساعدة لندن ووشنطون على ما لا يرضى به العرب فليس هنالك اي امل بتسوية دائمة نهائية تجلب الى فلسطين السلام . ومن واجب الحكومتين البريطانية والاميركية ان لا تشجعا اليهود في آمال من هذا القبيل .

Digitized by Birzeit University Library

١١ — ما الذي يجب عمله باللاجئين ؟

عند هذه النقطة قد يقول انكليزي او امريكي «كل هذا حسن . ولا شك في ان القضية العربية تستند الى حق قوي ظاهر ، ولا شك ايضاً في ان مشروع انشاء دولة يهودية مشروع غير عملي ، ولـكن ماذا نفعل باللاجئين »

من الامور التي نجحت فيها الدعاية الصهيونية حتى في اقناع اولئك الذين ينكرون الصهيونية ذاتها او الذين لم يعتنقوها يوماً ان هنالك ارتباطاً اساسياً بين مشكلة اللاجئين وفلسطين او بينها و بين الشرق الأوسط . وهكذا فاننا نجد بين خصوم فـكرة الدولة اليهودية قوماً ينادون بفتح ابواب فلسطين لهجرة اللاجئين اليهود او على الاقل بضرورة تهجير هؤلاء اللاجئين الى الشرق الأوسط متناسين انه لو كانت هذه الحجج مقبولة فلا يمكن الا ان تستند الى وعد صهيوني مخفي ».

ان العرب يصرون على انهم غير مسؤولين مطلقاً عن خلق مشكلة اللاجئين في اوروبا. ولهذا فليس من العدل مطالبتهم بحلها او بحل شطر كبير منها. و بصفتهم قسم من المجتمع الدولي يشعرون بما لحل مشكلة اللاجئين من اهمية لاقرار السلام في العالم . وهم مستعدون لتقبل حصتهم من حل هذه المشكلة ، سواء بالمساهمة المالية او باي شكل آخر بنسبة مواردهم وسكان بلادهم وبالشروط التي تسري على سائر الأمم الأخرى . قد يكون من غير اللائق محاولة التنبؤ بما ستوحي به اللجنة حلا لمشكلة اللاجئين الاوروبيين او تقديم اقتراحات لهذه الغاية ولـكن للعرب ملء الحق في اظهار رأيهم في الموضوع . فهم يؤكدون ان مشكلة اللاجئين لا يمكن حلها من قبل حكومة او حكومتين او على حساب بلد او بلدين ولـكن

Digitized by Birzeit University Library

يجب ان تقوم بحلها منظمة الأمم المتحدة وتوزع عبئها بالمساواة النسبية بين جميع الأمم ، وحين تقدير حصة العرب من اللاجئين يجب اعتبار ثلاثة أمور : اولها ، علينا ان نذكر ان فلسطين قد ساهمت خلال الخمس والعشرين سنة الماضية بنصيب أوفر مما ينالها في حل مشكلة اللاجئين . وفي الحقيقة انها استوعبت من المهاجرين اليهود اكثر مما استوعبت الولايات المتحدة و بريطانيا العظمى مجتمعتين . ثانياً ، علينا ان ننسى ان لليهود في فلسطين اطماعا سياسية . ولا شك انهم يستمرون في اطماعهم هذه ولو الى حين . ولذلك فحين تتقرر الأسس التي توزع بموجبها حصص كل دولة من اللاجئين فان الدول العربية تحتفظ لنفسها بحق رفض حصتها ان جاءت بشكل قد يساعد الصهيونيين او يقربهم من الحصول على ما يبتغون . وثالثاً ، ان العالم العربي ليس مستعداً حتى لبحث مسألة اللاجئين ما لم يعد الحق في فلسطين الى نصابه وتنضم الى منظمة الأمم المتحدة على قدم المساواة مع اخواتها الدول العربية الاخرى وسائر دول العالم .

١٢ — أيمكن كسب صداقة العرب ؟

قد يشك البعض فيما اذا كان حل المشكلة الصهيونية كافياً وحده لكسب مودة العرب وصداقتهم للدول الديمقراطية . فقد يقال انه لو فرضنا جدلا ان الحكومتين البريطانية والأميركية اعترفتا بحق العرب وعدالة قضيتهم وحلتا مشكلة فلسطين بالشكل الذي يرضيهم ، أفيؤثر هذا حقيقة في موقفهم السياسي ؟ افلا تشيع عوامل الضعف في الحياة السياسية العربية وتستمر على ذلك ، الأمر الذي يسبب نتائج غير مستقرة ؟ فان صح هذا افلا تكون بريطانيا والولايات

Digitized by Birzeit University Library

المتحدة قد ضحتا بصداقة اليهود دون ما هدف او مقابل ؟

ان وضع حد لأذى الصهيونية لا يؤدي وحده الى قيام صداقة متينة بين العرب والدول الديمقراطية ، ولـكنه شرط ضروري لأية خطوة في هذه الطريق. وطالما ان قضية فلسطين باقية بلا حل فيستحيل كل شيء في العالم العربي الى مرارة و يمتزج الحيف الذي ألم بفلسطين بكل حيف محلي وتفسد الحياة السياسية الداخلية في العالم العربي وتسوء علاقة العرب بالعالم الخارجي. ومهما صنعت الدول الغربية لمساعدة الاقطار العربية في الشرق الأوسط ، فلن يجدي ذلك في تحسين علاقة العرب بهم او جعلهم يشعرون نحوهم بالجميل . وستؤثر قضية فلسطين في كل ما يتخذه العرب من قرارات وتحد من الاعتدال والرزانة في كل ناحية من نواحي حياتهم القومية .

اما اذا حلت المشكلة الفلسطينية فستفتح الطريق امام الدول الغربية لانشاء صداقة مع العرب وتوصلا لهذه الصداقة يجب اتباع سياسة ايجابية نحوهم . فالصداقة السياسية لا تدوم اذا بنيت فقط على اساس جميل سابق او على اساس العواطف الودية المتبادلة بين بعض الأمم ، ولكنها تدوم اذا بنيت على اساس المصلحة في الحاضر وفي المستقبل . ولا يجوز ان تكون المصلحة سلبية فحسب لنيل هذه الصداقة . فمحاولة الدول الغربية كسب صداقة العرب زاعمة انها تحميهم من العالم الخارجي ، محاولة لا تجدي فتيلا . وعليهم ان يقدموا عملا ايجابياً يقدره العرب ولا يستطيعون الحصول عليه من سواهم ، يساعد على اعادة انشاء العالم العربي وتقدمه .

والعالم العربي اليوم يجتاز مرحلة من التقدم والتطور في حياته الاقتصادية

Digitized by Birzeit University Library

والاجتماعية والعقلية فالعرب يجاهدون لبناء كيان جديد ويعملون لحل مشاكل تمس كل ناحية من نواحي حياتهم ، ولن تأمل الدول الغربية كسب صداقة العرب الا اذا ساعدت مساعدة ايجابية في هذا النضال وأيدت بكل ما لها من نفوذ ، رسمياً كان او غير رسمي ، العناصر التقدمية المتنورة في العالم العربي .

١٣ — ما الذي يقبل العرب التضحية به ؟

وهنالك شك أخير قد يثيره الباحث : لو قبلت وجهة النظر العربية أفلا يكون العرب قد ربحوا كل شيء دون مقابل ؟ أفلا تشير التجارب السياسية التي مرت بالشعوب الأنكلوسكسونية الى أن التسويات الثابتة هي تلك التسويات المبنية على المصلحة المتبادلة أيضاً ؟

ورداً على هذا السؤال يكفي تذكر بعض صور من تاريخ السنوات الثلاثين الماضية ، ففي وسعنا أن نتذكر أن عرب فلسطين كانوا يؤلفون جزءاً متمماً من الحركه القومية العربية منذ ذر قرنها وأن أمانيهم السياسية النهائية أن يكونوا سادة أوطانهم مثلهم في ذلك مثل الأقطار العربية المجاورة وأن نتذكر أن نصف مليون يهودي أو أكثر قد دخلوا فلسطين منذ الانتداب بالقوة وبالرغم من إرادة العرب وفي وجه مقاومتهم الأكيدة .

فان أعلن العرب اليوم رضاهم عن قبول جميع اليهود الذين دخلوا فلسطين شرعياً خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية واعتبارهم مواطنين عاملين في المجتمع السياسي ، فلا يصح اتهام العرب بالتطرف أو عدم الرغبة في التضحية والمصالحة في سبيل الوصول إلى التفاهم والسلام . ويجب أن لا يساء تقدير ما في

Digitized by Birzeit University Library

تضحيتهم الكبرى هذه من خطر عظيم . فالعرب يقولون أن عـلى نصف المليون اليهودي الذين فرضوا دخولهم على فلسطين بالقوة أن لا يخشوا سوء عاقبة عدوانهم وعلى العالم أن لا يخشى تحميله مشكلة لاجئين جديدة . ويقول العرب أيضاً أنهم تنازلوا عن حقهم في العيش السهل الخالي من الإزعاج والتشويش و بدلا من ذلك فانهم مستعدون للقيام بتجربة خطرة وهي محاولة تأسيس دولة يشترك فيها مجتمع شديد المراس سيء الظن ذو أغراض وأطماع ومتأثر بمـا لاقاه من التجارب المرة القاسية في أوروبا . وهذه التجربة ستؤدي بهم الى انفعالات وصعوبات مستمرة وتثير في حياتهم جميع أنواع المشاكل والمتـاعب كل حين وتدعوهم الى التذرع بالصبر وحسن السياسة . ولكنهم مع ذلك راغبون في المجازفة لأنهم يريدون المساهمة في بناء عالم يسوده السلام والاستقرار ولأنهم قد سئموا المشكلة الصهيونية ويريدون أن يروها مبتوتاً بها نهائياً يحـلوها بالشكل الوحيد الذي يمكن أن تحسم فيه .

١٤ — استنتاجات

ليس في كل ما دون هنـا شيء واحد أملته المرارة أو أملاه البغض . وليس من عربي واحد يفكر في تاريخ فلسطين ابان الخمس والعشرين سنة الماضية إلا ويشعر بانه أمام ظلامة كبيرة ومأساة عظيمة . فالأمور التي تتناولها المشكلة والآثار التي تسببها تذهب عميقاً الى كل قلب . أما الآلام الشخصية التي تثيرها فعظيمة . منها ما هو واضح وبين ومنها ما لا يراه الانسان بسهولة . فالقضية إذن لا تسمح بان تكون عرضة لأنواع العواطف أو لأي شيء آخر ، سوى العمل الذي يوجهه التفكير الهادىء الصافي ويتحكم به الشعور بالمسؤولية القومية والشخصية .

Digitized by Birzeit University Library

والتفكير الجدي المستمر المؤيد بالتجارب الطويلة ، قد أقنع العرب ان محاولة اقامة دولة يهودية في فلسطين أمر يجب مقـــاومته مهما كان الثمن ومهما غلت التضحية. وهذه المقاومة مبنية على المبدأ والحق والعقيدة وعلى الاعتبارات السياسية العليا . فمن جهة المبدأ يعتبر العرب محاولة فرض المهاجرة اليهودية عليهم بالقوة بقصد ايجاد اكثرية يهودية محاولة مخالفة للعدل الطبيعي وللطرق الديمقراطية . ومن جهة الاعتبـارات السياسية يرى العرب في الصهيونية حركة تشوه وتؤذي حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وتجعل من المستحيل تحقيق تلك الأمنية الغالية المترائية وراء النهضة العربية في هذا الجيل ـ أمنية انشاء مجتمع عربي صحيح مستقر متقدم متفتح لكل ما في المدنيات العالمية من خير ومضطلع طوعاً بكل ما عليه من مسؤوليات واعباء تجاه المجتمع الانساني باسره . والقوة الدافعة للحركة الصهيونية قوة لا حد لمطامعها واتجاهاتها فكل مكسب جزئي تناله يقويها ويشجعها . وما لم تقلم اظفارها منذ الآن فانها ستدمر التوازن القائم في الشرق الأوسط باجمعه. وعلى أساس هذين الاعتبارين ، اعتبار المبدأ واعتبار السياسية ، يطالب العرب بانشاء حكومة نيابية ممثلة للشعب حالا وبلا أي ابطاء . وان يترك امر الهجرة وسواه من الأمور المتعلقة بالكيان الوطني لهذه الحكومة كيما تقرره وفقاً للطرق الديموقراطية العادية .

ولا شك انه يليق بكل عربي ان يتقدم برأيه حول مصالح بريطانيا واميركا وسياستهما . والعرب يتركون للجنة وللحكومتين اللتين عينتاها ان تقرر، إذا كانت الوعود التي اعطيت لليهود قبـل ثمان وعشرين سنة والتجارب التي قاساها اليهود في ظل الحكم الهتلري تبرر اتباع سياسة يعتبرها العرب ظالمة ومناقضة لوعود قطعت

Digitized by Birzeit University Library

لهم ، ومؤدية الى أسوأ العواقب وأوخم النتائج على الشرق الأوسط باسره وعلى العلاقات بين العرب والانكلو سكسون . وهم يطالبون أولئك الذين يوحون بالسياسة ويشيرون بوضعها با كثر من مجابهة واجبهم بنفس الشكل الجدي ونفس المسعى العقلي والمنطقي الذي اوحى بهذه الصفحات فيسيروا في طريق العقل حيث يقود الى الحقيقة اينما كانت .

مكتبة جامعة بيرزيت

Digitized by Birzeit University Library